

هذه الرواية

هـى : اشهر رواية فى الأدب الانجليزى المعاصر .

وهـو : أحد أهم كتاب الرواية . ليس فى انجلترا بل فى جميع انحاء العالم ، امتزجت ثقافته بالحضارة الاسلامية والغربية والرؤية الثاقبة للواقع الراهن وعالم الغد ..

لذا جاءت روايته «البرتقالة الآلية» معبرة عن سيادة روح العنف فى العالم المعاصر . واعتبرت نموذجا مجسدا لما يدور فى هذا العالم .

جرائم تهتز لها الابدان . يرتكبها اليكس ضد الابرياء من المواطنين . وجرائم أخرى مشابهة ترتكبها السلطات ضد اليكس عندما اجريت له عملية مسح مخ ..

وعندما أخرجت السينما العالمية هذه الرواية فى فيلم .. عام ١٩٧٢ منعته دول عديدة لما يتضمنه من مشاهد عنف وجنس تقشعر لها الاحاسيس

« البرتقالة الآلية »

رواية مجنونة .. لكاتب عاقل جدا ..

وهى أكثر الروايات مبيعا فى العالم

REWAYAT ALHILAL
No.477 SEPTEMBER 1988



ترجمت هذه الرواية كاملة عن النص الأدبى
CLOCK WORK ORANGE
by : ANTHINY BURGESS

مقدمة

الابن الشرعى لعصر العنف والتمرد

يسمونه الالة الكاتبة المتنقلة ــ يكتب فى كل مكان ــ ويمارس أكثر من نوع من الكتابة . من الرواية الى القصيدة والسيناريو والمسرحية . والتمثيلية التليفزيونية . انه الان أنشط واهم الادباء فى انجلترا ..

أعماله تتوالى الواحد تلو الاخر . والنجاحات تتواصل . يسافر كثيرا هنا وهناك ولا يكف عن الحركة . انه انتونى بيرجيس . وبالرغم من انه لا يعيش جزءا طويلا من السنة داخل بلاده . ويتحدث ويكتب بطلاقة ست لغات فهو انجليزى من راسه الى اخمص قدميه . واذا كانت اللغة الانجليزية حسب رأيه « صعبة جدا فى كتابتها » فهى وسيلته الاولى فى التعبير خاصة بالنسبة لرواياته التى يعدها افضل الوان الكتابة حتى الان ..

ولد انتونى بيرجيس عام ١٩١٧ فى شمال انجلترا بمانشستر فى اسرة كاثوليكية . كان ابوه عازفا على آلة البيانو . اما والدته فكانت تعمل فى الصالات الموسيقية . وقد ماتت وهو لا يزال طفلا . وكان من أسباب انغلاق الطفل وجود أم اخرى غير امه تتسم بالتعصب الدينى الشديد . استطاع أن يتعلم من خلال ابيه الرقص والغناء والعزف على البيانو . التحق بجامعة مانشستر بعد أن ترك المدرسة الكاثوليكية وكان يتمنى فى أول الامر ان يصبح عازفا الا انه قرر ان يهجر عالم الموسيقى كى يصبح اديبا . وقد ساعدته موهبته الادبية أن يقوم بالقاء المحاضرات والندوات الادبية فى الجيش ابان تجنيده . وقد ترك بلاده لاول مرة عام ١٩٤٢ متجها الى جبل طارق ثم اوربا . وهناك اختلط لاول مرة بعالم يختلف عن بلاده . وراى بشرا آخرين لا يتكلمون الانجليزية . وفى عام ١٩٥٤ سافر الى ماليزيا حيث التحق باحدى الوظائف التى وفرت له الوقت كى يمارس الكتابة . وقد أصيب عام ١٩٥٩ بمرض اضطره الى العودة الى وطنه . وقال الاطباء انه لن يعيش أكثر من عام . ولذا عزم انتونى أن يترك لامرأته ثروة فكتب فى أقل من عام خمس روايات . لكن القدر لم يوافه منيته .

وانما جاء على امراته . فتزوج من امراة ايطالية هاجر معها الى مالطا ثم ظل يتنقل — فيما بعد — بين البلاد حتى استقر اخيرا فى مونت كارلو واختارها لنفسه كمنفى « يعد المنفى شرطا اساسيا للكاتب . وانا سعيد دوما حين اجد نفسى هناك حيث لا اسمع الكثيرين من الناس يتحدثون بالانجليزية التى افتقدتها . فبدوت كأننى قد بترت لسانى فى الوقت الذى اجد انه لزاما على ان اكتب بلغة وطنى »

والمنفى يشكل بالنسبة للكتابات وحياة الكاتب علاقة خاصة . ففى روايته « حق الرد » نرى المدرس الذى يعمل فى مدرسة خاصة ولا يرضى بالاوضاع التى تنتهجها ادارة المدرسة فيقرر أن يهجر البلاد الى اوروبا .

وقد جلبت روايته « البرتقالة الالية او برتقالة بقلب الساعة » الشهرة الواسعة خاصة بعد نجاحها كفيلم سينمائى اخرجه ستانلى كيوبريك ١٩٧٢ . وقد اتبع فيها اسلوبا اقرب الى ما كان يفعله مواطنه الدوس هكسلى فى رواياته . فهو يدخل فقرات طويلة لها علاقة حميمة بالعمل الاساسى بعدة لغات اخرى خاصة اللغة الروسية، وتنتمى هذه الرواية الى ادب الخيال السياسى الذى يميل بيرجيس الى الكتابة فيه . حيث ينقل تجربة اغتصاب حدثت لزوجته من رجال اشرار . فمن المعتاد ان نشاهد صورة الضحايا فى الصحف بعد ان يتم ارتكاب الجرائم . لكننا لم نر ابدا صورا تبين لنا الجريمة أثناء وقوعها . ففى الجزء الاول نرى مجموعة احداث العنف التى يمارسها اليكس وعصابته .

والعنف هو حصيلة أشياء ناتجة عن استعمال الاليات لدخائلنا. فقد تحول عالمنا الى كتلة من العنف والدماء . حيث نرى فى النصف الثانى من الرواية عملية غسيل مخ لاليكس فى احدى المصحات يتحول على اثرها المجرم المتوحش الى انسان ذليل خنوع مطيع . اذا ضربه انسان انحنى ليقبل حذاءه وعندما اختبروا قابليته للجنس فقدموا له فتاة عارية ساحرة تقيأ !

وبالرغم ان بيرجيس يؤكد على العنف فى رواياته كما سنرى ، الا انه لا علاج لمجتمعنا المعاصر سوى بالعودة الى التعاليم التى جاءت فى الكتب السماوية . وهو يكن اعجابا خاصا للسيد المسيح عليه السلام . فيكتب حوله رواية « رجل الناصرة » ويرى ان حياة المسيح تشكل صدى لمأساة . ودرسا للتحمل . ومعاناة نفسية للتلاميذ . فلكل انسان كلماته وسماته . وهو يرى ان المسيح رجل

مثلنا . ينبثق من محيط كمحيطنا . رجل كانت له معجزاته الصغيرة التى لا تتوقف كثيرا كاحياء الموتى وشفاء المرضى . ولكن كانت له معجزة كبيرة واحدة هى التى جعلت منه رسولا ، وجعلتنا نؤمن له . هى انه استطاع ان يكون منا . واكبر منا . استطاع ان يكون المسيح الذى نعرفه جميعا . وقد تحولت هذه الرواية الى مسلسل تليفزيونى اخرجه فرانكوزيفيريللى عام ١٩٧٧ .

ونتيجة لمعيشة انتونى بيرجيس فى مونت كارلو حيث التأثر الواضح بفرنسا وتاريخها ، يختار أهم شخصية فى تاريخ البلاد ليقدمها فى روايته « سيموفونية نابوليون » التى نشرها عام ١٩٧٦ . ويتناول علاقات نابليون العاطفية ومغامراته فى البلاد التى غزاها مثل مصر وايطاليا وروسيا . وهو يتبع القائد الفرنسى الى هذه البلاد كأنه اب يراقب ابنه فى مسيرته . ويحاول تعديل مساره والتعاطف معه والتغاضى عن اخطائه مهما فعل . فنابليون هو ابن الثورة الذى يريد أن ينشىء امبراطورية عظيمة فوق اطلال أوربا الاقطاعية المهدمة التى عانت من الطغاة والجياع . لكن الثورة كانت أول من حطم قائدها . واتت عليه بعد أن حقق لها الكثير . فقد مات نابليون كى يبقى الى الابد حلم شعوب أوربا .

ويقول الناقد جيل لابوج فى مجلة « كانزان » الادبية — ١٥ ابريل ١٩٧٧ — كى تقرأ هذا الكتاب مثلما كتب . فيجب أن تكون عينك على الكتاب والاخرى تسمع بها السيمفونية الثالثة لبيتهوفن . وان تدور داخلك الحركة الرابعة فى السيمفونية .

وفى عام ١٩٧٨ نشر بيرجيس ثلاثة كتب مرة واحدة . الاول عن ارنست هيمنجواى بعنوان « هذا اللعين هيمنجواى » وفيه يتحدث عن الاحترام الذى يكنه للاديب الامريكى العظيم .. ويتحدث عن لقائه به خلال عام ١٩٤٤ ابان الحرب العالمية حينما زار فرنسا . ذلك اللقاء الذى جمعه بمالرو « بالالخسارة انه لم يكن لهذه المجموعات اية أفكار واضحة وهى تجتمع فى باريس » .

أما الكتاب الثانى فهو رواية بعنوان « روما تحت المطر » وفيها يتعرض لحياة « رولان بيرار » أحد كتاب السيناريو الذين يعيشون فى أوربا بعيدا عن بلادهم . لقد أصبح أرملا بعد زواج دام ستة

وعشرين عاما . وبعد أن ماتت زوجته يشعر انه قد استرد حريته
التى اغتصبت منه . فيشيع زوجته الى مثواها الاخير دون أن يشعر
بالاسف على ذلك . ويقرر أن يرحل الى روما كى يستقر فيها ..
وهناك يتعرف على امرأة تعمل مصورة فوتوغرافية ما تلبث أن تتركه
لترحل الى الشرق الاوسط لتصور أحداث حرب الخامس من يونيه .
بينما يبقى بيرار وحده فى غرفة المرأة يكتب سيناريو فيلم تموله
هوليود وتقوم ببطولته اخته . وفى هذا السيناريو يمزج بيرجيس
بين تجربته الخاصة واحاسيسه الذاتية وبين ابطاله الذين يصنعهم
بنفسه ..

اما الرواية الثالثة التى صدرت فى نفس العام « ١٩٨٥ » وفيها
يعود الى ادب الخيـال السياسى مرة اخرى وقد قارن النقاد بين
هذه الرواية وبين رواية بنفس العنوان للكاتب جورج أورويل . لكن
الشخصيات هنا تختلف . فنحن امام ديكتاتور عصرى يدعى بيف .
ربما هو صورة جديدة من بيفان . وهو يعيش فى عصر ملك يدعى
شارل الثالث وهناك مملكة تسمى بمملكة العمال يتزعمها بيف العامل
الذى يود ان يستولى على الحكم كى يصنع لنفسه كل القوانين التى
تسود المملكة ، الفوضى والاغتصابات فى شوارعها . ويفقدبيف امرأته
بعد أن اصيبت فى حريق فى احدى المستشفيات . كان عمال المطافى فى
اجازة حين احترقت زوجته . وهذه التجربة تدفع الشاب ان ينضم
الى مجموعة من الشباب المتشردين الذين يعيشون على هامش المجتمع
العبثى ويمارسون الاغتصابات والقتل ويسيلون الدماء ويقضـون
اوقات فراغهم فى تعلم اللغة اليونانية ويتزعم بيف هذه العصابة .
وهذه الرواية هى اولى روايات الكاتب التى ترجمت منذ اشـهر
الى اللغة العربية تحت عنوان « المسلمون قادمون » .

وفى منتصف عام ١٩٨١ ينشر روايته الثالثة حول العنف الذى
يجتاح العالم والذى تنبأ به فى رواية « البرتقالة الالية » . وقد اطلق
على هذه الرواية « قوى الظلام » التى سميت بـ « كتـاب القرن
العشرين » حيث يتناول بيرجيس ستين عاما كاملة من القرن العشرين
مؤكدا على مظاهر العنف داخله . وقد نشرت مجلة الاكسـبريس
الفرنسية حديثا طويلا مع بيرجيس فى العدد الصادر فى ٢٥ سبتمبر
عام ١٩٨١ سنورد منه بعض المقاطع لالقاء الاضواء على فكر بيرجيس
حول العنف والارهاب الدولى ، فهو يقول « حاولت فى اول الامر أن

اعطى صورة حول العالم الذى اعرفه .. منذ سنوات ميلادى عام
١٩١٧ وحتى الان . افكر جديا ان هذا الكتاب قد بيع جيـدا فى
الولايات المتحدة لانه طويل جدا . فالامريكيون لا يحبون أن يشتروا
كتابا يمكنهم قراءته فى جلسة واحدة . مثل اعمال فرانسواز ساجان .
انهم يشعرون بالغلبة اذا ما اشتروا شيئا ليس على مزاجهم . ففى
مساكنهم تجد دائما الكتاب السميك الثقيل الذى تضعه على دولابك
ويمكنك أن تحتفظ به كى تقراه يوميا . هذا الامر يضمن نجاح الكتاب
بينما انا لا اعلق اية اهمية على هذا الموضوع .

ويقول ان هذه الرواية قد استقبلت جيدا فى المملكة المتحـدة
لكن بشىء من الحذر . لانه يتصور ان القارىء الانجليزى له مفهوم
خاص حول العمل . وهذا الامر يختلف عنه فى ايرلندا او فرنسا او
اى بلد آخر . وعن بطل روايته تومى يقول « انه شاذ جنسـيا
وكاثوليكى » وهذا الموقف الدينى المتشدد داخله يتضارب مع سلوكه
الجنسي . فالكنيسة ترفض الشذوذ الجنسى . وعليه فانه يلزم وجود
الهين وقوتين . احدهما للجنس والاخر للكنيسة . الذى يطلب منه
ان يتخلص من كل شروره . فهو اب اسرة كما انه مجرم ، ليست له
وظيفة سوى أن يؤلف روايات شعبية . ويشعر تومى بالتمزق تجاه
هاتين القوتين فيرفض أن يختلط بأعماله مع هذا العالم . يشرك معه
البابا كارلو فى حل مشكلته . يقول له اننى أحس اننى انسان غير
موجود . فأنا لم أصبح شاذا باختيارى وتومى يؤمن بحرية الاختيار.
وعندما نختار فاننا نفضل الاحسن . فيجب أن يظل الشر خارجا ..
يقول له البابا « الانسان حر فيما يفعل لانه كائن طيب »
يلتقى تومى بالبابا كارلو ثانية عام ١٩١٨ الذى يخبره أن الحرب
قد انتهت . لكن الحرب ليست سوى وسيلة للتعبير عن صـفات
رائعة داخل الانسان . مثل الشجاعة وروح التضحية والاتحاد وحب
الزملاء . وتطرح هذا السؤال « هل يجب اختيار الشر مثل ذلك
الذى نقع تحت طائلته كي يمكن تحقيق نتائج مرضية » هل يجب أن
نتمنى قيام حرب جديدة . وتكون الاجابة البديهية هى الرفض .
فكارلو يرى ان ضرر الحرب اكثر من خيراتها .

ويقول بيرجيس ان كارلو كومبانانى هو نفسه البابا يوحنـا
الثامن « هذا الرجل بالنسبة لى هو اكثر الرجال خطورة فى القرن
العشرين . وبالطبع فقد كانت هناك النية فى تنصيبه قديسـا .

وعندما كنت أقيم بروما كتبت مقالا عددت فيه مجموعة من الوقائع ضده وقد اعتبر الفاتيكان أن هذه المقالات يجب أن توضع فى ملف « الشيطان » .

وانتونى بيرجيس يهتم جدا باللغة التى يكتب بها . فهو يرى ان اللغة بمثابة موسيقى العمل الروائى باكمله . ويرى ان البناء الروائى هو عماد العمل نفسه . وعالمه ينقسم الى قسمين هما العالم الطبيعى الذى نعيش فيه والعالم التحتانى الذى يعيشه كل انسان منا خاصا بنفسه لا يعرفه الاخرون ولا يجيد احد التعبير عنه « يجب ان يكون هناك معبر طويل بين العالمين ، فنحن نتعلق بعالمنا التحتانى دون ان نعرف اننا مسلوبون اليه فنحن لسنا الذين نبحث عن الله او الشيطان . عن الخير والشر . نحن متعلقون بهم بصورة أو بأخرى . فربما يكون هذا « تحتانى » وربما هذا أفضل وربما يكون الامر جسيما »

والعنف الذى يجتاح العالم الان وتنبأ به « بيرجيس » فى الستينيات هو العنف الابله الشرير ، وهذا العنف مرفوض تماما . فاذا كان الكاتب يكره الطمانينة العقيمة مثل كراهيته للحرب المدمرة، فان الكاتب يوجه فى اعماله المتعددة التى تحلل العنف وظواهره نداء الى أن تنبض القلوب من جديد . تنبض بالحب والانسانية . وان يتجه العالم الى الوحدة والخير والطمانينة ابان السلام اكثر من وقت الحرب .

القســـم الأول

الفصــل الأول

ماذا سيكون ، يا ترى ؟

أمامكم شخصى الضعيف ، راوى هذه القصة : اليكس ، ورفاقى الثلاثة : بيتر ، وجورجى ، وديم ... ان ديم هو ما يدل عليه اسمه فى لغتنا : الغبى ، ولقد جلسنا فى مشرب اللبن المعروف باسم (كوروفا) نقدح زناد افكارنا فيما سنفعله هذه الليلة الحالكة الظلام القارسة البرد فى هذا الشتاء اللعين ، وان كانت مع ذلك غير ممطرة ... ان مشرب كوروفا هذا — يا اخوانى — كان من المشارب التى يقدم فيها اللبن المخلوط ، وربما نسيتم حقيقة هذه المشارب ، لسرعة ما تغيرت طبيعتها هذه الايام ، وكثرة ماينساه الناس ، وقلة ما يقرأون من الصحف .. حسن اذن .. كان ما يقدم فيها هو اللبن مضافا اليه شىء او اشياء اخرى .. لم يكن مرخصا لاصحابها بتقديم المشروبات الروحية ، لكن لم يكن وقتها ثمة قانون يمنع اضافة المواد التى اعتادوا أن يضيفوها الى اللبن العتيد ، والتى كانت كفيلة بأن تسلبك الرشد وتطير عقلك فى أجواز الفضاء ، او كأنك كنت تشرب لبنا امتزجت به حدة النار الحامية ووخز السكاكين المشحوذة ، كما كنا نقول ، والنتيجة هى الهاب حواسك واعدادك للاقدام على كل القبائح التى يجترىء عليها المراهقون المنحرفون !.. وذلك هو ما شربناه فى ليلتنا هذه التى أبدأ بها سرد قصتى ..

كانت جيوبنا عامرة بالنقود ، وهكذا لم تكن بنا حاجة ماسة — من وجهة نظر توفير المزيد منها — الى مهاجمة احد المسنين العجائز فى احدى الحوارى الجانبية ورؤيته وهو يسبح فى دمائه بينما نتقاسم حصيلة الغنيمة بين أربعتنا ، ولا الى الاغارة على واحدة من ذوات الشعر الرمادى الميسورات فى محلها والقاء الرعب فى قلبها ثم الانصراف بالاسلاب ضاحكين مهللين .. ومع ذلك ، فان النقود — كما يقولون — ليست دائما هى كل شىء ...

كنا نحن الاربعة نلبس قمة « الموضة » ، وكانت فى تلك الايام
عبارة عن بنطلون أسود شديد الضيق ، وســــترة بلا طيات ولكن
بأكتاف اصطناعية ضخمة ، وربطات عنق بيضاء عليها رسوم بارزة
.. وكان شعر رءوسنا مرسلا الى حد ما ، واحذيتنا مصممة للركل
الاليم ...

فماذا سيكون اذن ، يا ترى ؟..
كان ثمة ثلاث نسوة جالسات الى المقصف جنبا لجنب ، لكننا
كنا اربعة فتيان نعمل بقاعدة (الواحد للكل او الكل للواحد) .
وكانت النسوة الثلاث مرتديات قمة (الموضة) ايضا ، علت رءوسهن
(باروكات) وردية وبرتقالية وخضراء ، لا يقل ثمن كل منها عن ثلاثة
او اربعة امثال أجر كل منهن الاسبوعى ، فيما يصل اليه تقديرى ،
وقد صبغن وجوههن بألوان قوس قزح ، وشفاههن بالاحمر القانى...
وكانت الفساتين سوداء طويلة مرسلة ، وفوق موضع النهود رشقت
بطاقات مفضضة صغيرة بأسماء ذكور من امثال (جو) و (ميك) ،
والمظنون انها أسماء أصحاب لهن منذ عهد الصبا ... وقد راحت
النسوة الثلاث يرمقننا باعينهن حينا ، حتى لقد بدا لى لحظة ان
نصحبهن الى الخارج لشىء من المعابثة ، تاركين ديم القبيح وحده ،
لما عهد فيه من الفظاظ والعنف فى استخدام اليدين والقدمين ..
غير انى عدلت عن هذا الخاطر ...
وكان المخلوق الجالس الى جانبى فوق الاريكة الوثيرة الممتدة
بطول ثلاثة جدران غائبا فى عالم آخر وهو يهذى بكلام غير مترابط ولا
مفهوم .. وكنت خبيرا بهذه الحال بعد أن جربتها من قبل مثل اى
أحد .. ويا لها من حال أيها الاخوة !.. فانك تقبع فى مكانك بعد ان
تشرب اللبن النارى العتيق ، واذا انت تشعر وكأن كل ما يحيط بك
هو من الماضى السحيق !.. انت تبصر كل ما حولك بلا مراء : الموائد ،
والاضواء ، وجهاز (الاستيريو) ، والغوانى ، والفتيان ، لكن هذه
الرؤية تبدو لك وكأنها ليست من عالم الواقع .. وتراك وقد سمرت
نظراتك باستهواء مغناطيسى فى حذائك أو ظفر اصبعك او نحو ذلك ،
وتشعر فى نفس الوقت كأن قبضة تمسك بقفاك وتهزك هزا متواصلا
حتى لا يبقى منك شىء ، فقد فقدت اسمك ، وجسمك ، وذاتك ،
وغدوت لا تحفل بشىء .. ومع ذلك تظل تنتظر وتنتظر الى ان يصفر
لون حذائك أو ظفر اصبعك ويزيد اصفرارا طول الوقت ... ثم
تأخذ الاضواء تتشقق وتنشطر انشطار الذرة ، واذا الحذاء او ظفر

الاصبع يكبر ، ويتضخم ، ويتمدد ، حتى يملأ فراغ الكون ، وتخال
انك على باب الاخرة ، ثم لا تلبث أن ترتد الى مكانك باكيا منتحبا ،
فليس من الصواب ان تعجل بنهايتك وتفارق دنياك على هـــــذه
الصورة !..

فماذا سيكون اذن ياترى ؟..

كان (الاستيريو) دائرا ، ويخيل اليك ان صوت المغنى يتحرك
من موضع الى آخر فى البار ، محلقا حتى السقف ثم هابطا مرة اخرى
من جدار الى جدار .. كانت اسطوانة للمغنى (برتى لاسكى) ،
ورايت احدى النسوة الثلاث الجالسات الى المقصف تدفع بطنها الى
الخارج ثم تردها الى الخلف مع صلصلة الموسيقى ... وشعرت الان
أن (السكاكين) المخلوطة باللبن بدأت وخزاتها ، واننى الان على
استعداد لبدء المغامرة ، وهكذا اخذت أردد مثل كلب ينبح : « الى
الخارج ، الى الخارج ، الى الخارج » !.. وعلى الاثر وكزت الجالس
الى جانبى غائبا فى عالمه وماضيا فى هذيانه وكزة شديدة على أذنه لم
يشعر بها ومضى فى الهذيان ، ولكن ما أن يفيق ويثوب الى وعيه حتى
يشعر بألم الوكزة ..

وقال جورجى ردا على ندائى :

ـ الى الخارج ، اين ؟..

فقلت له :

ـ آه ... فقط لمجرد المشى ، وسنرى يا اخوانى ماذا يجد
امامنا ...

وهكذا تقاطرنا الى الخارج فرادى فى ظلمة الليلة الشتوية ،
ومشينا فترة فى (بوليفار مارجانيتا) وانعطفنا منه الى (يوثبى افينو)
وهناك وجدنا ما كنا واثقين من وجوده ، أعنى دعابة تستفتح بهـــا
السهرة ... كان أمامنا شخص مسن عليه مسحة ناظر مدرســـة
محترم يلبس نظارة وقد تأبط بعض الكتب ومظلة وسار فاتحا فمه
فى هواء الليل البارد ، وبدا أنه قادم من ناحية المكتبة العامة القريبة ...
وفى تلك الايام ما كنت تلتقى بكثيرين من طراز أواسط الناس سائرين
فى الطرقات بعد حلول الظلام ، فما بالك مع تناقص أفراد الشرطة
وانتشارنا نحن الفتيان الاماثل هنا وهناك !..

وكان هذا الاستاذ النموذجى هو الوحيد الذى يسير فى الشارع
كله ... وهكذا اقتربنا منه ، بكل أدب ، وقلت له :

ـ عفوا يا أخ !...

بدا عليه شيء من الوجل حين أبصر قدومنا ، نحن الاربعة ، نحوه هكذا هادئين مؤدبين مبتسمين ، غير أنه قال بلهجة مدرس عالية النبرات ، وكأنما يحاول أن يبين لنا أنه غير وجل ولا هياب :

– نعم ؟.. ماذا هناك ؟..

فتوليت الرد قائلا :

– أرى انك تحمل كتبا تحت ابطك يا اخ .. هو شيء مبهج نادر حقيقة يا أخي ان يصادف الا نسان واحدا لا يزال يقرأ !..

فقال وقد اهتز تماما :

– آه !.. احقا ؟.. آه !.. فهمت !..

وراح ينقل نظراته بيننا نحن الاربعة بعد ان الفى نفسه مطوقا بمربع بشرى يغالى فى الابتسام والتأدب ..

قلت له :

– نعم ... يهمنى أعظم الاهتمام يا اخ ان تتكرم وتسمح لى برؤية نوعية هذه الكتب التى تحت ابطك .. فليس أحب الى فى هذه الدنيا من رؤية كتاب جيد نظيف ...

فقال الرجل :

– نظيف ؟.. نظيف ؟.. ايه ؟! ..

وعندئذ بعثر بيتر الكتب الثلاثة ووزعها علينا بسرعة ، فأخذ كل منا كتابا يفحصه باستثناء ديم .. وكان الكتاب الذى وقع فى يدى بعنوان (مبادىء علم البللوريات) ... فتحت الكتاب وقلت وانا اقلب الصفحات :

– بديع !.. نوعية ممتازة فعلا !..

وفجأة تغيرت لهجتى وقلت بلهجة المصدوم :

– لكن ماهذا الذى أراه هنا ؟! .. ما هذه الكلمات القذرة ؟!.. ان وجهى يحمر خجلا من هذه الكلمات !.. لقد خيبت ظنى فيك يا اخ .. خيبت ظنى فعلا !..

فحاول ان يقول :

– لكن !.. لكن !.. لكن !..

وقال جورجي بدوره وكان الكتاب الذى معه بعنوان (معجزة الرقائق الثلجية) :

– وهنا !.. هذا ما لابد ان اصفه بأنه قذارة حقيقية !.. أرى كلمة تبدأ بحرف فاء وكلمة اخرى تبدأ بحرف سين !..

وقال ديم الذى انضم الى بيتر ووقف ينظر من فوق منكبه وقد تمادى كثيرا كعادته :

– آه !.. هنا وصف لما فعله معها ، وصورة ايضا !.. ماذا ؟.. ما انت الا عجوز فاجر ملوث !..

وعدت أنا اقول :

– رجل عجوز مثلك يفعل هذا ؟! ..

واخذت امزق صفحات الكتاب الذى معى واخذ كل منهم يفعل المثل بالكتب التى فى أيديهم ...

عندئذ راح الاستاذ يصيح قائلا :

– لكن هذه الكتب ليست لى !.. هى ملك مكتبة البلدية !.. هذا منتهى الاستهتار والهمجية !..

واخذ يحاول انتزاع الكتب منا وهو يقول بلهجة مؤثرة :

– كفوا عن هذا العمل الاجرامى !.. هاتوا الكتب !..

فقلت له :

– انت تستحق ان نلقنك درسا يا أخ !.. هذا ماتستحقه فعـلا !..

وكان كتاب البللوريات الذى معي مجلدا تجليدا سميكا ويصعب تمزيقه ، اذ كان من الكتب النفيسة التى اعدت فى الايام الخوالى حينما كان يراد لمثلهـــا ان تبقى طويلا ، غير اننى عالجت أن انتزع الصفحات والقيها فى الهواء مثل رقائق الثلوج ، مطوحا بها على وجه العجوز المحتج الصارخ ... وما لبث الرفاق الاخرون أن حذوا حذوى بالكتب التى معهم ، فيما راح ديم يتراقص كالبهلوان من حولنا وهو ما كان طبعه ... وقال بيتر اخيرا :

– هاك كتبك ، اجمعها وامضغها ايها القارىء القـذر لكتب السفالة والانحطاط !..

وقلت انا :

– ايها العجوز القبيح الوغد !..

ثم احكمنا الحصار حوله وبدأنا نعبث به شخصيا ، فامسـك بيتر بيديه ، وتولى جورجي فتح فمه بالقوة على سعته ، وعمد ديم الى انتزاع أسنانه الصناعية علوا وسفلا والقى بها على الارض ، حيث اخذت أدوسها بقدمى لتهشيمها ، وان كانت لعنة الله عليها مصنوعة من مادة بلاستيكية متينة .. فانبعثت من العجوز تأوهات كالفحيح صدرت من حلقه ، وعلى الاثر تخلى جورجي عن الفم الفاغر (الاهتم)

وأن عاجله بضربة من قبضته المطعمة بالحديد سرعان ما اسالت الدم من اللثتين قانيا جميلا يا اخوانى !... وبعدها لم يكن امامنا سوى أن نجرده من ملابسه الخارجية حتى ظهرت سراويله الطويلة التى بدت غالية الثمن ، وجعلت ديم ينظر بجشع ، واخيرا رفسه بيتر فى بطنه ، ثم اطلقنا سراحه ، فأسرع يبتعـد مترنحا ، متطارحا ، متأوها ، وهو لا يدرى ماذا دهاه ولا اى طريق يسلك ... أما نحن فقد انشغلنا بتفتيش جيوبه ، واخذ ديم يرقص من حولنا مستعينا بالمظلة ، بيد أن الجيوب لم تكن عامرة بنقود تذكر ، وكانت بها عدة رسائل يرجع تاريخ بعضها الى عام ١٩٦٠ ، مصدرة بعبارات تقول : (يا أعز أعزائى وأحب أحبابى) ، الى جانب سلسلة مفاتيح وقلم يتسرب حبره .. ولم يلبث ديم أن كف عن الرقص واخذ يقرأ احدى الرسائل بصوت مرتفع وكأنما يريد أن يعرف الشـارع الخالى انه يستطيع القراءة : « حبيبتى الغالية — لن اتوقف عن التفكير فيك طوال غيابك ، وأرجو أن تتذكرى تدفئة نفسك بالملابس الكافية كلما خرجت ليلا » ... ثم قهقه عاليا لكى يدارى عنا جهالته وتخبطه ...
وفى النهاية قلت لهم :

— ارموها يا اخوانى !..

كانت نقودا زهيدة بالمقارنة بما كان فى جيوبنا فعلا ... وهكذا طوحناها فى الهواء ، ثم حطمنا المظلة ومزقنا الملابس وقذفنا بها فى مهب الرياح ، وانتهت بذلك مغامرتنا مع الاستاذ العجوز الذى هو فاضل ومبجل !..

وأعترف أننا لم نقم بعمل يذكر ، ولكنها كانت فاتحة متواضعة لمغامرات هذه الليلة ، ولم اقصد بسردها عليكم مفاخرة ولا تباهيا ، ولكن تقريرا للواقع بأمانة !...

ثم كان مفعول اللبن المحمى بوخز السكاكين قد بدأت تخف حدته ، وتعين علينا أن نقوم بعمل لائق بعد تخفيف جيوبنا من نقودها الكثيرة بشراء مشروبات نارية أخرى تكون حافزا قويا على هذا العمل ، مثل اغتصاب محل ونهب محتوياته ، ولتكون جولة الشراب الثانية ستارا يثبت وجودنا بعيدا عن مسرح الحادث ..

هكذا دلفنا الى حانة دوق نيويورك فى (آميس افينو) ، وفيها وجدنا ما ننشده فى اشخاص ثلاثة أو اربع عجائز يشربن الجعـة الرخيصة على حساب المعونة الحكومية .. وها نحن الان اولئك الفتيان الطيبون المهذبون الذين يوزعون بأحلى الابتسام تحية المساء

على الحضور بالعدل والقسطاس ، ذلك وان سرى الخوف فى قلوب أولئك العجائز المخضنات حتى لقد أخذت أيديهن المعروقة ترتعـد بالكئوس وتريق الشراب على المائدة ، وحتى قالت كبراهن :

— نحن لسنا أكثر من عجائز مسكينات !..

بيد أننا بالغنا فى الابتسام وجلسنا ودققنا الجرس وانتظرنا قدوم (الجرسون) ... وعندما قدم وهو بادى العصبية مدلكا يديه فى مريلته الدهنية ، طلبنا لانفسنا أربعة كئوس مقواة — وهى مزيج من الروم والبراندى والشيرى وكانت شائعة فى ذلك العهد ، ثم قلت للفتى :

— قدم لهؤلاء العجائز المسكينات هناك شيئا مغذيا : شراب (سكونشمان) كبيرا وشيئا يأخذونه معهن ..

وشفعت هذا باخراج كل ما معى من نقود ووضـعتها فوق المائدة ، وفعل زملائى الاخرون مثل ما فعلت ، يا اخوانى ، وهكذا ذهب الروع عن العجائز حتى لم يدرين ماذا يقلن أو يفعلن ، ثم فتح على احداهن وقالت : « شكرا أيها الفتيان » ... ذلك وان خامرهن الشك بأن هذا ما هو الا مقدمة لشىء يراب !..

وعلى اى حال فقد اعطيت كل واحدة منهن زجاجة من كونياك (يانك جنرال) لكى يأخذنها معهن ، كما تركت لدى عامل المقصف نقودا لاعطائهن المشروب فى صباح اليوم التالى على أن يتركن لديه عناوينهن ... واخيرا اشترينا بما تبقى من نقودنا كل فطائر اللحم والبسكويت المملح وشطائر الجبن والشكولاتة التى كانت موجودة فى المشرب ، وطلبنا توزيع كل هذا على العجائز ... وقلنا لهن بعد ذلك: « سنخرج ونعود بعد دقيقة » .. فأخذت العجائز يلهجن بالثنـاء قائلات :

— شكرا أيها الفتيان !.. بارك الله فيكم !..

وأسرعنا بالخروج دون أن يبقى معنا بنس واحد ... وقال بيتر معقبا :

— هذا يجعلنا نشعر بأننا من اهل الخير والاحسان فعلا !..

وبدا لنا أن ديم المتبلد الفهم لم يكد يدرك مدلول هذه العملية الخيرية ، غير انه لم يقل شيئا خوفا من ان تتهمه بالغباوة ..

ومهما يكن فقد انعطفنا على الاثر الى (أتلى أفنيو) حيث لاح لنا ذلك المحل الخاص ببيع الحلوى والسجائر لايزال مفتوحا ... والواقع اننا كنا تركنا هذه المنطقة وشأنها قرابة الثلاثة الاشهر الماضية

حتى ظلت تنعم بالهدوء عموما ولم تعد دوريات الشرطة المسلحة تتردد عليها كثيرا ، مركزة نشاطها فى المناطق الواقعة الى الشمال من النهر .. والان فقد اخرجنا اقنعتنا المطاطية ولبسناها ، وكانت ملامحها على هيئة شخصيات تاريخية (فقد زودونا باسمائها عند شرائها) فكان قناعى يمثل دزرائيلى ، وقناع بيتر يمثل الفيس بريسلى ، وقناع جورجى يمثل الملك هنرى الثامن .. أما ديم المنكود فكان من نصيبه قناع لوجه الشاعر شيللى .. وكانت الاقنعة مصنوعة من مادة بلاستيكية خاصة بحيث يسهل طيها بعد انتهاء الفرض منها واخفاؤها فى الاحذية ...

عندئذ دخل ثلاثتنا الى المحل وبقى بيتر فى الخارج للرصد ، وان لم يكن ثمة ما يدعو الى القلق .. وما ان اقتحمنا المحل حتى تقدمنا مباشرة نحو صاحبه (سلوس) ، وكان رجلا ضخما كالبرميل أدرك فى الحال ما سيحدث واسرع الى الداخل حيث يوجد التليفون وربما ايضا مسدسه المعد دائما بدوراته الست المهلكة .. غير ان ديم أسرع كالطير بالالتفاف حول (الكاونتر) ، مرسلا علب السجائر كالقذائف ترتطم باعلان من الورق المقوى المتين لفتاة ناصعة الاسنان مدلاة النهود للدعاية لنوع جديد من السجائر فتتناثر فى الهواء ... والذى كانت تقع عليه العين بعد ذلك هو شىء مثل كرة ضخمة تتدحرج فى داخل المحل خلف الستار ، ولم تكن سوى ديم العتيد وسلوس مشتبكين فى صراع مميت .. وكنت تسمع لهما فحيح اصوات تلهث وتدمدم من خلف الستار مقترنة بركل الاقدام ، ثم سقوط اشياء وتحطم زجاج يتهاوى تهشيما .. اما (الام سلوس) ، الزوجة ، فقد وقفت جامدة مسمرة خلف (الكاونتر) ، وادركنا انها توشك على الصراخ والاستنجاد اذا تركت لها الفرصة ، وهكذا بادرت انا بالالتفاف حو (الكاونتر) وامسكت بها ... وكانت فى مثل بدانة زوجها وامتلائه ، يفوح عطرها ويبرز نهداها .. ولكنى اسرعت بوضع يدى على فمها لمنعها من الصراخ المدوى الذى لو ترك فيه العنان لها لبلغ مشارف السماء .. لكن هذه السيدة المسعورة انشبت انيابها فى يدى بعضة جعلتنى انا الذى اصرخ مستجيرا .. ثم شفعت هذا بصيحة رنانة متجاوبة تستنجد بالبوليس .. لا باس !.. ماذا كان يمكن ان افعل لحظتها سوى ان اقذفها باحدى صنج الميزان ، مشفوعة بلطمة من قضيب معدنى لفتح الصناديق ، مما اسأل دمها.. وهكذا تغلبنا عليها وطرحناها ارضا ، ثم شققنا ملابسها تفكها ومعابثة،

مع ركلة قدم خفيفة لاسكات تأوهاتها .. ولما رايتها ممددة امامى هكذا لعب الشيطان بعواطفى ، ولكننى آثرت ان ارجىء هـــذا الى الاحداث التالية فى السهرة الحافلة !..

وبعد هذا نظفنا المحل من حصيلته النقدية وكانت وفيرة هذه الليلة ، وعززناها بمجموعة لكل منا من افخر انواع السجائر ، ثم انسحبنا يا اخوانى على الاثر !..

ولكن ديم مافتىء يكرر قوله ساخطا :

ــ كان ابن الملعونة هذا من الوزن الثقيل !..

والواقع اننى لم استرح الى مشهد ديم بعد المغامرة ، فقد بدا متسخا ومشعثا ، مثل انسان كان فى معركة ، وهو ما كانه فعلا ، ولكن يجب الا يبدو بالطبع هكذا ... كانت ربطة عنقه مثنية كأنما داستها الاقدام ، وكان قناعه منزوعا ووجهه معفرا باتربة الارض ... وهكذا أخذناه الى حارة جانبية وبللنا مناديلنا باللعاب وازلنا اتساخ وجهه ... يا لهذه الخدمات التى كنا نقدمها لديم !..

وعـــدنا الى بار دوق نيويورك مسرعين ، وقدرت بنظرة الى ساعتى اننا لم نغب أكثر من عشر دقائق ... كانت العجائز لا زلن جالسات يتناولن المشروبات التى أمرنا بها لهن ، وبادرناهن بالسلام والسؤال عن الاحوال ، فكان ردهن التقليدى هو : « انتم أهل كرم أيها الفتيان ، بارك الله فيكم ! » ... وهكذا دققنا الجرس فجاء (جرسون) آخر هذه المرة وطلبنا منه اكواب بيرة ممزوجة بالروم نظرا لشدة عطشنا يا اخوانى ، وكذلك كل ما تطلبه العجائز ... ثم خاطبتهن قائلا :

ــ اننا لم نغب عن هنا ، اليس كذلك ؟.. كنا معكـــم طول الوقت ، اليس كذلك ؟

فجاء ردهن سريعا وقلن :

ــ هذا صحيح أيها الفتيان !.. أنتم لم تغيبوا عن أنظارنا بتاتا !.. بارك الله فيكم أيها الفتيان !..

ذلك وان كان هذا التاكيد لا يهمنا كثيرا ..

ثم انقضى نحو نصف ساعة قبلما ظهرت اية اشارة من ناحية رجال الشرطة ، ولم يكن القادمون أكثر من شرطيين اثنين فى مطلع الشباب دخلا ووجه كل منهما يبدو شديد الحمرة تحت خوذتيهما النحاسيتين .. وقال أحدهما :

– أنتم يا جماعة : هل سمعتم اى شىء عن الحوادث التى وقعت فى محل سلوس هذه الليلة ؟..

فقلت ببراءة :

– نحن ؟! .. عجبا !.. وماذا حدث ؟..

فرد الشرطى الفتى قائلا :

– حادث سرقة وعنف ... وحالتان نقلتا الى المستشفى .. اين كنتم مع مجموعتكم هذه الليلة ؟..

فأجبت قائلا :

– أنا لا اقبل هذه اللهجة الشاذة المنكرة !.. ولا اهتم كثيرا بهذه التلميحات الكريهة !.. كلامكم يدل على اسراف فى سوء الظن !..

وهنا بادرت العجائز برفع عقيرتهن صائحات :

– انهم كانوا معنا طول الليلة يافتيان !.. بارك الله فيهم !.. لم نر فى الشباب خيرا منهم فى الطيبة والكرم !.. كانوا معنا فعلا طول الوقت !.. ولم نر احدا منهم تحرك شبرا واحدا !..

فقال الشرطى الاخر :

– كنا نستفهم فقط .. علينا واجب نقوم به مثل اى انسان آخر ...

غير انهما صوبا الينا نظرات تحذيرية قبيحة قبل انصرافهما .. ومع ذلك شيعناهما بموسيقى الشفاه وهما خارجان !..

أما انا فلم أتمالك من الشعور بشىء من الاحباط لسير الامور فى هذه الايام .. فلم يجد شىء يمكن أن نستميت من أجله .. ومع ذلك فقد كانت الليلة لاتزال ممتدة أمامنا ..

الفصل الثانى

عندما خرجنا من بار دوق نيويورك وقع نظرنا على شخص مخمور وقف لدى الحائط فى مجال الضوء المنبعث من نافذة المشرب الكبيرة وهو فى حالة يرثى لها من السكر ورفع العقيرة بالغناء الصخاب المشوب بالسباب والتجشؤ المقذى .. كان ثمة شىء واحد لا اطيق احتماله : وهو أن أبصر رجلا متقدما فى السن يتمرغ فى السكر والقذارة ، خصوصا اذا كان مظهره يدل على منزلة اجتماعية متوسطة مثل هذا الرجل .. فقد كان ملتصقا بالحائط وملابسه فى شر حال من التشعث والتبقع والتلطخ بالاقذار والوحل .. وهكذا أمسكنا بتلابيبه واتحفناه بمجموعة طيبة من اللكمات واللطمات ، ولكنه مضى فى غنائه مرددا هذه الكلمات :

وسوف اعود الى حبيبتى يا محبوبتى
اذا حبيبتى هجرتنى يوما من الايام

غير انه عندما لطمه ديم مرات على فمه المخمور كف عن الغناء وانقلب الى الصياح قائلا :

– استمروا !.. اضربونى يا أولاد الزنا يا جبناء !.. لا اريد ان اعيش بأى حال ، ليس فى هذه الدنيا العفنة !..

وعندئذ طلبت من ديم أن يكف عن لطماته ، اذ كان يثير طرافتى احيانا أن أستمع الى مايقوله بعض هؤلاء السادة الموجين عن الحياة وعن الدنيا !.. وقلت له :

– وما هو وجه العيب فى هذه الدنيا ؟..

فهتف قائلا :

– هى دنيا عفنة لانها تسمح للاصغر سنا بالتطاول على الاكبر سنا كما فعلتم ، ولم يعد هناك قانون ولا نظام ولا شىء من هذا القبيل !..

وكان التجشؤ المتواصل يقطع عليه الاسترسال على هذا النحو .. ثم فجأة علا صياحه قائلا وهو يلوح بذراعيه :

– ... لم تبق الدنيا هى الدنيا لمن هو مسن ، ومعنى هذا

انني لا اخافكم قدر قلامة ظفر ايها الاولاد المناكيد ، لانني بلغت من السكر حدا لا اشعر معه بالالم اذا ضربتموني ، واذا قتلتموني !.. ساكون مسرورا اذا جاء موتي على ايديكم !..

لقد تبادلنا الابتسام والغمز ، وما لبث أن استرسل في صياحه قائلا :

— ... ثم أية دنيا هي هذه الدنيا ؟!.. رجال فيها يصعدون الى القمر ، ورجال يدورون حول الارض وكانهم ذباب ضئيل حول مصباح ، وليس هناك اهتمام بالقوانين التي تحكم الارض وتقـــر النظام !.. والنتيجة ان لكم ان تفعلوا اسوأ ما عندكم ، يا قطاع الطرق الجبناء الاوساخ !..

وبعدها أسمعنا موسيقى الشفتين كما فعلنا نحن للشرطيين الفتيين في المشرب .. ومرة أخرى انشأ يتغنى بهذا الكلام :

يا وطني العزيز المحبوب قد حاربت من اجلك

ومهـــدت لك طريق الســـــــلام والنصر

وفي النهاية اشبعناه ضربا ووجوهنا طافحة بالابتسام ، بيد انه لم ينقطع عن الغناء ... فأعطيناه (مقصا) حتى هوى على الارض منبطحا يتدفق من فيه سيل من الجعة حتى اثار تقززنا ، فعاجلناه برفسة قدم من كل واحد منا ، وبعدها لم يخرج من فمه القذر غناء ولا قيء ، بل دم نازف .. ثم تابعنا طريقنا غير عابئين بشيء ..

وعلى مسافة قليلة من محطة المولد الكهربائي كان التقاؤنا بالفتى بيليبوى وأفراد عصابته الخمسة .. ففي تلك الايام ، يا اخواني ، كانت الزمرة تتالف على الاكثر من اربعة او خمســة أفراد ، وهي تماثل في هذا جماعات استيقاف السيارات العابرة للركوب ، التي تبلغ اربعة أفراد في المعتاد للجماعة الواحدة ، وكان عدد ستة افراد هو الحد الاقصى ... وأحيانا كانت العصابات تتالف من هذا العدد الاقصى اذا اريد أن تخرج في حروبها الليلية ، وان كانت تفضل ان يكون التجوال الليلي بأعداد صغيرة ..

وفي الحق ان بيليبوى هذا كان بطبيعته يصيبني بالغثيان كلما ابصرت وجهه السمين المنفرج الفم ، وشممت رائحته الزنخة التي تشبه رائحة زيت القلي المقلي مرات ومرات ، حتى وان كان مرتديا احسن ملابسه كما كان الان .. وهم قد شاهدونا كما شاهدناهم في نفس الوقت ، وبدا كأن كل فريق يراقب الاخر بهدوء مؤقت .. فانها في الحقيقة لن تكون معركة بالايدي والارجل ، بل بالمطاوي

والاسلحة البيضاء الاخرى ، مثل (قرن الغزال) الذى أحمله على الدوام ..

وقد توقف بيليبوى ورفاقه عما كانوا بسبيله ، وهو التمهيد لشيء مع صبية باكية بين أيديهم لا تجاوز سنها عشر سنوات ، وكانت تصرخ وتستغيث ، ولكن كانت لاتزال بملابسها وقد امسك بيليبوى باحدى يديها وأمسك مساعده الاول ليو بيدها الثانية .. ولما راونا قادمين تركوا هذه الصبية الصغيرة لعلمهم أنه يوجد الكثير غيرها في المنطقة الســـــكنية القريبة ، فركضت الصبية مبتعدة وساقاها النحيلتان البيضاوان تبرقان في الظلام مرددة تأوهاتها ...

وعندئذ قلت وانا ابتسم ابتسامة عريضة متوددة :

ـ أهذا بيليبوى النتن ؟! .. كيف حالك أيها البرميل المنتفخ بزيت القلي الرخيص الزنخ ؟.. تقدم وخذ لك ضربة في ســـــواتك ايها المخنث !..

وعلى الاثر بدانا المعركة ...

كنا أربعة وهم ستة كما نوهت من قبل .. غير ان ديم العتيد كان رغم كل غباوته ندا لثـــلاثة منهم في الاندفاع المجنون والقتال الوحشي ... فقد كان يحمل سلسلة طويلة سميكة ملتفة حول وسطه بقدر لفتين ، وقد سارع يطوحها في عيون الاخرين ... وكان بيتر وجورجي مزودين بمطواتين كبيرتين حادتين ... اما انا فكنت مسلحا (بقرن غزال) وهي مطواة مقوسة مرهفة باترة ، كنت الوح بها بطريقة فنية تجعل لها بريقا خاطفا يزيغ الابصار ...

هكذا رحنا نتبادل الضرب والطعن في الظلام وقد بدأ القمر بما عليه من رجال يبزغ اذ ذاك ، والنجوم تلمع كما لو كانت نصـــــالا تريد الاشتراك في المعمعة .. وقد استطعت بمطواتي أن أشق ملابس احد رفاق بيليبوى شقا طوليا بديعا دون أن الامس بدنه تحت الملابس ... وفي الكر والفر الفي هذا الفتى نفسه عاري البطن والسوأة مثل حبة بازلاء انشق عنها غلافها ، وفي غمرة ارتباكه وصراخه التفت حول عينيه سلسلة ديم الافعوانية فزادته تخبطـــا وصراخا ... وسرعان ما جعلنا مساعد بيليبوى رقم واحد منطرحا على الارض تحت الاقدام وقد أعمت بصره سلسلة ديم الذريعة وجعلته يزحف على الارض عاويا مثل حيوان طريد ، وبعد رفسة واحدة على راسه غاب عن الوجود ...

ومن أربعتنا خرج ديم من المعركة كالعادة وهو أسوانا مشهدا ، اعنى ان وجهه قد تخضب بالدم وملابسه اتسخت وتشعثت بصورة بالغة ، اما باقى زمرتنا فقد ظلت متمالكة الجاش لم يمسنها سوء .. لكن كان هدفى الآن هو بيليبوى السمين العفن ، وهكذا رحت ادور حوله بمطواتى الفتاكة متراقصا مراوغا حتى لكأنى حلاق على ظهر سفينة فى بحر متلاطم ، محاولا ان انال منه بقطوع نافذة على وجهه الدهنى المليء .. وكان بيليبوى مسلحا ايضا بمطواة طويلة ، بيد ان بطء حركاته وثقل وزنه حالا دون أن ينال منى شيئا ، وهكذا كانت بهجتى لا حد لها عندما شققت خديه واحدا تلو الآخر بحركات خاطفة أسالت دمه على الجانبين ، وان بدا انه لم يشعر بشيء ومضى فى هجومه نحوى بحركات دب ثقيل ...

فى هذه اللحظات سمعنا (سرينة) سيارة الشرطة تلعلع فى السكون ، وشاهدنا رءوس أفراد القوة تطل من النوافذ وهم على تمام الاهبة .. ولا شك ان تلك الصبية الباكية قد استنجدت بهم عن طريق التليفون العمومى القائم خلف محطة توليد الكهرباء ... وهنا قلت لغريمى :

— سوف آتالك قريبا يا بيليبوى النتن ، وعندها سأستأصل سواتك !..

وسرعان ما اخذوا يركضون هاربين ، الا مساعد بيليبوى رقم واحد وهو ليو الذى كان ممددا على الارض غائبا عن الوعى ، متجهين شمالا شطر النهر ... اما نحن فقد سلكنا الجهة العكسية ... وبالالتفاف حول الناصية وجدنا حارة مظلمة وخالية ومفتوحة من الناحيتين ، فتوقفنا فيها لكى نستريح ونحن نلهث الى ان تمالكنا والتقطنا انفاسنا ...

كانت هذه المنطقة محطة استقبال البث التليفزيونى بالقمر الصناعى كما بدا من الاضواء الزرقاء التى كانت تبرق فيما بين مبانى المحطة الارضية ، ومعنى هذا يا اخوانى انهم كانوا يبثون هذه الليلة نفس البرنامج العالمى اما لمغنى زنجى أو شخصية كوميدية مشهورة لكى يستمتع بالارسال كل من تحلو له المشاهدة من أبناء الطبقات القادرة يا اخوانى ، ولله فى خلقه شئون !.. ومهما يكن فقد توقفنا هاهنا نلهث ، وانتظرنا الى ان سمعنا اصوات (السرينة) البوليسية تتجه شرقا ، فعلمنا اننا بخير الآن ... ولكن ديم المنكود ما برح

يتطلع الى القمر والنجوم والكواكب فاغر الفم مثل طفل لم يتهيأ له ان يشهد شيئا كهذا من قبل ، حتى لقد قال :

— ترى ماذا فى تلك الاجرام السماوية فى الاعالى ؟!..

فوكزته بشدة قائلا :

— هيا بنا يا اغبى الاغبياء ، ولا تشغل بالك بهذا !.. لابد ان فيها حياة مثل حياتنا على الارض ، وكائنات تتقاتل بالمطاوى مثلنا ايضا !.. اما الآن وما زال الليل ممتدا امامنا ، فلنواصل طريقنا ايها الاخوان !..

ابتسم الرفاق لهذا الكلام ، بيد ان ديم نظر الى بجد ، ثم عاد يتطلع الى النجوم والقمر ... ومهما يكن فقد اتجهنا الى نهاية الحارة وضوء البث العالمى الازرق يتراءى عن الجانبين ... ان ماكنا نحتاجه الآن هو سيارة ، وهكذا انعطفنا يسارا بعد اجتياز الحارة ، حيث عرفنا فى الحال اننا فى ميدان بريستلى بعد أن وقعت أنظارنا على التمثال البرونزى الضخم لذلك الشاعر الذى رفع شفته العليا كقرد وانغرس غليون فى فمه العتيق ... وبعد مسيرة قليلة شمالا وصلنا الى موقع السينما المكشوفة الضخمة التى بدات تتقادم وتتآكل لقلة من يرتادونها سوى امثالى ورفاقى فى بعض المناوشات او المطارحات الغرامية فى الظلام ... وشاهدنا على اللوحة الاعلانية القائمة امام الواجهة والملوثة بالبقع اعلانات عن افلام رعاة البقر المعتادة التى ينتصر فيها أفراد الامن الامريكيون على رجال العصابات الى آخر هذا الكلام الفارغ ... وكانت السيارات المرابطة فى الموقف ليست كلها جديدة ، ولكن كانت بينها سيارة من طراز (دورانجو ٩٥) اكثر جدة وبدا لى انها اكثر ملاءمة لنا ... وكان مع جورجى مجموعة مفاتيح للطوارىء ، وهكذا دلفنا الى داخل السيارة دون عناء ، فجلس ديم وبيتر فى المقعد الخلفى وهما ينفثان دخان السجائر الفاخرة بعظمة ، بينما توليت انا ادارة المحرك ، وخرجت بها من الموقف وانطلقنا دون أن يفطن الينا احد ...

وقد أخذنا نتسكع فيما يعرف بأطراف المدينة بعض الوقت ، ملقين الفزع فى قلوب كبار السن من الجنسين وهم يعبرون الطريق ومطاردين القطط ونحو ذلك ... ثم اتجهنا الى الجانب الغربى حيث تخف حركة المرور وأطلقت العنان للسيارة التى ذهبت تنهب الطريق نهبا ... وبعد فترة لم تطل لاحت لنا أشجار الشتاء والظلام ،

وريف مظلم داست السيارة فى جانب منه كائنا كشر عن انيابه وعلا صراخه فى ضوء مصابيح السيارة الامامية مما جعل ديم يضحك مقهقها فى مقعد السيارة الخلفى ... وبعدها لمحنا فتى مع فتاته يتطارحان الهوى فى ظل شجرة ، فتوقفنا برهة نهلل لهما ، ثم استأنفنا مسيرتنا فجأة على قيد شعرات منهما حتى علا صراخهما ، وعلى الاثر تابعنا طريقنا !..

كان ما نهدف اليه الآن هو القيام بزيارة مباغتة ... فهذه هى المغامرة الكبرى التى نطلق عليها وصف (قمة العنف) ... وقد وصلنا اخيرا الى ما بدا انه قرية وعند اطرافها فيللا صغيرة تقوم امامها حديقة أصغر ... كان القمر قد ارتقى الآن كبد السماء حتى تهيأ لنا ان نبصر الفيللا بوضوح وأن أوقف السيارة على بعد كاف منها ورفاقى يتضاحكون من الترقب والتشوف ... فنزلت من السيارة آمرا رفاقى بالكف عن الضحك والتزام الجد ، ثم فتحت بوابة الحديقة الصغيرة وتقدمت الى الباب الامامى ... وبرفق وتلطف طرقت الباب ، فلم يجب احد ... فكررت الطرق ، وفى هذه المرة سمعت صوت احد قادم أعقبه ازاحة مزلاج ثم فتح الباب قدر بوصة او نحوها ، وسمعت صوتا نسائيا فى مقتبل العمر يقول :

— نعم ؟.. من هنا ؟..

فقلت بلهجة مهذبة رقيقة :

— معذرة يا سيدتى ... آسف كل الاسف للازعاج ، لكننى كنت مع صاحب لى نتمشى ، ولكن صاحبى اصيب بنوبة مفاجئة وهو الآن ممدد فى الطريق يتلوى من الالم معرضا للموت ... فهلا تكرمت وسمحت باستعمال التليفون لطلب سيارة اسعاف ؟..

فقالت السيدة :

— ليس عندنا تليفون بكل اسف ... لابد لك ان تطرق مكانا آخر ...

ومن داخل الفيللا سرى الى سمعى صوت آلة كاتبة تدق دقاتها المعهودة ، ثم توقف الدق وسمعت صوت رجل يقول :

— من القادم يا عزيزتى ؟..

وعندئذ قلت للسيدة :

— هل تسمح انسانيتك بكوب ماء لصاحبى ؟.. انه فى حالة اغماء من تأثير النوبة !..

بدا كأن السيدة فى حالة تردد ، وما لبثت ان قالت :

— انتظر ...

ثم غابت ، فما هبط رفاقى الثلاثة من السيارة لائذين بالصمت والسكون واقتربوا خفاف الوطء وهم يلبسون أقنعتهم ، فلبست قناعى بالمثل ، ومددت يدى المدربة لرفع السلسلة التى كانت تشد الباب ، اذ كانت لهجتى المهذبة الرقيقة قد خدعت السيدة فلم تغلق الباب وهو ما كان يجب أن تفعله ازاء طارقى الليل الاغراب ... وفى لحظات خاطفة اقتحمنا الباب دفعة واحدة وديم كعادته يتراقص ويتواثب متفوها بألفاظه النابية .. واتجهنا مباشرة الى الغرفة المضاءة ، حيث وقفت تلك المرأة فى شبه جزع ، وكانت مليحة فى سن الشباب بارزة النهدين ، ومعها ذلك الرجل الذى بدا انه زوجها ، وكان فى مثل سنها وقد لبس نظارة ذات اطار — عظمى ، وفوق منضدة عن كثب آلة كاتبة واوراق مكتوبة فرغ من كتابتها توا فيما يظهر ... فهذا اذن شخص آخر متنور من أرباب الكتب مثل ذلك الشخص الذى تلاعبنا به منذ ساعات ، لكن صاحبنا الحالى كاتب لا قارىء !.. ومهما يكن فانه قال :

— ما هذا ؟! .. من تكونون ؟! .. كيف تجرأتم على دخول بيتى بغير استئذان ؟ ! .

وفى كلامه هذا كان راعش الصوت مرتعد اليدين ... وهكذا قلت له :

— لا تخف ابدا !.. اذا كان فى قلبك اى خوف يا أخى ، فابعده عن خاطرك !.

وخرج بيتو وجورجى للبحث عن المطبخ ، بينما توقف ديم انتظارا للأوامر وقد وقف الى جانبى منفرج الفم ...

ثم تناولت بعض الاوراق المكتوبة وقلت للرجل :

— ما هذا اذن ؟..

فقال الرجل ذو النظارة محتدما :

— هذا هو ما أريد أن اعرفه !.. ما هذا ، وماذا تريدون ؟.. اخرجوا حالا قبل أن ألقى بكم الى الخارج !.

وما أن سمع ديم هذا الكلام وهو بقناع الشاعر شيللى حتى ضج بالضحك والقهقهة عاليا فكان مثل حيوان صاخب ... وقلت للرجل :

— هذا كتاب ارى انك نكته ... انني كنت دائما اكن الاعجاب
الشديد لاولئك الذين يقدرون على تأليف الكتب !..
ثم نظرت الى الصفحة العلوية ، وقرات فيها عنوان الكتاب
هكذا : « برتقالة بقلب ساعة » ... وقلت هذا عنوان جميل ...
من سمع فى حياته عن برتقالة بهذا الوصف ؟! .. ثم أخذت اقرا
عبارات من الكتاب بصوت مسموع وبلهجة خطابية « ... ان محاولة
ان يفرض على الانسان — ذلك المخلوق المتنامى القادر على الاجداء
والابداع — قوانين واحوال لا تلائم سوى الكائن الالي ، بقصد ان
تتقاطر منه العصارة الحلوة — اقول انني فى مواجهة هذه المحاولة
لأشهر قلمي سيفا مشرعا » ...

... فما كان من ديم وهو يسمع هذا الا ان ارسل من
شفتيه موسيقاه المعتادة ، ولم يكن امامى الا ان ابتسم ... وقد
اسرعت بتمزيق الاوراق وبعثرة القصاصات على الارض ، فجن جنون
الرجل ، وهجم نحوى وهو يشد على اسنانه ويلوح بأظافره
كالمخالب .. وهكذا جاء دور ديم الذى كان هجوم الرجل بمثابة
اشارة له ، فانقض عليه يعاجله بلكمات متلاحقة على وجهه يمينا
ويسارا حتى تغطى بالدم الاحمر القانى ، يا اخوانى ، وأخذ يتساقط
على الارض ملونا السجادة النظيفة وقصاصات الاوراق التى كنت
لا ازال اعمل فيها تمزيقا .. وخلال هذا كله كانت الزوجة المحبة
الوفية واقفة كتمثال بجانب المدفأة ، ثم بدأت الصراخ وكأنما ارادت
ان تتزامن موسيقى صراخها مع عملية ديم ... وبعد برهة عاد
بيتر وجورجى من المطبخ وهما يقضمان ويمضغان وقد حمل بيتر فى
يديه رغيفا محشوا وزجاجة بيرة نزع غطاؤها توا والزبد يفور منها ،
وحمل جورجى شطائر وبعض الكعك والحلوى ، وكان شاهدا المعمعة
الدائرة حتى انبعثت قهقهتهما عاليا واخذ فتات مضغهما يتناثر على
الارض ... والواقع انني لم استطب هذا وبدا فى نظرى مجافيا
للأصول ، وهكذا قلت لهما :

— كفا عن الاكل !.. لم اعط اذنا بهذا !.. امسكا بهذا المخلوق
حتى يمكنه ان يرى كل شىء ولا يهرب !..

فوضعا غنيمتهما على المنضدة بين الاوراق المتناثرة ثم اتجها
نحو الكاتب الذى تحطمت نظارته ولكن كانت لا تزال مدلاة من وجهه
بينما كان ديم العتيد ما فتىء يتراقص بحركاته البهلوانية مما جعل

الزخارف التى كانت فوق رف المدفأة تهتز وتتارجح (فطوحتها
جميعا بحركة واحدة يا اخوانى حتى يبطل الاهتزاز والتأرجح !) ،
وان كان لم يكف عن كيل لطماته على وجه المؤلف مما جعله محتقنا
ونازفا بالدم مثل عصارة فاكهة منتفخة ... وعندئذ قلت له :

— كفى يا ديم ... الآن لنبدأ المهمة الثانية ، بعون الشيطان !.

وهكذا اتجه الى المراة التى كانت ماضية فى الصراخ ، فأمسك
بيديها من الخلف ، بينما شققت ملابسها فيما كان الباقون يهللون
طربا ...

ومهما يكن من شناعتنا فانني اعفى القارىء من تفصيلات
ما حدث بعد ذلك ...

وفى النهاية جعلنا نحطم ما يمكن تحطيمه وتهشيمه من الآلة
الكاتبة الى المصباح ، الى المقاعد ، وبال ديم على نار المدفأة حتى
اطفأها ، بل هم أن يتبرز على السجادة ، لولا انني صرخت فيهم
قائلا :

— الى الخارج !.. الى الخارج !..

وفى هذه الاثناء كان المؤلف وزوجته شبه غائبين عن الوعى وهما
يتوجعان ، لكنهما سوف يبقيان على قيد الحياة ما فى ذلك شك ...

واخيرا عدنا الى السيارة وتركت لجورجى عملية القيادة بعد
شعورى بشىء من الارهاق ، ورجعنا الى المدينة دائسين على كافة
الكائنات الصغيرة الصارخة التى كانت فى طريقنا ...

الفصـــــــل الثالـــــــث

عدنا يا اخواني بالسيارة فى اتجاه المدينة ، ولكن عند مشارفها فقط ، فيما يسمونه منطقة القناة الصناعية ، عندما راينا مؤشر البنزين يشير الى التناقص ، كما تناقصت حرارة نشاطنا ، وبدات السيارة (تسعل) ... لكن هذا لم يكن يدعو الى القلق ، بعد ان شاهدنا أنوار محطة سكة حديدية قريبة ... غير ان المشكلة هى فيما اذا كنا نترك السيارة حتى يعثر عليها رجال الشرطة ، او ندفع بها الى مياه النهر للتخلص منها ... ثم استقر راينا على هذا الحل ، وهكذا ترجلنا منها نحن الاربعة تاركين (الفرامل) مرسلة ، واشتركنا فى دفعها الى حافة المياه حيث انزلقت وتوارت على الاثر بعد ان شيعها جورجى بكلمة وداع واطلق ديم قهقهته الصاخبة البهلوانية ... وبعد هذا قصدنا الى المحطة لركوب القطار الى وسط المدينة فى سفرة قصيرة دون توقف ... وقد اشترينا التذاكر بادب ووقفنا على الرصيف بهدوء ، وان ذهب ديم الى احد أكشاك الحلوى الآلية بما معه من نقود نثرية كثيرة للحصول على قطع من الشكولاتة ، مستعدا لتوزيعها على الفقراء والجوعى اذا لزم الامر ، وان لم يكن احد منهم من كثب ، الى أن جاء القطار هادرا فصعدنا اليه فى الحال..

وبدا القطار شبه خال من الركاب ... ولتمضية فترة الثلاث دقائق التى تستغرقها الرحلة القصيرة فقد رحنا نعبث بالمقاعد الجلدية تمزيقا ونزعا لاحشائها ، واخذ ديم يطوح بسلسلته المعدنية حتى تشقق زجاج النوافذ وبدا يتلألأ فى هواء الشتاء ، ومع ذلك كنا شاعرين بانهاك يا اخوانى لما انفقنا من الطاقة ، باستثناء ديم الذى كان بسبب طبيعته الحيوانية مليئا بالابتهاج والحيوية ، وان بدا متسخا عارقا ، وهو ما كنت آخذه على ديم ...

وهبطنا من القطار فى قلب المدينة وسرنا الهوين عائدين الى بار اللبن كوروفا .. فلما دخلنا اليه وجدناه أكثر امتلاء عما وجدناه عندما انصرفنا منه قبل ذلك ... وكان المخلوق الذى صادفناه من قبل فى البار غائبا فى عالمه الاخير لا يزال موجودا ومستمرا فى هذيانه ،

والغالب أنه كان فى المرحلة الثالثة او الرابعة من سكوته ، اذ لاحت عليه تلك المسحة الشاحبة اللاانسانية وبدا فمه مثل قطعة طباشير مشقوقة ... والحقيقة انه لو اراد ان يبقى مثل هذا الوقت فى دنياه تلك ، لكان الاحرى به أن يجلس فى احدى المقاصير الخاصة الخلفية ، لا ان يبقى فى الصالة العامة ، تفاديا لتحرش احدهم به ، وان كان ذلك من النادر لوجود بعض المأجورين الاشداء مختبئين فى اقصى البار لكى يبادروا بوقف أعمال الشغب ... ومهما يكن فان ديم انحشر بجانب هذا الشخص الغائب عن دنياه وداس بقوة على قدمه بحذائه الغليظ ، ولكن هذا الشخص يا اخوانى لم يحرك ساكنا !.

كان اغلب رواد المشرب من المراهقين الذين يطلق عليهم اسم (نادسات) ، يشربون اللبن والكوكا ويتعابثون ، ولكن كان هناك أيضا عدد قليل من الرواد الاكبر سنا ومقاما من الجنسين يتبادلون الضحك والحديث لدى المقصف ... وكان بامكانك ان تقدر من طريقة قص شعرهم وملابسهم انهم كانوا يقومون ببروفات فى استديوهات التليفزيون القريبة ... وكان للنساء بينهم تلك الوجوه المليئة بالحيوية والاشداق الكبيرة القانية الحمرة التى تكشف عن اسنان ضاحكة لا تحفل بأى شىء فى هذه الدنيا الشريرة !..

وما لبث (الاستيريو) أن دار عاليا متجاوبا ، وكانت الاسطوانة بعنوان (فقط يوم بعد يوم) للمغنى جونى زيفاجو ... وفى الفترة التى جاءت بين أسطوانة وأسطوانة ، سمع فجأة غناء لم يدم سوى لحظات صدر عن واحدة من النساء والمصاحبات للرجال لدى المقصف ، وكأنما ارادت فقط ان تقدم نموذجا لشىء كانوا يناقشونه ... أواه يا اخوانى ، كان هذا المقطع الغنائى القصير فى سمعى مثل طائر عظيم حلق فجأة فى المشرب ، حتى شعرت بشعر جسدى يقف عن آخره وبالقشعريرة تسرى فيه سريانا ... ذلك لاننى اعرف ما غنته تلك المراة ، وهو مقطوعة من اوبرا (الفريدريك جيتر فنستر)، وهى المقطوعة التى فاهت بها وهى تلفظ انفاسها مذبوحة ... هكذا رحت أرتعد ...

غير أن ديم ما ان سمع هذه المقطوعة حتى صفر استهزاء واعقب ذلك (بهوهوة) كلب ثم بقهقهة تهريجية .. وسرعان ما انتابنى شعور كالمحموم وغلا الدم فى عروقى لهذه البذاءة من جانب ديم ، حتى قلت له :

ــ يا قذر !.. يا ابن الزنا !.. يا عديم الادب !..

وشفعت هذا بميلة نحو جورجى الذى كان يجلس بينى وبين ديم وعاجلته بلكمه على فمه .. فنظر ديم بدهشة شـديدة وقـد فغر فاه ورفع يده لمسح الدم الذى بدأ ينزف وهو مذهول يقلب النظر بين الدم وبينى ... وما لبث أن قال لى :

ـ لأى سبب فعلت هذا ؟!.

ان ما فعلته لم يسترع نظر الكثيرين ، ومن شاهدوه لم يعبأوا بما حدث ... وكان (الاستيريو) قد استأنف دورانه بعزف جيتار تافه ... فرددت عليه قائلا :

ـ لأنك ابن زنا ولا أخلاق عندك ولا فكرة عن السلوك فى مكان عام يا أخ !..

فقال ديم وقد شفت نظراته عن الشر :

ـ لست أخا لك ولا أريد أن أكونه بعد الآن !.. وما كان يجب أن تفعل هذه الفعلة بأى حال !..

واخرج من جيبه منديلا كبيرا واخذ يجفف به الدم وهو ينظر اليه مقطبا وكان الدم ليس دمه وانما دم أحد غيره ... ومن عجب أن تلك السيدة راحت تضحك الان مع أصحابها لدى المقصف دون أن تلاحظ سوقية ديم وبذاءته ... وهكذا كان ما فعله ديم هو اساءة لى ... وقلت :

ـ اذا كنت لا تحب هذا ولا تريد ذاك ، فانت تعرف ما الذى يجب أن تفعله !..

وعندئذ قال جورجى بحدة جعلتنى انطلع اليه :

ـ لا بأس ... دعونا من الخصام !..

فقلت :

ـ المسألة متروكة لديم... لا يصح لديم أن يستمر فى تصرفاته كطفل صغير ...

وشفعت هذا بنظرة حادة الى جورجى ... فقال ديم وقد بدا نزيف الدم يتوقف :

ـ اى حق طبيعى له لكى يظن انه يمكنه اعطاء الاوامر ويلطمنى وقت ما يحب ؟! .. بامكانى أن الطم عينيه بالسلسلة اذا فعلهـا مرة ثانية !..

فقلت له وقد بدا صوت (الاستيريو) يتماوج فيما بين الجدران والسقف :

ـ حاسب على كلامك !.. حاسب يا ديم !..

فقال ديم :

ـ سحقا لهذا !.. ان مافعلته لا حق لك فيه !.. سوف اواجهك بالسلسلة أو المطواة او قرن الغزال فى اى وقت تشاء ، ولن اقبل منك تكرار ما فعلت !..

فرددت عليه بشراسة قائلا :

ـ لتكن المطواة فى اى وقت تحب !..

فقال بيتر :

ـ كفى الآن يا رفاق ... ألسنا أصحابا وأحباء ؟! .. لا يليق ان يتصرف الاصحاب هكذا !.. انظروا !.. هناك بعضهم ينظرون الينا ساخرين !.. لا يجب أن نتحامل على بعضنا !..

فقلت :

ـ ان على ديم ان يعرف وضعه ... مضبوط ؟.

فقال جورجى :

ـ مهلا ... ما هذا الذى يقال عن وضع أحد ؟.. هذه أول مرة أسمع فيها عن رفاق يلقنون درسا عن وضعهم !..

فقال بيتر :

ـ اذا أردت الحقيقة يا اليكس ، فما كان يجب أن توجه الى ديم تلك الكلمة التى لم يكن لها لزوم ... سأقولها لك مرة واحدة ، وأقولها بكل احترام : لو كنت أنا الذى وجهت اليه لكمتك ، لكان لابد من محاسبتك !.. ولا كلام لى بعد ذلك ...

قال هذا ودس فمه فى كوب اللبن ...

شعرت بالغيظ فى دخيلتى ، غير أننى تمالكت ، وقلت بهدوء :

ـ لابد من وجود زعيم ... ولابد من النظام ... صح ؟..

لم يفه احد منهم بكلمة ، ولا حتى ايماءة ... فزاد غيظى ، لكننى حافظت على هدوئى الظاهرى ، ومضيت اقول :

ـ اننى كنت المسئول عن زعامة الفريق طول هذا الوقت ... نعم اننا جميعا أصحاب ، لكن لابد من وجود مسئول ... صح ؟.. صح ؟..

أومأوا جميعا برءوسهم ، ولكن فى حذر ... واخيرا قال ديم وهو يجفف آخر قطرات الدم :

ـ صح ... صح ... ربما كان هذا من تأثير المجهود الذى بذلناه ...

لقد أدهشني ان رأيت ديم هو الذى يتصرف هكذا وينحو الى المهادنة ... غير انه مضى يقول :

– ان الفراش هو الالزم والاسلم لنا الآن ... واذن فالافضل أن نذهب الآن الى بيوتنا ... صح !..

لقد زادت دهشتى فعلا ، بيد ان الزميلين الاخرين أوما مؤمنين على رأى ديم ... فقلت :

– أنت تفهم حكاية الضربة التى وجهتها الى فمك يا ديم ... كانت الموسيقى هى السبب ... اننى أفقد صوابى عندما يتدخل اى شخص لمقاطعة سيدة تغنى !.. كما حدث الآن ...

فقال ديم :

– الافضل ان نذهب الى بيوتنا ونأخذ حظنا من النوم ... الفتيان الناشئون بحاجة الى طول النوم .. صح ؟..

وعندما أوما الاثنان الآخران ايجابا قلت :

– أظن أن الافضل هو ان نذهب الى بيوتنا الان كما اقترح ديم ... واذا لم نتقابل فى النهار يا اخوانى ، فان لقاءنا سيكون فى نفس الوقت ونفس المكان غدا ؟..

فقال جورجى :

– نعم ... ويمكن ان نتفق على هذا بسهولة ...

وعاد ديم يقول :

– ربما أتأخر بعض الوقت ، لكن مؤكد اننا سنلتقى فى نفس المكان ونفس الوقت تقريبا ...

وكان لا يزال يجفف فمه ، ولكن الدم قد توقف الآن ، وقد تابع كلامه قائلا :

– والمأمول الا توجد هنا بعد الان اية واحدة تغنى !..

وشفع هذا بقهقته الصاخبة البهلوانية ، وبدا وكأنه بلغ من كثافة الحس بحيث لا تؤثر فيه اية اهانة !..

وهكذا تفرقنا كل الى وجهته وأنا اتجشأ من الكوكا المبردة التى شربتها ... وقد حرصت على أن اجعل مطواتى (قرن الغزال) فى متناول يدى احتمالا لوجود احد من عصابة بيليبوى او غيرها من العصابات المتنافسة المقتتلة متربصا قرب محل اقامتى ...

كنت أقيم مع أبى وأمى فى الوحدة رقم ١٨ – ايف بمساكن البلدية ، فيما بين (كنجسلى افينو) و (ويلسنسواى) .. وقد

وصلت الى الباب الرئيسى الكبير دون متاعب ، وان مررت بشاب منبطح على الارض يصرخ ويتوجع فى الوحل وهو مثخن بالجراح .. كما وقع نظرى فى ضوء المصباح على بقع من الدماء متناثرة هنا وهناك وكأنها يا اخوانى توقيعات تركها ابطال المعارك الليلية المعهودة شاهدا عن حسن بلائهم !..

وقع بصرى أيضا قرب مدخل الوحدة السكنية على ملابس نسائية ممزقة كانت دليلا ولا شك على وقوع مناوشات غرامية حامية .. وكثير من امثال ذلك يا اخوانى !.

وفى مدخل الوحدة مررت باللوحة التشكيلية البلدية المرسومة على الحوائط والتى تمثل أفرادا من الجنسين فى المصانع – رمزا لكرامة العمل – مجردين من الملابس ابرازا للقوة ومتانة العضل ، ولكن اللوحة الوقورة اضيف الى مواطن معينة فيها بأقلام الرصاص والاقلام الملونة ما جعلها تبدو فاحشة نابية عن دواعى الادب والحشمة ، ناهيك بتلك العبارات البذيئة الدنسة التي سجلت بتلك الاقلام فى دوائر مرسومة على أفواه الشخوص الوقورة المحتشمة !.

ومهما يكن فقد اتجهت الى المصعد ، لكن لم تكن ثمة حاجة للضغط على الزر لمعرفة ان كان يعمل أو لا يعمل ... فقد وجدت سلاسل معدنية متينة امام أبواب المصعد هذه الليلة ، وهكذا كان على ان اصعد عشرة أدوار على القدمين !.. اننى فعلتها وانا الهث والعن ، بسبب تعبى البدنى وان لم يكن العقلى ... لقد كنت فى حاجة ماسة الى الموسيقى هذه الليلة ، وربما لان غناء تلك المرأة فى مشرب اللبن قد أذكى مشاعرى ... والواقع اننى كنت أريد وجبة كبيرة بل وليمة حافلة من الموسيقى قبل ان أدلف الى الفراش يا اخوانى !..

فتحت باب المسكن بمفتاحى الصغير الخاص ، فكان كل شىء فى الداخل هادئا تماما بعد ان استغرق ابى وأمى فى نومهما العميق ، تاركة لى أمى عشائى على المائدة – وكان مؤلفا من بعض قطع من اللحم المعلب وشريحة خبز بالزبد وكوب من اللبن البارد – لبن بغير مسكر ولا مزيج من تلك الاخلاط الجهنمية التى عهدتها فى البار ، فيا لقسوة هذا اللبن البرىء الآن يا اخوانى !.. ومع ذلك فقد شربت وأكلت متذمرا ، لشعورى بجوع شديد لم أشعر به من قبل .. ثم أخذت من دولاب المؤونة قطعة من الفطير بالفاكهة وحشوت

بها فمي النهم .. وبعد أن نظفت أسنانى دلفت الى غرفة نومى الصغيرة أو (جحرى) وأنا اتخفف من ملابسى ... هنا كان فراشي و (الاستيريو) الخاص بى ،أعز ما امتلك فى هذه الدنيا ، مع مجموعة أسطواناتى فى دولابها المخصص لها ، الى جانب اعلام وشارات فوق الجدران ، هى تذكارات من مدرستى الاصلاحية منذ أن كنت فى السابعة من عمرى ...

كانت مكبرات (الاستيريو) مرتبة حول الفرفة ، على السقف والحوائط والارض ، بمعنى أننى وأنا ممدد فى الفراش استمع الى الموسيقى ، كنت كما لو كانت الاوركسترا تسرى فى كيانى من كل جانب ... وكان ما استهوانى قبل غيره فى هذه الليلة هو اسطوانة كونشرتو الكمان الجديدة للأمريكي (جوفرى بلاوتوس) ، تعزفها فرقة (الفيلهارمونيك) المعروفة باسم (اوديسيبوس كوويريلوس) – وهكذا سحبت الاسطوانة من مكانها المرتب وادرت (الاستيريو) وانتظرت ...

ثم جاءت الموسيقى يا اخوانى ... نشوة سماوية لا حدود لها !..

لقد تمددت على ظهرى ، مسندا راسى بين يدى فوق الوسادة ، مغمض العينين ، منفرج الشفتين إنتشاء ، أنصت الى اعذب النغم ... كان الجلال مجسما ، متجسدا ، متجاوبا فى كل موضع من فوقى ومن تحتى وعن يمينى وشمالى ... كان عجيبة العجائب ... وبين دق الطبول وعزف الابواق ، سرى عزف الكمان متفردا فوق كافة الاوتار الاخرى ، حتى لاح لى كأنه قفص من حرير التف حول فراشى .. وفى جو النشوة الفياضة هذا الذى حف بى من كل جانب ، درج ابى وأمى ، يا اخوانى ، على عدم دق الحائط الفاصل بينى وبينهما للشكوى مما يصفونه بالضوضاء !.. فقد تعلما الدرس منى !.. وصارا يتناولان اقراصا منومة !.. واغلب الظن انهما تناولاها هذه الليلة قبل حضورى ، ادراكا منهما لمدى نشوتى بموسيقى الليل هذه ... ويا لتلك الصور والاخيلة التى كانت تتراءى لى وأنا ممدد هكذا أستمع مغمض العينين سابحا فى سماء النغم !.. أهى صور حوريات بلغن الاوج فى الفتنة والجمال والسحر؟! أهى مجامع عشاق ينهلون من ينابيع الهوى رحيق الحب عذبا مصفى آنا ، وفائرا جياشا آنة أخرى ؟.. لا أدرى ... ولكن الذى أدريه

انه ما ان بلغت الموسيقى ذروتها ثم اذنت ببلوغ ختامها ، حتى ندت منى آهة جياشة ملتاعة جوى وضنى ...

بعدها أدرت أسطوانة موزار الرائعة المعروفة باسم (جوبيتر) ، فكانت هى الاخرى مذكية لمشاعرى مثيرة للوعة والشجون ... ثم تراءى لى ان اختتم بأسطوانة أخيرة قبل العبور الى عالم النوم . فكانت اسطوانة باخ المعروفة باسم (كونشيرتو براندنبرج) ... فلم تكن لوعتى بأقل مما ابتعثته فى النفس سابقاتها ، ولكن كان النوم رحيما بى واسبق الى من كل رؤى أخرى معذبة للمشاعر مثيرة للحنين ...

الفصل الرابع

فى صباح اليوم التالى استيقظت متاخرا فى الساعة الثامنة يا اخوانى ، ولما كنت لا زلت متعبا منهك القوى مشوش الفكر من أثر الليلة الماضية وأجفانى مطبقة ملتصقة بغراء النوم — فقد بدا لى انه يمكن الا اذهب الى المدرسة وانال قسطا اوفر من الراحة فى الفراش مدى ساعة او اثنتين ، ثم ارتدى ملابسى بالراحة ، وربما آخذ حماما حسب ما يحلو لى ، وبعد ذلك اعد كوبا من الشاى القوى مع بعض (التوست) ، واخيرا افتح الراديو او اتصفح الجريدة بغاية التمهل والاسترخاء ، وربما يبدو لى أيضا ، اذا صفا مزاجى أن اخرج واعرج على المدرسة العتيدة وانظر ما يلقون فيها من تلك الدروس العقيمة .. عندئذ سمعت يا اخوانى صوت أبى يزمجر ويخطو جيئة وذهابا ثم يخرج الى مصنع الصباغة الذى يعمل فيه ، وبعدها نادتنى امى بصوت كله احترام لشخصى كما اصبح دأبها معى الآن وانا اكبر وازيد امتلاء وقوة :

— الساعة الثامنة يا ولدى .. لن تحب أن تتأخر مرة اخرى !..

وهكذا رددت عليها من مكانى :

— اشعر بوجع فى راسى .. اتركينى فى حالى ، وسأحاول ان اخفف منه بشىء من النوم ، وبعدها سأتعافى وارى مايكون !..

فسمعتها تتنهد ، وقالت :

— ساضع طعامك فى الفرن اذن ياولدى .. لابد لى من الخروج الان انا ايضا ..

وكانت على حق .. فهناك ذلك القانون الذى يحتم على كل من ليس طفلا أو لا يرعى طفلا ان يخرج للعمل .. وكانت أمى تعمل فى احد محال (السوبرماركت) التابعة للبلدية لتعبئة الارفف بمعلبات الحساء والفاصوليا وما اليها .. وقد سمعتها بعد ذلك تضع طبقا فى فرن الغاز ، ثم تلبس حذاءها وتأخذ معطفها من خلف الباب ، وقالت بعد ان تنهدت مرة اخرى :

— حان موعدى الان ياولدى .. انا خارجة ..

لكننى تظاهرت بالنوم ، وعلى الاثر غالبنى النوم فعلا ، وتراءى لى فى المنام حلم غريب مضحك ، بدا لى فيه رفيقى جورجى وقد كبر كثيرا وصار انسانا عصبى المزاج صعب الشكيمة يفرض النظام والطاعة حتى أصبح له أناس تحت امرته يخفون لتلبية اوامره ونواهيه ويؤدون له التحية العسكرية كما لو كانوا فى الجيش ، وانا فرد منهم فى الصف البى بنعم ياسيدى ولا ياسيدى ، ثم تبينت بوضوح أن جورجى يحمل نجوما على كتفيه مثل جنرال .. ثم انه جاء بزميلنا ديم العتيد يحمل كرباجا ، ولاح ديم وهو أوفر وجاهة وقد شاب شعره واختفت بعض اسنانه كما تجلى لى وهو يبتسم عندما رآنى ، وبعدئذ قال رفيقى جورجى وهو يشير الى : « ان هذا الرجل تعلوه القذارة من راسه الى قدمه » .. وكان صادقا .. ثم سمعتنى أصرخ : « لا تضرب !.. لا تضربوا يا اخوانى ! » .. واخذت أجرى .. وكنت اجرى فيما يشبه الدائرة ، وكان ديم يطاردنى وهو يفرقع بكرباجه ، وكنت فى خلال ذلك أسمع مع فرقعة الكرباج صوت جرس يرن عاليا ، وكان هذا مبعث ايلام لى أيضا ..

ثم صحوت من نومى على الاثر وقلبى يدق عنيفا ، واذا صوت جرس يرن حقيقة . وكان جرس باب مسكننا .. فتظاهرت بأنه لا أحد فى البيت ، غير أن رنين الجرس لم ينقطع ، وفى اللحظة التالية سمعت صوتا يصيح من خلال الباب : « هيا قم ودع عنك هذا !.. اعرف انك فى الفراش !.. »

عرفت فى الحال صوت المتكلم .. كان صوت السيد (دلتويد) الذى يسمونه المشرف الاصلاحى المختص بمتابعتى .. فرددت على الاثر بأننى قادم توا ، وأسرعت بمغادرة الفراش وارتداء ملابسى ، وكانت فى الحق يا اخوانى (روبا) فاخرا من الحرير المزركش بصور مدائن ، و (شبشبا) من الصوف اللين ؛ وبعد أن مشطت شعرى الغزير فتحت الباب للسيد دلتويد .. فدخل هادرا بملابسه المشعثة وقبعته العتيقة ومعطفه الواقى من المطر ملوثا .. وقد ابتدرنى قائلا :

— آه يا اليكس ياولد !.. اننى قابلت أمك !.. وقد اخبرتنى انك تشعر بألم فى مكان ما !.. ولهذا لم تذهب الى المدرسة ...

فأجبت بلهجتى المهذبة :

— هو الم لا يطاق فى راسى ياسيدى .. واظن انه سيزول بعد الظهر ...

فقال دلتويد :

— أو مؤكد فى المساء !.. المساء هو الوقت الرائع ، أليس كذلك يا اليكس ياولد ؟.. اجلس .. اجلس .. اجلس !..

وكأنما كان البيت بيته وانا ضيفه !..

ثم جلس فى الكرسى (الهزاز) الذى يجلس فيه ابى وبدا يتأرجح وكأنما جاء لهذا الغرض ...

قلت له :

— فنجان شاى ياسيدى ؟..

— لا وقت عندى ..

ومضى يتأرجح وهو يرمقنى بنظراته اللامعة المعهودة تحت حواجب مقضبة .. وكرر كلماته قائلا :

— نعم لا وقت عندى ..

— فهل يتفضل سيدى بتعريفى عن دواعى تشريفى بهذه الزيارة الكريمة ؟.. أهناك شىء خاطىء ياسيدى ؟..

— خاطىء ؟..

قالها بسرعة وهو ينظر الى فى دهاء متابعا تأرجحه فى الكرسى .. ثم وقع نظره على اعلان منشور فى الجريدة التى كانت فوق المائدة ، لفتاة جميلة باسمة الثغر بارزة النهـــدين تعلن عن نوع من خوخ يوغسلافى أخذت منه قضمتين تأكيدا لجودته الفائقة .. ثم عاد بنظره الى قائلا :

— لماذا يخطر ببالك وجود شىء خاطىء ؟.. هل كنت تفعـــل شيئا ما كان يجب ان تفعله ؟.. نعم ؟..

فأجبت قائلا :

— هو مجرد أسلوب فى الكلام ياسيدى ..

فراح دلتويد يقول :

— لا بأس ... وانا اقول بأسلوبى الكلامى ياصفيرى اليكس : ان عليك ان تحاذر ، لانه فى المرة القادمة — كما تعرف جيدا — لن تكون هناك مدرسة اصلاحية بعد ذلك .. فى المرة القادمة ســيكون المكان المشبك بالقضبان ، ويكون بهذا ضياع لكل ما عملته من أجلك .. واذا لم يكن لديك تقدير لشخصك البشع ، فيجدر ، على الاقل ، ان يكون هناك بعض التقدير لشخصى ، أنا الذى جاهدت وعرقت

من اجلك !.. واقولها لك بصراحة بينى وبينك ، انها لنقطة سوداء كبيرة تحسب لكل مشرف لا يثمر عمله الاصلاحى ، وتعد اعترافا بفشله ، عن كل فرد منكم ينتهى به الامر الى الجحر المشـــــبك بالقضبان !..

فقلت له :

— لم افعل شيئا ياسيدى .. اعنى ياسيدى ان رجال الشرطة لا يأخذون على شيئا ...

فقال دلتويد باعياء تام وان كان مازال يتأرجح :

— دع عنك هذا الكلام الناعم المــاكر عن حكاية الشرطة .. لا يعنى مجرد أن رجال الشرطة لم يقبضوا عليك مؤخرا ، كما تعرف تماما ، انك لم تكن متورطا فى عمل منحرف قبيح .. لقد حدث فى الليلة الماضية بعض الاشتباكات ، أليس كذلك ؟.. كانت هنـــاك اشتباكات بالاسلحة البيضاء والسلاسل الحادة وغير ذلك .. وقد نقلت سيارة الاسعاف زميلا لفتى سمين فى ساعة متاخرة قرب محطة توليد الكهرباء وهو مصاب بجروح كثيرة !.. وورد اسمك مقترنا بالحادث !.. ونقل الى الخبر عن طريق القنوات المعروفة .. كما وردت أيضا أسماء زملاء لك .. والظاهر انه حدثت قبائح منوعة فى الليلة الماضية .. صحيح أنه ليس بوسع اى احد ان يثبت شيئا ضد شخص معين كما هى العادة ، لكننى أحذرك يا صفيرى اليكس ، لكونى صديقك المخلص على الدوام ، والوحيد فى هذه البيئة المريضة المنكودة ، الذى يريد انقاذك من نفسك !..

فقلت له :

— اننى اقدر كل هذا ياسيدى ، بكل اخلاص ..

فقال فى لون من السخرية :

— نعم تقدره ، أليس كذلك ؟.. عليك ان تحاذر ، وهــذا كل ما هناك .. اننا نعرف أكثر مما تظن ياصفيرى اليكس !..

ثم تابع كلامه بصوت يشف عن شدة الكرب والمعاناة :

— ما الذى دهاكم جميعا ؟.. اننا ندرس المشكلة ، ولبثنـــا ندرسها منذ مايقرب من قرن من الزمان !.. نعم !.. لكننا لا نتقدم خطوة بكل دراساتنا !.. أنت تنعم ببيت طيب هنا ، وأبوين محبين لك ، ولك عقلية ليست رديئة .. فهل هناك شــيطان يتسلل الى داخلك ؟..

فقلت :

– لا أحد له اى مأخذ على ياسيدى .. اننى لبثت بعيدا عن ايدى الشرطة مدة طويلة ..

فتنهد السيد دلتويد قائلا :

– وهذا هو مايقلقنى .. فهى مدة كافية لاصلاحك .. وفى تقديرى ان هذا أوان الفصل فى امرك .. لذلك فاننى احذرك ياصغيرى اليكس لكى تبعد انفك الصغير الجميل عن التدنس فى الاوحال .. فهل ترانى اوضحت غرضى ؟..

فقلت :

– أوضحته ياسيدى كما لو كان بحيرة غير عكرة .. او كسماء صافية الزرقة فى عز الصيف .. ولك ياسيدى ان تعتمد على ..

وشفعت كلماتى هذه بأعذب ابتسامة ..

بيد انه بعد انصرافه والتفرغ لاعداد الشاى القوى الذى كنت اريده ، لم اتمالك من الابتسام لنفسى عندما فكرت فى هذا الذى يشغل بال السيد دلتويد المبجل وزملائه الافاضل !.. لا باس اذن ؟.. اننى افعل القبيح ، ناهيك بالتضارب والتقاتل بالمدى وما اليها ، فضلا عن التهجم على الاعراض .. واذا تعرضت للمؤاخذة كانت العاقبة وخيمة لى .. ثم انهم كما يقولون لا يستطيعون ادارة دفة الحكم فى البلاد كما يجب اذا كان كل فرد فيها يفعل القبائح كما افعلها ليلا !.. ثم اننى اذا قبض على وامضيت ثلاثة اشهر فى هذا المحبس او ستة اخرى فى ذاك ، وبعدها كما ينذرنى السيد دلتويد بعطفه ورقته لا يكون امامى سوى حديقة الحيوان الجهنمية او السجن الكبير ذاته ! اذا كان كل هذا يا اخوانى ، فاننى اقول : « كلام جميل !.. لكن شيئا من الترفق ياسادتى الاكابر ؛ اذ لا يمكننى وحسب ان اطيق تقييد حريتى .. ان كل نشاطى سوف ينحصر – فى المستقبل الممدود امامى بأحلامه الوردية قبلما اتعرض لضرب مطواة او دق عظام بسلسلة او فى سيارة مهشمة على الطريق السريع – هو فى الا أتعرض للاعتقال والمؤاخذة .. هذا كلام صريح .. ولكن وخزهم هذا او تشديد الوطأة بالاقدام فيما هو سبب أفعال الفساد والسوء ، انما يثير ضحكى !.. فهم لايبحثون فيما هو سبب الصلاح ، واذن فعلام البحث فى سبب الفساد ؟.. اذا كان الناس صالحين فلانهم يحبون هذا ، وما يكون لى ان اتدخل فيما هو مناط ارتياحهم ، وهذا ، يجب أن ينطبق على الجانب الاخر !.. وانا من انصار هذا الجانب ... واكثر من هذا فان الفساد هو فساد الذات ، ذاتى او ذاتك فيما يعنى كلامنا وحده .. وفساد الذات هو

الفطرة التى ينشأ الانسان عليها .. لكن الفساد لانهم لا يبيحون الحرية المطلقة .. واذن فان ما أفعله انما افعله بدافع من ذاتى ، ولاننى أحب ان افعله !..

والان ، أعود الى هذا الصبح الشتوى الباسم ، فأرانى اشرب الشاى القوى باللبن مع ملعقة بعد ملعقة بعد ملعقة من السكر ، وأخرج من الفرن الافطار الذى اعدته لى امى المسكينة ، وكان بيضة مشوية لا اكثر ، ولكننى أعددت (التوست) واكلته بالمربي مع البيضة ، متلمظا به وانا أتصفح الجريدة .. كانت أخبار الجريدة عن الحوادث المعتادة مثل اعمال العنف والسطو على البنوك ، والاضرابات ، وكرة القدم ، وتهديدات لاعبيها التى تلقى الفزع فى نفوس الجماهير بالتوقف عن اللعب اذا لم ترفع أجورهم ، أولئك اللاعبون الخبثاء !.. كما كان فى الجريدة ايضا الكثير عن رحلات الفضاء ، وعروض التليفزيون الموسيقية الكبيرة ، وجوائز الصابون المبشور المغرية القائمة على جمع قسائم الاعلانات – مما أثار ابتسامى !.. ثم كانت هناك مقالة طنانة عن (الشباب الحديث) – تعنينى طبعا ، مما جعلنى أضحك سلفا – بقلم كاتب أصلع متحذلق ، ولكننى رحت اقرؤها باهتمام يا اخوانى ، وانا استمتع بشرب الشاى متمهلا وأقضم (التوست) بالمربى هانئا .. وكان هذا الكاتب اللوذعى يردد الكلام المعتاد ، عن انعدام التوعية من جانب الوالدين ، ونقص العدد الكافى من المعلمين الذين يتعين عليهم انتزاع الافكار الضارة من عقول النشء البرىء واجبارهم على الاستعطاف !.. كل هذا جعلنى ابتسم تفكها ، ولكنه كان شيئا لطيفا دعانى الى متابعة القراءة لعلمى اننى وأمثالى نقدم مادة دسمة مجددة للاخبار والمقالات كل يوم !.. فيوما بعد يوم ياأخوانى كان ينشر شىء عن (الشباب الحديث) ، ولكن كان قصارى جهدهم هو نشر مقالات من هذا القبيل بقلم بعض ذوى الياقات المنشاة يؤكدون فيها ان هذه آراؤهم بعد الدرس والتمحيص ، وان هذا الفساد هو من عمل (الشيطان) الذى ينخر طريقه الى داخل النفوس الفضة البريئة ، وان واجب الكبار ان يضطلعوا بمسئولياتهم الى جانب اهتمامهم بمشاكل الحروب والقنابل النووية وما اليها من هذا اللغو الذى لا ينقطع !.. وفى هذا ما يرفع التبعة والملام عنا نحن النشء البرىء ، وهى مقولة صحيحة ، صحيحة ، صحيحة !..

ومهما يكن فبعد أن امتلات معـدتى البريئة بدات فى اخراج ملابسى للنهار من دولاب ملابسى الخاص وانا أدير الراديو .. كان هناك يا اخوانى عزف موسيقى وترية (لكلوديوس بيردمان) وكنت اعرفه جيدا .. ورغم هذا لم أتمالك من الابتسام عندما فكرت فيما قراته ذات مرة فى احدى تلك المقالات عن (الشباب الحديث) ، من أن هذا الشباب الحديث يمكن أن ينصلح حاله اذا تيسر الاخـذ بأسلوب نشط لتشجيع (الفنون) .. فقد ورد فى ذلك المقال ان الموسيقى الراقية والشعر المجود يمكن ان يثمرا فى تهدئة وتهذيب مشاعر الشباب الحديث ، ويجعل الشباب الحديث اكثر تحضرا .. ياللسخرية !.. ان الموسيقى كانت دائمـا تلهب حواسى وتثير غرائزى !..

وبعد أن ارتديت ملابسى (أعنى ملابس النهار ، وهى زى الطلبة المؤلف من البنطلون الازرق والسويتر) بالاضافة الى حرف الف رمزا لاسمى اليكس ، خطر لى انه لايزال أمامى وقت لكى اذهب الى (بوتيك الاسطوانات) وكانت جيوبى عامرة بالنقود للسـؤال عن اسطوانة طال طلبها وانتظارها وهى اسطوانة بتهوفن رقم ٩ المعروفة باسم (كورال سمفونى) .. وهكذا خرجت لهذا الفرض ياإخوانى ..

كان النهـار مختلفا تماما عن الليل .. ان الليل ملكى وملك رفاقى وكل من ينتمون الى طوائف (النادسات) او المراهقين ، اما النهار فهو لكل الناس العـاديين ، وكان يكثر فيه رجال الشرطة متفرقين هنا وهناك طوال ساعات النهار .. وقد ركبت الاتوبيس من الناحية حتى وسط المدينة ، ثم عدت سيرا مسـافة قليلة الى (تايلور بليس) ، حيث يوجد (بوتيك الاسطوانات) الذى اخترته لمعاملاتى الكريمة ياإخوانى .. وكان له اسم رنان هو (ميلوديا) ، وكان سريعا فى تلبية الطلبات اكثر الوقت وخاصة الاسطوانات الجديدة .. وعندما دخلت لم يكن به من الزبائن اكثر من صبيتين تلعقـان (الآيس كريم) مع اننا فى صميم الشتاء البارد ، وبدا انهما تقلبان فى اسطوانات أغانى (البوب) الاكثر ذيوعا فى تلك الفترة ..

لم تكن الصبيتان تجاوزان سن العاشرة ، وبدا بوضوح انهمـا قررتا ، مثلى ، قضاء الفترة الصباحية بعيدا عن المدرسة .. ولك أن تدرك أنهما نظرتا الى نفسيهما كما لو كانتا فى سن المراهقة فعلا ..

على أى حال فاننى اتجهت الى (الكاونتر) مبتسما احلى ابتسامة مؤدبة لاندى العتيد خلفه (وهو نفسه دائما مؤدب ومقبل على زبائنه ، على الرغم من انه كان أصلع شديد النحافة) .. وقد بادرنى قائلا :

ـ اهلا .. انا أعرف طلبك .. عندى أخبار طيبة .. أخبـار طيبة .. الاسطوانة وصلت !..

وبحركات موزونة من يديه كيدى قائد أوركسترا اتجه لاحضار الاسطوانة .. وفى هذه اللحظة بدات الصبيتان تتضاحكان كمن هما فى مثل سنهما ، فرمقتهما بنظرة باردة .. وعاد آندى سريعا وهو يلوح بالاسطوانة العتيدة التى يحمل غلافها الابيض صـورة بتهوفن ذاته ، قائلا لى :

ـ اليك هى !.. هل نديرها للتجربة ؟..

لكننى كنت اريد اخذها معى للاستمتاع بها فى بيتى متلذذا بها وحدى ، وعندما أخرجت النقود من جيبى لدفع ثمن الاسطوانة سمعت احدى الصبيتين تقول :

ـ من تكون يافتى ؟.. الى هذا الحد تتطاول الى عالم كبار الموسيقيين ؟

وتضاحكتا مرة اخرى مهتزتين .. وبسرعة البرق خطرت لى فكرة طارئة ، فقلت بابتسامة ناصعة من أسنانى الحديثة التنظيف :

ـ وأنتما أيتها الاختان الصغيرتان ، ما الذى ستاخذانه الى البيت لتصديع سمعكما به ؟.. اراهن انها مجرد اسطوانات اغانى (البوب) التافهة التى لا تشبع عشاق الموسيقى الحقيقية !.. تعاليا مع عمكما !.. واستمعا الى روائع النغم .. هذه دعوة منى لكما !..

وشفعت كلماتى بانحناءة .. فتضاحكتا من جديد ، وقالت احداهما :

ـ آه .. لكننا جائعتان جدا !..

وقالت الثانية :

ـ نعم .. لها ان تقول هذا بحق !..

وهكذا قلت لهما :

ـ كلا مع عمكما !.. اذكرا اسم المطعم !..

وهنا تصورتا انهما كالسيدات الوجيهات واخذتا تستعرضان اسماء المطاعم الفخمة مثل ريتز وبريستول وهيلتون و (رستورانتو

جرانتوركو) ، غير انني وضعت حدا لهذا بقولى :

ـ اتبعا عمكما !..

وقدتهما الى مطعم (باستابارلور) القريب وتركتهما تحشوان فميهما بالاسباجتى والسجق وشرائح الموز بالكريم واكواب الشيكولاتة الساخنة ـ حتى كدت اتقزز ياخوانى بهذا الخليط لله !.. وكانت هاتان افكارهما متماثلة ، ان كانت لهما أفكار ، وشعرهما مصبوغ بلون يميل الى الشقرة .. وعلى اى حال فانهما سوف تكبران هـذا اليوم الذى سيكون حافلا بالنسبة اليهما ، لاننى سأجعل منه يوما مشهودا !.. لن تذهبا الى المدرسة بقية اليوم ، لكن سـيكون فيه تعليم حقا وصدقا ، والمعلم هو اليكس ذاته !.. وكان اسمهما مارتى وسونيتيا ، وهما اسمان على مسمى واحد ، صبيانى !..

وقلت لهما اخيرا :

ـ كله تمام يامارتى وسونيتيا .. الان جاء الوقت للاستماع الى روائع الموسيقى ..

ولما خرجنا الى الشارع البارد بدا لهما الا تركبا الاتوبيس ، بل تستقلان التاكسى ياخوانى !.. وهكذا تركت لهما الحبل على الغارب ، وان تبسمت مخفيا شعورى ، وناديت سيارة تاكسى فى الساحة القريبة ، وقال لنا السائق وكانت له (سوالف) وملابسه مبقعة :

ـ لا تمزيق للمقاعد !.. انها مكسوة منذ فترة قصيرة !..

فأذهبت مخاوفه وطمانته ، واتجهت بنا السيارة شطر العمارة السكنية رقم ١٨ ـ الف .. وعند وصولنا ظلتا طول الصعود الى الدور الثامن وهما تلهثان وتتضاحكان .. وعندما قالتا اثر دخولنا فى غرفتى انهما تشعران بالعطش الشديد اسرعت الى صندوق مشروباتى الثمين وقدمت لهاتين الصبيتين اليافعتين كأسى ويسكى ممزوجتين بالصودا اللاذعة .. فجلستا على فراشى الذى لم يكن مرتبا وأخذتا تشربان وهما تهزان السيقان ولا تكفان عن الضحك ، بينما ادرت لهما اسطوانات (البوب) التى تفضلانها من خلال (الاستيريو) ، وهما تزيدان مرحا وطربا .. وفى هذه الاثناء رحت اشـجعهما على شرب كأسين اخرين ، فلم تمانعا .. وهكذا ما أن أتممت دورتين للاسطوانات حتى كانت الصبيتان فى شبه هستيريا وراحتا تتواثبان فوق فراشى ، فما بالك بوجودى فى الغرفة معهما !..

وبعد ذلك سحبت اسطوانة بتهوفن التاسعة من غلافها ووضعتها فى (الاستيريو) .. ياللتلك العذوبة التى سرت فى الغرفة على الاثر !.. كانت الانغام الساحرة تنساب فى كافة أنحاء الغرفة سقفا وجدرانا وارضا حتى شعرت بقمة النشوة وكأننى فى حلم .. وكانت الصبيتان قد بلغتا الان حد السكر ، وتلاشى عندهما كل تحفظ !..

وبعد يا اخوانى .. اننى فى غير حاجة الى بيان ما حدث بعد ذلك .. ولكن ما أن ثابت الصبيتان الى الوعى حتى راحتـــا تصرخان وتنعتاننى بالوحش الدنس !.. وهكذا أخليت سبيلهما وخرجتـا تتوعدان بالشكوى الى الشرطة !.. ولكن النوم كان أغلب لى من كل شىء ..

الفصـــــل الخـامـــس

ان ما حدث بعد ذلك هو انني صحوت متأخرا (قرب السابعة والنصف حسب ساعتي) ، لم يكن هذا فطنة مني ، كما تبينت بعد ذلك .. فلعلك ترى أن كل شيء في هذه الدنيا القاسية مرتبط بعضه ببعض ، وان الشيء الواحد يفضي الى شيء آخر فعندما غلبني النوم كان (الاستيريو) دائرا ، ولكنه كان الان ساكتا .. واذن فلابد ان احدا اوقفه ، ولابد أن يكون (بابا) أو (ماما) ، وانهما قد فهمـا شيئا مما دار في البيت في غيبتهما .. فقد سمعت صـوت الاطباق وهما يتناولان وجبتهما المكدودة بعد عمل اليوم في المصنع لأبي ومتجر المعلبات لأمي .. يالهما من مسكينين جديرين بالعطف !.. على اى حال فقد لبست ردائي وأطللت برأسي كابن وحيد محب وقلت :

ـ سلاما !.. انا احسن كثيرا بعد راحة النهار .. وانا مستعد الان لعملي الليلي لكسب ماتيسر من النقود ..

ذلك لان هذا ماكانا يعتقدان انني افعله في تلك الايام !..

ثم أردفت على الاثر :

ـ هل لي نصيب عندكم ؟..

وكان يبدو انها فطيرة باردة سخنتها امي ولم تكن مشهية ، لكن كان لابد أن أقول ماقلته ..

وقد رمقني ابي بنظرة غير راضية ومستريبة ، غير انه لم يقل شيئا ، لعلمه أنه لا يجسر على هذا ، ونظرت الى امي بابتسامة يسيرة مكدودة ، انا فلذة كبدها ووحيدها !.. ومهما يكن فقد ذهبت الى الحمام بخطى راقصة واغتسلت جيدا من ادراني ، ثم عدت على الاثر الى (وكرى) لارتداء ملابس المساء .. وبعد تمشيط وتلميع لشعرى الفزير جلست الى المائدة لتناول فطيرتي ..

ثم قال أبي :

ـ ليس معنى سؤالي يابني انني أريد التطفل ، لكن اين تذهب بالضبط للعمل في لياليك ؟..

فأجبت وانا امضغ :

ـ آه .. هي غالبا أعمال متنوعة بسيطة ، هنا وهناك .. (وصوبت اليه نظرة شذراء مباشرة وكأنني أطالبه بأن يقتصر على ما يعنيه ويتركني لما يعنيني) .. انا لا أطلب منك نقودا ، لا للملابس ولا للفسحة .. أليس كذلك ؟.. فلماذا السؤال ؟..

كان ابي اسرع الى الامتثال ، حتى قال :

ـ آسف ياولدي .. لكنني أقلق أحيانا .. احيانا ارى أحلاما في المنام .. ولك ان تضحك اذا شئت ، لكن الاحلام تنبيء عن الكثير .. في الليلة الفائتة حلمت حلما كنت أنت فيه ولم أسـتـرح اليه بحال ..

فقلت وقد امسكت عن المضغ :

ـ بحق ؟

فقال ابي :

ـ كان الحلم واضحا .. رايتك فيه ممددا في الشارع مضروبا من اولاد آخرين .. اولاد يشبهون أولئك الاولاد الذين اعتدت أن تخرج للتجول معهم قبل ارسالك الى المدرسة الاصلاحيـة في المرة الاخيرة ..

قابلت كلامه بالابتسام اذ الفيته يعتقد انني (انصلحت) فعلا !. ثم تذكرت بدوري الحلم الذى رايته في منامي صباحا ، عن جورجي وهو يصدر الى اوامره كجنرال ، وديم وهو يبتسم عن فم بلا أسنان ويلوح بكرباجه .. لكن الاحلام تتحقق معكوسة كما قيل لي ذات مرة .. وهكذا قلت لابى :

ـ لا تقلق يا أبي على ولدك ووريثك الوحيد !.. ولا تخف شيئا .. بامكانه أن يرعى نفسه ، تماما ..

غير أن أبي تابع كلامه قائلا :

ـ .. ثم انك ظهرت كما لو كنت عاجزا تتخبط في دمائك ولا تستطيع الدفاع عن نفسك !..

كان هذا الوصف بعكس الواقع ، فابتسمت لنفسي مرة أخرى ، ثم اخرجت من جيوبي كل مامعي من نقود ورننتها على مفرش المائدة المبقع ، قائلا :

ـ انظر يا ابي .. انها ليست بالكثير .. وهي ماكسبته في الليلة الماضية .. لكنها ربما تنفع في ثمن مشروب لك ولامي في البـــار القريب ...

فقال :

ـ شكرا ياولدى .. لكننا لا نخرج كثيرا فى الوقت الحالى .. اننا لا نجسر على الخروج كثيرا والشوارع على ما هى عليه الان بسبب المعتدين الشبان ومن اليهم .. ومع ذلك شكرا لك .. اننى ساحضر لها زجاجة غدا !..

وجمع النقود التى كانت ثمرة الغصب والسلب والنهب ودسها فى جيوب بنطلونه ، فى حين كانت امى تغسل الاطباق فى المطبخ .. وانصرفت انا فى النهاية مودعا بابتسامات المحبة والاعزاز ..

وعندما هبطت الى قاع سلالم العمارة تملكتنى الدهشة .. بل اكثر من هذا فغرت فمى على اتساعه .. فقد جاء رفاقى لمقابلتى .. كانوا ينتظرون لدى حائط المدخل فى ظل تلك اللوحة التشكيلية الكبيرة المرسومة على الحائط رمزا لتكريم العمل والتى دنستها تلك الاضافات النابية بالقلم الرصاص كما ذكرت آنفا .. بل كان ديم نفسه ممسكا باصبع غليظ من الشحم الاسود يخط به عبارات بذيئة فى ثنايا اللوحة وهو يرسل قهقهته الحيوانية ، غير انه استدار عندما رحب بى جورجى وبيتر بالتحية المعهودة ، وصاح هو قائلا :

ـ ها هو قد وصل !.. مرحبا مرحبا !..

وشفع هذا برقصة من رقصاته .. بينما قال جورجى :

ـ اننا قلقنا .. جلسنا فى البار ننتظر ونشرب اللبن النارى ، فلم تحضر !.. وهكذا فكر بيتر انك ربما تكون قد تضايقت من شى ما ، ولذلك حضرنا الى مسكنك .. اليس هذا بالضبط يابيتر ؟..

فأجاب بيتر :

ـ تمام !.. تمام !..

فقلت فى حذر :

ـ شعرت بوجع فى راسى ولهذا اضطررت للنوم .. ولم اتمكن من الاستيقاظ فى الوقت الذى امرت ان أستيقظ فيه .. وعلى اى حال فنحن هنا جميعا الان ، على استعداد لكل ما تقدمه لنا هذه الليلة .. مفهوم ؟..

فقال جورجى وكانه يقولها مشفقا :

ـ نأسف لحكاية وجع الراس ، التى تستخدمها ربما اكثر من اللازم !.. ومثل ذلك اعطاء الامر والتنظيمات !. مؤكدا ان الوجع زال ؟.. ومؤكدا انك لن تكون أسعد بالرجوع الى الفراش ؟.

وعلى اثرها بدا عليهم الابتسام !..

فقلت :

ـ مهلا .. لنضع كل شيء فى النور .. ان هذه السخرية ، اذا جاز ان اسميها كذلك ، لا تليق بكم يا أصحابى الصغار !.. لعلكم كنتم تتفقون من خلف ظهرى لتدبير (مقالبكم) الصغيرة وما اليها !.. وبما اننى زميلكم وزعيمكم فمؤكد أن من حقى أن اعرف ماذا يجرى هنا !.. والان ياديم ، مامعنى هذه الابتسامة الواسعة ، العريضة كانها من فم حصان ، وما دلالتها ؟..

فقد رأيته قد فغر فاه عن آخره فى ضحكة ساخرة متحفزة .. ولكن جورجى سارع يقول :

ـ لا بأس .. لا لزوم للغمز واللمز يا ديم يا أخى .. هذا جزء من الخطة الجديدة ..

فقلت :

ـ خطة جديدة ؟! ماهى حكاية الخطة الجديدة هذه ؟.. لاشك عندى الان انه حدث كلام كثير من وراء ظهرى النائم !.. اريد ان اسمع اكثر واكثر !..

وشبكت يدى واستندت مسترخيا الى السور (الدرابزين) المكسور لكي أستمع ، وفى هذه الوقفة كنت أعلى منهم وهم وقوف على الدرجة الثالثة للسلالم ..

وقال بيتر :

ـ لا مساس بأحد يا اليكس .. اننا اردنا أن تسير الامور بشكل اكثر ديمقراطية ، لكن ليس كما تفعل انت اذ تأمر بما يجب أن نفعله وما لا يجب ان نفعله !.

فقال جورجى :

ـ ليست المسألة مسألة مساس او غيره .. انما هى مسألة من تكون عنده أفكار .. فما هى الافكار التى تطلع بها علينا ؟..

وركز نظرات جريئة على شخصى وهو يتابع كلامه :

ـ .. كلها افكار عن عمليات صغيرة .. عن أشياء مثل ماكان فى الليلة الماضية .. اننا نكبر الان يا اخوانى !..

فقلت دون أن أتحرك فى مكانى :

ـ هل من مزيد ؟.. دعونى أسمع المزيد !..

فقال جورجى :

ـ لا بأس .. ان كان لابد ان تعرف ، فلتعرف اذن .. اننا ندور هنا وهناك ، نكسر المحلات وغيرها ، ثم نخرج بنصيب قليل من النقود لكل واحد منا .. وهناك (ويلى الانجليزى) فى مقهى

(موزلمان) يقول انه على استعداد لتصريف اية مسروقات ذات قيمة اذا عرضت عليه نظير مبالغ كبيرة جدا ..

فقلت بهدوء ظاهرى ولكننى كنت اغلى فى داخلى :

ـ كذا ؟! ومنذ متى كنتم تتصلون وتتشاورون مع (وبلى الانجليزى) ؟..

فأجاب جورجى :

ـ بين وقت وآخر .. اننى اجرى اتصالاتى شخصيا ، كما حدث يوم السبت الماضى .. بامكانى أن اعيش حياتى الخاصة يازميلى ، اليس كذلك ؟!..

والواقع يا اخوانى اننى لم اكترث بكل هذا ، وقلت له :

ـ وما الذى ستفعله بتلك المبالغ الكبيرة جدا التى تشير اليها ؟.. الا تنالون كل شىء تحتاجون اليه ؟.. اذا احتجتم الى سيارة ، تلتقطونها من الشارع !.. وان احتجتم الى نقود كثيرة ، تأخذون ماتريدون !.. فلماذا هذا التطلع المفاجىء الى الانتشار والتضخم على هذه الصورة ؟..

فقال جورجى :

ـ آه .. انك تفكر وتدبر أحيانا مثل طفل صغير ..

وهنا قهقه ديم عاليا ، بينما تابع جورجى كلامه :

ـ فى هذه الليلة ننوى أن نقوم بعملية رجال ...

اذن فقد تحقق الحلم الذى رأيته فى منامى ، فهذا هو جورجى (الجنرال) يقول ماذا يجب أن نفعل وماذا يجب الا نفعل .. وهذا هو ديم يدمدم مثل كلب بولدوج وان لم يظهر كرباجه بعد !.. غير اننى أدرت (اللعبة) بحرص وحذر ، اذ قلت باسما :

ـ جميل !.. الهمة تهبط على من ينتظر !.. اننى علمتك الكثير أيها الزميل الصغير .. الان قل لى ماذا عندك ياجورجى يا ولدى !..

فقال جورجى بابتسامة دهاء ومكر :

ـ آه .. البداية فى (اللبن المقوى) ، الن نقول هذا ؟.. شىء يشحذ حواسنا ، اليس كذلك ؟..

فقلت بمثل ابتسامته :

ـ انك قرأت افكارى !.. كنت انوى أن اقترح عليكم مشرب كوروفا العتيد .. جميل !.. جميل !.. افتح الطريق امامنا يا صغيرى جورجى !..

وانحنيت له امتثالا وانا ابتسم ، ولكننى كنت افكر فى هذه الاثناء .. وعندما سرنا فى الشارع بدا لى أن الاسرع فى التفكير والعمل هو الاسبق والاغلب .. وحالفنى الحظ بمرور سيارة سمعت من داخلها عزف المقطع الاخير من (كونشرتو) الكمان لبتهوفن ، فكان بمثابة الهام لى فيما ينبغى أن افعل .. فقلت بصوت عميق وانا اشهر مطواتى قرن الغزال الفتاكة بسرعة البرق :

ـ حسنا ياجورجى !.. استعد !..

فقال جورجى :

ـ هكذا ؟!..

ولكنه كان سريعا فى سحب مطواته واخراج نصلها الحاد ، وتحفزنا متواجهين ، فيما راح ديم يقول :

ـ آه !.. لا .. ليس هذا من الصواب !..

وهم أن يفك سلسلته الكبيرة من حيث كانت ملتفة حوله ، غير أن بيتر قال له وهو يضع يده عليه بحزم :

ـ دعهما !.. الاصح أن يكونا هكذا !..

وهكذا بدأت المناوشة بين جورجى وبين شخصى الضعيف هادئة حذرة بأسلوب القطط ، وكلانا يحاول أن يجد منفذا فى دفاع صاحبه .. وفى غضون ذلك كان بعض المارة يسيرون عن كثب ويرون هذا المشهد ، ولكنهم كانوا منصرفين الى ما يعنيهم ، وربما لأن هذا كان من مشاهد الشارع المألوفة .. وكنت لا اكف لحظة عن ادارة مطواتى فى كل اتجاه ولكن بعيدا عن وجه جورجى أو عينيه ، مستهدفا فقط يده الممسكة بمطواته .. وفعلا لم تمض لحظات حتى طارت المطواة من يده بحركة مفاجئة من جانبى وهوت على الارض فى رنين مسموع ، بعد أن جرحت أصابعه بمطواتى ، وبدا الدم ينزف منها فى ضوء مصباح الشارع .. وعلى الاثر عاجلت ديم قائلا له :

ـ الان ياديم ، هيا نسوى الموقف بيننا نحن الاثنين !..

فأسرع ديم بفك السلسلة من حول وسطه بخفة تدعو الى الاعجاب وهو يهمهم بأصوات حيوانية مبهمة .. والان فان الاسلوب الامثل لى فى هذه المناوشة الجديدة هو أن التزم الانحناء مثل ضفدعة فى توائبها حماية لوجهى وعينى ، وهو مافعلته حقا يا اخوانى ، الى درجة أن ديم بدا عليه شىء من الدهشة اذ كان يعتمد فى هجومه على الضربات المتلاحقة على وجه خصمه .. ولابد أن اعترف أن ضرباته

جعلت تنهال على ظهرى حتى اوجعتنى ، ولكن الالم حفزنى على سرعة العمل والحركة ، وهكذا وجهت طعنتين واطئتين بالمطواة الى ساقه اليسرى مزقتا ملابسه وارسلتا نقطتين من الدم ، وشفعت هذا بضربة علوية غرست المطواة فى رسغ ديم حتى اسقط السلسلة واخذ ينهنه كطفل .. وبعدها راح يحاول امتصاص الدم من معصم يده وهو ينوح فى نفس الوقت .. ولما رايت الدم يسيل بغزارة بادرتهم قائلا :

– صح !؟.. صح يارفاق ؟!

فرد بيتر قائلا :

– انا لم اقل اى شىء !.. انا لم اقل كلمة واحدة !.. انظر !.. ان ديم يسيل دمه حتى الموت !..

فقلت :

– مستحيل !.. الانسان لا يموت الا مرة واحدة .. ان ديم مات قبل ان يولد !.. سيتوقف هذا الدم حالا .. ذلك لاننى لم اطعن يده فى موضع الشرايين الرئيسية .. ولم البث ان اخرجت منديلا من جيبى لتضميد يد ديم (المائت) الذى كان يتوجع ويولول ، وفعلا توقف مسيل الدم كما قلت .. نعم يا اخوانى ، فهكذا عرفوا الان من هو السـيد والزعيم – هؤلاء النعاج !..

ولم يطل الوقت لتهدئة روع هذين المجندين الجريحين فى بار دوق نيويورك ، ناهيك بما قدم لهما من كئوس البراندى المضاعفة (المشتراة من نقودهم الخاصة ، بعد ان اعطيت كل نقودى لوالدى) ثم زال الروع عنهما تماما بعد تنظيف الجـروح بمنديل من ماء الدورق ..

وكانت النساء العجائز اللاتى قابلناهن فى المشرب فى ليلتنا الفائتة موجودات ، وقد بادرننا بعبارات : (شكرا لكم يافتيان !.. بارك الله فيكم ياأولاد !) .. ذلك وان كنا لم نكرر عملية الكـرم السالفة .. غير ان بيتر قال لهن :

– ماذا تطلبن يابنات ؟..

وامر لهن بمشروب اذ بدا ان جيوبه عامرة بالنقود ، وهكذا ارتفعت اصواتهن اكثر واكثر لاهجات بالشكر والدعاء ، مختتمات بقولهن : ابدا لن نخون عهدنا معكم ، ولن نشى بكم !..

وقلت لجورجى فى النهاية :

– الان قد عدنا الى سابق عهدنا ، وتناسينا كل شىء .. صح ؟..

فقال جورجى :

– صح !.. صح !.. صح !..

غير ان ديم العتيد الذى كان فى شبه ذهول قال وكأنه كان يقتتل مع شخص آخر وليس معى :

– كان بامكانى ان احطم (ابن الحرام) بسلسلتى ، لولا ان احدكم اعترض طريقى !..

قلت مرة اخرى :

– حسن يا جورجى يافتاى .. ما الذى تفكر فيه لنا ؟..

فرد جورجى قائلا :

– آه .. ليس الليلة .. ليس هذه الليلة من فضلكم !..

فقلت :

– انت شاب قوى كبير ، مثلنا كلنا .. نحن لسنا اطفـالا صغارا ، أليس كذلك ياجورجى يافتاى ؟.. فما الذى تفكر فيـه لنا ؟..

وعاد ديم يقول :

– كان بامكانى ان افقأ عينيه بالسلسلة !..

ولم يلبث جورجى ان قال :

– كنت افكر فى ذلك البيت .. البيت الذى امامه مصباحان .. البيت الذى يحمل اسما مثل اسماء القصور .. واظنه (مانشن) ..

– ماذا تقصد ؟..

– ... هو البيت الذى تقيم فيه امراة غنية جدا مع قططها واشيائها الثمينة ..

– مثـل ؟..

– مثل الذهب والفضيات والجواهر .. ان (ويلى الانجليزى) هو الذى قال هذا ..

فقلت وقد عرفت موقع المكان الذى اشار اليه :

– بديع جدا ياجورجى !.. فكرة طيبة .. وتسـتحق ان ننفذها فلنذهب فى الحال !..

وفى خروجنا من المشرب قالت النسوة العجائز :

— لن نقول شيئا ايها الفتيان !.. كنتم هنا معنا طول الوقت !..

فقلت لهن :

— ياللبنات الطيبات !.. وسنعود بعد عشر دقائق لشراء مزيد لكن من المشروبات !..

وهكذا تقدمت رفاقى الثلاثة فى عملية كان فيها القضاء المبرم على !..

الفصـــل الســـادس

كانت تمتد شرقا بعد حانة دوق نيويورك سلسلة ابنية للمكاتب ثم المكتبة البلدية ، وبعدها عمارة سكنية باسم (فكتوريا فلا تبلوك) ، وفيما وراءها منطقة بيوت الاغنياء القديمة التى يقطنها عادة الضباط المتقاعدون والارامل العجائز اللاتى تقتنين القطط .. وكانت هـذه البيوت تضم حقا تحفا واشياء ثمينة تدر نقودا كثيرة فى اسـواق السياحة والسياح ، مثل اللوحات الفنية والجواهر والتحف النادرة وما اليها ..

وهكذا وصلنا فى هدوء ويسر الى البيت المعروف باسم (مانشن) ، الذى قامت امام بابه الخارجى كرتان مضيئتان فوق عمودين حديدين كأنهما ديدبانان .. ولاح لنا ضوء فى نافذة احدى حجرات الطابق الارضى ، فتقدمنا اولا الى بقعة منعزلة للمراقبة من خلال النافذة واستطلاع ما يدور بداخلها .. وكانت النافذة شبكة لقضبان حديدية وكأن البيت سجن ، ولكننا استطعنا ان نرى ونراقب ما يجرى بكل وضوح ..

وقعت انظارنا على امراة عجوز ذات شعر اشيب ووجه كثير التجاعيد .. وكانت تصب من زجاجة فى يدها لبنا فى اطباق صغيرة ثم تضعها على الارض ، وهو ما دلنا على وجود قطط كثيرة تموء وتتواثب فى الحجرة .. وكان بوسعنا أن نبصر تلك العجوز وهى تخاطب القطط وتزجرها فى نفس الوقت .. ولمحنا فى الحجرة صورا نفيسة معلقة على الحوائط ، وساعات مزخرفة ثمينة ، وزهريات ومقتنيات كثيرة غالية القيمة ، حتى أن جورجى همس قائلا :

— ياله من مال كثير نناله فى مقابل هذه الاشياء يا اخوانى !.. ان (ويلى الانجليزى) ينتظرها بفارغ الصبر !..

فقال بيتر :

— وكيف الدخول ؟..

كان الرد من اختصاصى ، وقبل أن يفوه جورجى بكلمة قلت بصوت خفيض :

ـ أول شيء هو ان نجرب الطريقة المعتادة .. الباب الامامى .. سأتقدم بكل أدب واقول ان احد أصحابى أصيب بنوبة اغماء فى الشارع ، ويكون جورجى مستعدا للظهور عندما تفتح العجوز الباب .. ثم اطلب منها كوب ماء أو الاتصال تليفونيا بطبيب .. ومسألة الدخول بعد ذلك سهلة ..

فقال جورجى :

ـ ربما لا تفتح الباب !..

ـ سوف نجرب ..

ثم قلت لبيتر وديم :

ـ انتما يا اخوانى ستقفان على جانبى الباب .. صح ؟..

فأومآ ايجابا فى الظلام .. وفى الحال تقدمت بشجاعة الى الباب الامامى .. وضغطت على جرس الباب حتى سمعت الرنين يتردد فى الردهة .. ولما لم اسمع مجيبا ادنيت فمى من فتحة صندوق البريد وناديت من خلالها بصوت مهذب :

ـ النجدة يا سيدتى من فضلك !.. لى صاحب أصيب بنوبة فى الشارع ، فأرجو تمكينى من الاتصال تليفونيا بطبيب !..

وبعد قليل رأيت ضوءا ينبعث فى الردهة ، ثم سمعت وقع خطى المراة العجوز فى (الشبشب) وهى تقترب من الباب الامامى ، ولا أدرى لماذا خطر لى انها جاءت تحمل قطتين كبيرتين تحت ابطيها .. واخيرا نادت بصوت قوى قائلة :

ـ ارجع !.. ارجع والا أطلقت النار !..

كاد جورجى يضحك عندما سمع هذا ، اما انا فقلت بلهجة الملهوف وبنفس النبرات المهذبة :

ـ أرجو المساعدة ياسيدتى !.. ان صاحبى فى حالة سيئة جدا ..

فجاء ردها قائلة :

ـ اذهب !.. انا اعرف خدعكم القذرة ، تجعلوننى افتح الباب ثم تبيعون أشياء لا أريدها .. قلت لك اذهب وابتعد ، والا اطلقت عليك قططى !..

فى هذه اللحظة لاحت منى نظرة الى نافذة علوية فوق الباب الامامى ، ورأيت ان هذه وسيلة سريعة للتسلق والدخول من هذه النافذة ، والا أمضيت الليل كله فى المجادلة مع العجوز .. وهكذا قلت لها :

ـ حسن ياسيدتى .. مادمت لا تقدمين المساعدة فلابد لى من اخذ صاحبى المريض الى مكان آخر ..

واشرت الى زملائى أن يلزموا الهدوء ورفعت صوتى فى اتجاههم قائلا :

ـ لا بأس يا صاحبى !.. سوف نجد بالتأكيد شخصا خيرا فى مكان آخر .. ربما لايمكن أن نلوم هذه السيدة المسنة لشكها ، وهناك أشقياء واشرار كثيرون يتجولون ليلا !..

وانتظرنا قليلا فى الظلام ، ثم قلت لهم همسا :

ـ لا بأس .. اقتربوا من الباب .. سأصعد على كتفى ديم وافتح هذه النافذة وادخل منها .. وعندها سأسكت تلك العجوز وافتح لكم الباب .. لا صعوبة ابدا !..

بهذا اردت ان ابين لرفاقى من هو الزعيم الفعلى وصاحب الافكار النيرة .. وقد قلت لهم :

ـ انظروا الى هذا الافريز فوق الباب !.. هو خير موطىء لقدمى !..

فنظروا ، واعجبوا بالفكرة ، واوماوا برءوسهم مؤيدين ..

كان ديم هو اقوانا ، وهكذا رفعنى جورجى وبيتر الى كتفيه العريضين دون أن يفطن أحد الى شىء غير عادى ، لخلو المنطقة من المارة وقلة رجال الشرطة .. وكان الافريز متينا يحتمل ثقلى .. وكانت النافذة العلوية مغلقة ، ولكننى اخرجت مطواتى الحادة وشققت الزجاج بمقبضها العظمى ، ورفاقى يراقبون من تحتى محتبسى الانفاس .. ولم البث ان مددت يدى من خلال الشق وانزلت نصف النافذة السفلى بسهولة ، ثم انزلقت الى الداخل كما كنت انزلق الى (البانيو) ، حتى لقد وقف رفاقى فاغرى الافواه مبهورين ياخوانى !..

الفيتنى فى ظلام نسبى ومن حولى أسرة ودواليب ومقاعد ثقيلة ، واكوام من العلب والكتب .. بيد اننى تقدمت بجراة الى الباب .. وكان للباب صرير خافت عندما فتحته ، ثم الفيتنى فى ردهة متربة بها ابواب أخرى .. ان كل هذا الاسراف كان معناه ياخوانى ، انه ليس هناك سوى مخلوقة عجوز وقططها ، ان القطط تنام منفردة فى كل غرفة قطة ، تعيش على اللبن ورءوس السمك وكأنها ملكات أو اميرات !.. وكان بوسعى أن أسمع صوت العجوز فى الداخل وهى تناجى القطط اذ تموء طلبا لمزيد من اللبن ..

ورأيت امامى سلالم تهبط الى الردهة ، فبدا لى ان اثبت لرفاقى التافهين هؤلاء أننى اقدر من ثلاثتهم جميعا ومثلهم معهم ، وان بوسعى أن أتم العملية كلها وحدى دون مساعد ولا نصير .. ساهجم على العجوز وقططها هجمة مباغتة ، ثم املأ يدى بما خف حمله وغلا ثمنه ، وبعدها أعود الى الباب الامامى بحملى الثمين وأريهم الغنيمة بذهبها وفضتها تخطف أبصارهم وتذهب بألبابهم ، وعندها يعرفون كل شىء عما هى الزعامة الحقيقية !..

هكذا أخذت اهبط برفق ومهل ، معجبا بلوحات معلقة من العهد القديم تمثل نساء مرسلات الشـعر بياقات عالية ، وحقولا مخضرة ذات أشجار باسقة تتوسطها جياد مطهمة .. ونفذت الى انفى روائح عطنة لقطط ورءوس أسماك وجو معفر بالغبار .. وبعد هبوطى الى الدور الارضى كان بوسعى أن أبصر الضوء فى تلك الغرفة الامامية التى كانت فيها العجوز توزع اللبن على قططها ـ هـذه القطط التى رايتها الان عن كثب تروح وتغدو محركة أذيالها متمسحة بعتبة الباب .. ووقع نظرى فى الردهة المعتمة على صندوق خشبى كبير علاه تمثال لطيف بارق فى الضوء لفتاة نحيلة القوام واقفة على ساق واحدة ويداها مبسوطتان الى الامام ، وبدا لى انه مصنوع من الفضة ، فقررت أن آخذه لنفسى ، وحملته معى وانا أتقدم الى الغرفة المضاءة قائلا :

ـ ها ها !.. ها نحن قد تقابلنا !.. الظاهر ان حديثنا من خلال فتحة البريد لم يكن مرضيا ؟.. فلنعترف بهذا ايتها العجوز العجفاء العطنة !..

قلت هذا وانا اطرف بعينى فى ضوء الغرفة والقطط تحوم امامى فوق السجادة ونثار شعرها يملأ طبقة الهواء الارضية وهى من كل الاشكال والالوان والاعمار والامزجة ..

وما لبثت العجوز ان رمتنى بنظرة شزراء كأنها رجل وبادرتنى قائلة :

ـ كيف دخلت الى هنا ؟.. مكانك ايها الوغد الشرير ، والا اضطررت أن اضربك !..

لم اتمالك من الابتسام لهذا التهديد ، وكانت ممسكة فى يدها المعروقة بعصا خشبية تتوكأ عليها وقد رفعتها نحوى متوعدة ... ولكننى تقدمت نحوها متمهلا ، وفى طريقى لمحت فوق دولاب جانبى

شيئا صغيرا بالغ الابداع ـ بل هو ابدع شىء تهيأ لمن كان مثلى متيما بالموسيقى أن تكتحل عيناه برؤياه ، اذ كان تمثالا نصفيا للموسيقار الاكبر بتهوفن ، ازدان بشعره المرسل وربطة عنقـه الضافية .. وسرعان ما اتجهت الى مكان التمثال بعينين مشـفوفتين ويدين ممدودتين ، وفى ذلك لم أبصر اطباق اللبن المنثورة على الارض ، فزلت قدمى فى واحد منها وفقدت توازنى .. ولما حاولت التمالك كانت العجوز الماكرة قد جاءت من خلفى بأسرع مما يسمح به سنها واخذت تنهال بالعصا على رأسى ، حتى ألفيت نفسى ملقى على يدى وركبتى وانا أردد : (يا شريرة ، يا شريرة ، يا شريرة !) .. بيد أنها لم تكف ، ومضت تهوى على رأسى بعصاها وهى تقول : « يا أحقر وأحط مخلوق فى الدنيا ، تقتحم بيوت الناس الاكابر هكذا !؟ » ..

ولما تضايقت من هذا الضرب الموجع عالجت أن امسك بطرف العصا وهى تهوى على رأسى مما أدى الى أن تفقد العجوز توازنهـا هى الاخرى ، وفى محاولة منها للاستناد الى المائدة جذبت المفرش الذى يعلوها ، فتدلى بقوة وطوح معه بابريق وزجاجة لبن انسكب ما فيها وتناثر فى كافة الانحاء ، وهوت العجوز بدورها على الارض وهى تزمجر : « لعنة الله عليك يا شقى ، سوف تنال جزاءك ! » .. عندئذ هبت القطط مذعورة تتواثب فى كل مكان وهى تموء مواء مؤثرا وترتطم بعضها ببعض فى هرج ومرج بالغين !..

وعالجت الوقوف على قدمى فى اللحظة التى كانت فيها تلـك العجوز الكريهة الحقود تحاول النهوض بدورها وهى تزمجر وتدمدم ، فما كان منى الا أن رفستها بقدمى فى وجهها المعروق المبقع ممـا زاده تبقعا وهى لا تكف عن الصراخ .

وفى تراجعى الى الخلف بعد هذه الركلة لابد اننى دست بقدمى على احدى القطط ، اذ سمعت مواءها شرسا ، واحسست بأسنان ومخالب تطبق على ساقى ، فأخذت العن واسب محاولا تخليص ساقى .. وفى غضون ذلك كنت لا ازال ممسكا فى يدى بالتمثـال الفضى محاولا ان اخطو فوق العجوز اللعينة وهى على الارض للوصول الى مكان تمثال بتهوفن النصفى .. ولكن مرة أخرى وجدتنى وقد زلت قدمى فى طبق آخر ملىء بالكريم ، واذا بى أتطاوح مرة ثانية فى الهواء فى منظر يثير الضحك لمن يرقب عن بعد ، لولا انه منظر محدثكم المتواضع !.. واستطاعت العجوز وهى على الارض أن تمد يدها

من فوق القطط وتمسك بقدمي ، فهويت على الارض هذه المرة ،
فيما بين رشاش اللبن والقطط المزمجرة ، وانشأت العجوز تضربني
بقبضتيها على وجهي وكلانا ممدد على الارض وهي تصرخ : في قططها :
« أضربوه !.. انهشـــوه !.. انزعوا اظافـره !.. ابن الخنفســـاء
السامة !.. » .. وكأنما سمعت القطط وفهمت واطاعت ، فقـد
وثب فوقي قطان كبيران شرسان واخذا يخمشانني ... فأثارني
ذلك يا اخواني ، وجعلت أوجه ضرباتي اليهما .. ولكن العجوز اللعينة
صاحت قائلة : « لا تلمس قططي يا سافل !.. » ... وخدشتني
في وجهي ... وعندئذ ثارت ثائرتي ورفعت التمثال الفضي وانا اسبها
سبا قبيحا ، واهويت به على رأسها ، فخرست تماما ...
وما أن نهضت قائما من بين القطط المهتاجة حولي حتى سمعت
— ويا لي سمعت ! — دوي صوت (سرينة) الشرطة على البعد ،
فتبينت الآن في بارقة فكر خاطفة ان العجوز الخبيثة اتصلت بالشرطة
تليفونيا ، وكنت اتوهم أنها تناجي قططها حالما دقت الجرس بالحاح
مما اثار شكوكها ... وهكذا أسرعت الى الباب الامامي وأنا أتعثر
في فتح كافة الاقفال والسلاسل والزلاجات التي كانت تحصن الابواب
... ولما فتحت الباب اخيرا ؛ فمن تظنون انه كان واقفا امامه سوى
ديم ؟!.. ولمحت بنظرة خاطفة رفيقي الاخرين يلوذان بالفرار !..
وقتها صرخت في ديم قائلا :
— ابتعد بسرعة !.. الشرطة في الطريق !.
فرد ديم مقهقها :
— انتظرت انت لمقابلتهم !..
ولمحت السلسلة في يده ... وعاجلني بضربة اهوى بها على
جفوني ، ولولا انني اغمضتها بسرعة لفقدت البصر ... ثم الفيتني
ادور حولي صارخا من فرط الالم وانا لا اكاد ابصر ... وعاد ديم
يقول :
— لم اكن احب ان تفعل بي ما فعلت ايها الزميل الحميم !..
ولم يكن من المناسب ان تهاجمني كما هاجمتني ؛ يا حقير !..
وعلى الاثر سمعت وقع حذائه الثقيل وهو يركض مبتعدا في
الظلام ولا يكف عن القهقهة ... ولم يمض اكثر من ثوان معدودة حتى
كانت سيارة الشرطة تتوقف عن كثب بعد ان ارسلت سرينتها عويلا
مشئوما ...
وكنت أتخبط بين جدران المدخل مغمضا وعيناي تسحان سحا

عندما داهمني رجال الشرطة واطبقوا علي وحملوني الى الخارج ..
وكان بوسعي أن اسمع صوت احدهم وهو يقول من داخل الغرفة التي
كنت فيها مع القطط :
— انها مضروبة ضربا مميتا ... لكنها تتنفس ...
وسمعت صوتا آخر وهو يدفعني بفلظة وعنف الى قلب السيارة
قائلا :
— هذا من دواعي سرورنا العظيم ، يا اليكس الصغير !..
فلم أتمالك ان صرخت :
— أنا عميت ، أهلككم الله ، يا اولاد الحرام !..
فسمعت من يقول ويده تلطم فمي :
— تهذب !.. تهذب !..
غير انني لم اصمت ، ورحت اقول :
— يا ملاعين !.. اين الآخـرون ؟.. اين زملائي الخـــونة
الاوساخ ؟.. ان واحـدا منهم ضربني بالســلسلة على عيني !..
الحقوهم قبل أن يفلتوا !.. كانت كلها فكرتهم يا اخواني !.. انهم
أجبروني على أن أفعل هذا !.. انا بريء ، قاتلكم الله !..
راحوا يبتسمون بمنتهى الاستخفاف وهم يدفعونني الى داخل
السيارة في المقعـد الخلفي ، لـكنني تابعت الحملة على أصـحابي
المزعومين ، وان بدا لي انه لا فائدة من هذا ، لانهم لابد قد عادوا
الان الى بار دوق نيويورك واخذوا يتحفون اولئك النسوة العجائز
بالشراب وهن لا يشبعن من ترديد هذه العبارات : « شكرا يا فتيان !.
بارك الله فيكم يا اولاد !. كنتم هنا طول الوقت يا شباب !. ولم
تغيبوا عن انظارنا لحظة واحدة !. » ...
وفي خلال ذلك كانت سيارة ماضية في طريقها الى قسم الشرطة
وسرينتها الزاعقة لا تكف عن الولولة وانا محشور بين اثنين من رجال
الشرطة كانا لا يكفان عن اسكاتي بأيديهما الغليظة كلما تماديت في
الاحتجاج ... وعندما استطعت فتح عيني في النهاية رأيت من خلال
الدموع مدينة تنطوي تباعا والانوار تتـلاحق بعضـها اثر بعـض
والشرطيين اللذين انحشرت بينهما لا يكفان عن الابتســام والسائق
النحيل الدقة عاكف على عجلة القيادة والى جانبه آخر غليظ الرقبة
هو الذي كان يوجه الكلام الي قائلا :
— حسن يا أليكس يا بني ... اننا جميعا مشتاقون الى أمسية
سارة معك ، أليس كذلك ؟..

– كيف تعرف اسمى يا شبيه الثور ؟.. ادعو الله ان يطوح بك فى قرار الجحيم !.

فتقبلوا هذا بمزيد من الابتسام مع ما تيسر من الوكز من قبل الشرطيين اللذين حشرت بينهما ، بينما رد الشرطى غليظ الرقبة قائلا :

– كل الناس تعرف اليكس الصغير ورفاقه .. ان اليكس قد اصبح شخصية مشهورة جدا !.

فصحت قائلا :

– انهم هم المذنبون !.. جورجى وديم وبيتر ... ان اولاد الحرام هؤلاء ليسوا أصحابى !.

فقال غليظ العنق :

– لا بأس ... أمامك الليل بطوله لكى تحكى حكايتك كلها ومغامراتك الجريئة مع هؤلاء السادة الفتيان ، وكيف قادوا اليكس الصغير البرىء الى طريق الفساد !..

وعندئذ ترامى الى سمعى صوت (سرينة) سيارة بوليسية اخرى ، ولكنها كانت تسير فى الاتجاه الآخر ، فقلت :

– أهذه السيارة من اجل اولاد الحرام هؤلاء ؟.

فأجابه غليظ العنق :

– هذه سيارة اسعاف ... هى بلا شك فى الطريق الى ضحيتك العجوز ، ايها الوغد البشع !..

فصرخت قائلا وانا اطرف بعينى الموجوعتين بشدة :

– الذنب ذنبهم !.. انهم يشربون الآن فى بار دوق نيويورك !.. اقبضوا عليهم ، لعنة الله عليكم !..

ومرة اخرى كان الابتسام يا اخوانى والوكز على الفم ... ولما وصلنا الى قسم الشرطة ساعدونى على النزول من السيارة وصعود درجات السلم بالدفع والركل ، وأيقنت اننى لن انتظر ادنى رحمة ولا ترفق من هؤلاء الزبانية ، قبحهم الله !..

الفصل السابع

سحبونى الى داخل هذه (المضيفة) ذات الطلاء الابيض الزاهى ، وكانت تفوح منها رائحة نفاذة هى خليط من روائح القىء والمراحيض والافواه المخمورة والمطهرات ، تنبعث كلها من الزنزانات المشبكة بالقضبان عن كثب ، ممتزجة بأصوات الشباب والغناء الصادرة من نزلائها ... ولكن كان يتخللها أصوات رجال الشرطة وهم ينتهرونهم لكى يخرسوا ، بل سمعت خلال هذا كله أصوات من يضربون لخروجهم على النظام ، وخيل الى ان من بين هؤلاء صوت امراة سكرانة !..

وكان معى فى المكان الذى ادخلت اليه اربعة من رجال الشرطة جلسوا الى طاولة يشربون شايا من اناء كبير وهم يمصمصون ويتجشأون تلذذا ومتاعا ... وهم لم يقدموا لى شيئا مما يحتسون ، وكل ما قدموه لى هو مرآة متآكلة يا اخوانى لكى انظر فيها !.. وحقا لم اكن ما ابصرته هو وجه محدثكم المتواضع ، بل كان مشهدا مؤثرا لسحنة بدا فيها الفم مورما والعينان حمراوين والانف افطس ... ولم يتمالك رجال الشرطة من الابتسام عندما شاهدوا جزعى وارتياعى حتى قال قائل منهم متفكها : « أرأيت جمال محياك » ؟!..

وبعد قليل جاء ضابط تعلو كتفيه نجوم لامعة لبيان قدره ومنزلته بينهم ، وعندما رآنى لم يزد عن قوله :

– ابدأوا ...

فقلت :

– لن اقول كلمة واحدة ما لم يحضر معى محامى ... انا اعرف القانون يا ملاعين !..

ابتسموا جميعا ابتسامات عريضة لهذا الكلام ، وقال الضابط :

– صح صح صح يا أولاد !.. سنبدأ معه بأن نريه اننا أيضا نعرف القانون !.. لكن هذه المعرفة بالقانون ليست كل شىء !.

كانت لهجة الضابط رقيقة مهذبة ، ولكنها كانت تنبىء عن التعب والتبرم .. وما لبث ان أومأ برأسه بابتسامة الى شرطى

ضخم سمين ... فنزع هذا الشرطى الضخم السمين كسوته حتى
بدا كرشه فى مثل ضخامته ، ثم تقدم منى غير متعجل ورائحة الشاى
باللبن الذى كان يشربه تفوح قوية من فمه المنفرج سخرية منى ...
ولم يكن حليق الوجه تماما كما ينبغى لرجل الشرطة ، وبدت بقع
من العرق الجاف تحت ابطى قميصه ... وما ان اقترب منى حتى
اطبق يده المحمرة الزنخة وسدد ضربة فى صميم بطنى مما لم يكن من
العدل فى شىء ، فتلقى زملاؤه هذا بالابتسام فيما عدا رئيسهم
الضابط الذى لم تفارق وجهه ابتسامة التعب والتبرم .. وكان من
تأثير الضربة اننى استندت الى الحائط المطلى حتى التصق الطلاء
الابيض بملابسى فى محاولتى لالتقاط انفاسى فى ألم وكرب بالغين ،
ووقتها أردت أن اقىء الفطيرة التى كنت قد تناولتها فى مستهل
الامسية ، لكننى لم احتمل ان آقىء على الارض ، وهكذا تماسكت
... وعندما لمحت هذا الشرطى الضخم السمين يستدير مواجها
زملاءه بابتسامة عريضة رضاء عما فعله ، رفعت قدمى اليمنى ، وقبل
ان يحذروه رفسته رفسة قوية فى قصبة الساق ، فصرخ عاليا واخذ
يحجل دائرا على نفسه ...

لكن بعد هذا تداولونى جميعا كل بدوره ، يتقاذفوننى بينهم
مثل كرة صماء ... آه يا اخوانى !.. لقد انهالت لكماتهم اسفل
بطنى وفمى مشفوعة بركل الاقدام ، حتى لم اتمالك ان تقايأت على
الارض ، وان رحت اقول لهم : « آسف يا اخوانى ، لم يكن هذا
لائقا منى !.. آسف !.. آسف !.. » .. لكنهم أعطونى قصاصات
جريدة وجعلونى امسح القىء ، وانثر بعد المسح نشارة الخشب ..
وبعد ذلك قالوا لى متوددين كما لو كنا اصحابا أن اجلس ليدور بيننا
حديث هادىء ...

ثم جاء السيد دلتريد المشرف الاصلاحى وكان مكتبه فى نفس
المبنى وهو بادى التعب والضيق ، فبادرنى قائلا :

— اذن فقد حدث ما كنت اتوقعه يا اليكس يا ولد ؟! ..
يا خسارة !..

ثم التفت الى رجال الشرطة قائلا :

— مساء الخير ايها المفتش ... مساء الخير ايها الرقيب ...
مساء الخير لكم جميعا ... لا بأس ... هذه خاتمة المطاف فيما
يختص بى ... يا الف خسارة !.. كم يبدو هذا الولد فى اشنع
حال !. انظروا الى شكله !.

فقال الضابط بصوت رصين :

— العنف يولد العنف ... لقد قاوم معتقليه الشرعيين !.

فقال دلتويد مرة اخرى :

— هذا خاتمة المطاف فيما يختص بى !.

ونظر الى بعينين باردتين جدا كما لو كنت قد استحلت الى
جماد ولست بشرا مثخنا بالضرب مضعضعا داميا ، ثم قال :

— اظن انه لابد ان أوجد فى المحكمة غدا ...

عندئذ قلت له وانا اقرب الى البكاء :

— لم اكن انا السبب يا سيدى الاخ !.. ان غدر وخيانة
الآخرين هو ما استدرجنى الى هذا يا سيدى !.

فقال الضابط ساخرا :

— يا للكلام المعسول !..

وقال السيد دلتويد ببروده البالغ :

— سوف اتكلم ... سأكون هناك غدا ، فلا تقلق ...

فقال الضابط :

— ان اردت يا سيدى ان تتحفه بشىء من عندك فلن نمانع ...
بالامكان ان نمسك به لك ... لابد انه كان مصدر خيبة امل كبرى
لديك !..

وهنا أقدم السيد دلتويد على شىء لم اتصور قط ان رجلا مثله،
يفترض فيه العمل على اصلاح المنحرفين أن يقدم على مثله ، خصوصا
فى حضور أفراد الشرطة !.. فقد اقترب منى وبصق ... بصق على
وجهى بملء فمه ... ثم مسح فمه المبلل بظهر يده !.. اما أنا فقد
رحت أمسح وجهى مرة وثانية وثالثة بمنديلى الملوث بالدم وانا
اقول :

— شكرا لك يا سيدى !.. شكرا جزيلا يا سيدى !.. هذا
لطف عظيم منك يا سيدى ، شكرا لك !.

ثم خرج السيد دلتويد دون كلمة اخرى ..

واستعد رجال الشرطة لاعداد المحضر المطلوب وتوقيعى عليه ،
فقلت لنفسى : سحقا لكم جميعا !.. اذا كنتم بهذه النذالة وانتم
فى جانب الصلاح ، فكم يسرنى أن أكون فى الجانب الآخر !..

وهكذا قلت لهم بصوت مرتفع :

— لا بأس يا ملاعين !.. خذوا عنى ما تريدون !.. لن الجأ

الى الاستعطاف امامكم والزحف على ركبتى !.. من اين تريدون ان أبدأ يا حيوانات ؟.. من فترتى الاصلاحية ؟.. هاكم اذن كل ما تريدون !..

وهكذا رحت اسرد امامهم كل شيء ، وامامي كاتب الاختزال الرسمي ذلك المخلوق الناحل البائس يدون صفحة بعد صفحة منذ بداية المغامرات الليلية الاخيرة ، من ضرب وتحطيم وسطو واغتصاب ، الى اقتحام بيت العجوز صاحبة القطط المتوائبة .. وقد حرصت على بيان دور اصحابى المدعومين فى كل تلك الافعال ... وما ان انتهى المختزل البائس من تدوين كـل وقائع المحضر حتى بدا اقـرب الى الاعياء ... فقال له الضابط متلطفا :

— حسن يا بنى ... قم وخذ كوبا من الشاى ينعشك ، ثم انسخ لنا كل هذه القاذورات من ثلاث صور بعد ان تسد انفـك بمشبك غسيل !.. وبعد هذا هات المحضر كله الى صديقنا الصغير ليمهره بامضائه الكريم !..

ثم التفت الى قائلا :

— وانت ... بامكانك الآن ان تذهب معهم الى (جناح الزفاف) ذى المياه الجارية وكل وسائل الراحة !..

واختتم بصوته المكدود قائلا لاثنين من رجاله الاشداء :

— خذوه !.

وهكذا اقتادونى بالعنف والركل واللكم الى قسم الزنزانات واودعونى فى واحدة منها تضم عشرة او اثنى عشر من المقبوض عليهم ، اغلبهم من السكارى ... كان بينهم انواع كالحيوانات ... منهم مخلوق متآكل الانف وفمه مفغور مثل جب مظلم ... وآخر ممدد على الارض يغط غطيطا عاليا وفمه يسح لعابا ملتاثا ... وثالث بدا وكأنه تغوط فى بنطلونه ... ثم كان بينهم اثنان راحا ينظـران الى نظرات غريبة ، وعندما حاول احدهما الاقتراب منى اعترضه الثانى لكى يسبقه ، فتماسكا وتضاربا وكان لهما صياح استقدم اثنين من رجال الشرطة انهالا عليهما بعصى غليظة قصيرة حتى ارتدا خافين مقهورين ولزما السكون مكانهما ، وان بدت قطرات الدم تتحدر من فم احدهما ...

وكان فى الزنزانة دكك ذات سطحين ، قائمة على اربعة عمد ، ولكنها كانت مشغولة ... فتسلقت الى سطح احداها وكان بهـا

سكير يغط بصوت عال ، ولعل الشرطة هم الذين طوحوا به عاليا .. فما كان منى الا ان جذبته الى اسفل اذ لم يكن ثقيلا ، فهوى فوق سكير سمين آخر كان على الارض ، ولكنهما افاقا واخذا فى الصراخ وتبادلا الوكز بصورة مؤثرة .. وهكذا تمددت يا اخوانى فوق سطح هذه الدكة الكريهة الرائحة ، وسرعان ما غلبنى الاعياء والضنى واستسلمت لنوم بدا وكأننى انتقلت به الى عالم آخر افضل ... وفى هذا العالم الافضل رأيت يا اخوانى وكأننى فى حفل كبير تتخلله الاشجار والازهار وبه ما يشبه عنزة بوجه رجل يعزف على مزمار ... ثم بزغ امامى كما تبزغ الشمس وجه بتهوفن ذاته ، وسمعت السيمفونية التاسعة تعزف فى مقاطعها الاخيرة ... فما افقت من نومى الرحيم بعد دقيقتين او عشر او عشرين ساعة او ايام او سنوات الا على صوت يوقظنى بعنف ... واذا شرطى اسفل منى بما بدا انه مسافة اميال ينخسنى بعصا مدببة فى طرفها شوكة ويقول لى :

— اصح يا ابنى !.. اصح يا (حليوة) !.. اصح لمواجهة المتاعب !..

— لماذا ؟.. من ؟.. اين ؟.. ماذا جرى ؟! ..

وتلاشى من داخلى عزف النغم العذب ... ثم عاد الشرطى يقول :

— انزل واعرف بنفسك ... هناك اخبار سارة لك يا بنى ..

وهكذا رحت انزل متصلبا موجعا وانا فى نصف يقظـة ... وما لبث هذا الشرطى الذى كانت تفوح منه رائحة الجبن والبصل ان اخذ يدفعنى من الزنزانة القذرة المتجاوبة بالغطيط عبر مماشى وما زالت اصداء السيمفونية السـاحرة مترددة فى وجـدانى ... ووصلنا الى غرفة نظيفة بها آلات كاتبة وزهور فوق المكاتب وقد جلس الضابط الى المكتب الكبير وعلى وجهه ملامح الجد والخطورة مركزا نظرات باردة جدا على وجهى ، فقلت له :

— حسن ، حسن ، حسـن !.. ماذا جرى فى الدنيـا ؟..

فقال لى :

— سأمهلك عشر ثوان فقط لكى تزيح عن وجهك تلك البسمة الغبية ... وبعدها اريد ان تنصت ...

فقلت باسما :

ـ حسن ... ماذا ؟.. الم يكفكم انكم ضربتمونى ضربا مهينا وجئتم بمن يبصق على وجهى واجبرتمونى على الاعتراف بجرائم استغرقت ساعات بطولها ، ثم طوحتم بى بين أحقر المجرمين فى هذه الزنزانة العفنة ؟!.. هل عندكم عذاب جديد لى ايها الملاعين ؟.

فقال بلهجة الجد :

ـ سيكون العذاب منك واليك ... أدعو الله أن يوصلك العذاب الى الجنون !..

وعندئذ ، وقبل أن يفضى الى بما يقصد ، علمت من تلقاء نفسى بما جاء به ... فان المرأة العجوز صاحبة القطط قد انتقلت الى عالم آخر أفضل فى احد مستشفيات المدينة ... والظاهر اننى وجهت اليها ضربة كانت القاضية !.

هكذا حرمت القطط من ربتها الحانية التى كانت تسقيها اللبن !..

وكنت انا القاتل ، ولم اتجاوز الخامسة عشرة بعد !..

القسم الثانى

الفصل الأول

ماذا سيكون اذن ، يا ترى ؟..

اعود الآن الى استئناف سرد قصتى ، يا اخوانى واصدقائى الوحيدين ، وهو الجانب المبكى والمأساوى فى القصة ، بدءا من السجن العمومى ... وقد لا تكون لديكم رغبة فى الاستماع الى هول الصدمة التى جعلت ابى يضرب يديه فى الجدران حتى ادماهما ، وافضت بأمى الى التواء فكيها توجعا وانينا فى تفجعها لما انتهى اليه وحيدها وفلذة كبدها من مصير مشئوم ... ولن افيض كثيرا فى الحديث عما فاه به قاضى الاحالة من تلك الكلمات القاسية فى حق صديقكم ومحدثكم المتواضع ، فى اعقاب ما نالنى قبلها من بصق السيد دلتويد على وجهى واذلال رجال الشرطة لى ... ثم كانت المحاكمة فى المحكمة العليا امام القضاة والمحلفين وما اقترن بها من تلك الاقوال اللاذعة والنعوت الدامغة تفضلوا بها بكل رصانة ووقار ... ثم صراخ أمى عند صدور الحكم بالادانة والسجن لمدة أربع عشرة سنة !..

أواه يا اخوانى !.. وهانذا الآن وقد انصرم عامان منذ اليوم الذى ادخلت فيه الى السجن العمومى تركلنى الاقدام وتعلونى كسوة السجن طبقا لآخر صيحة فى عالم الازياء : بذلة من قطعة واحدة ذات لون بشع ، مزدانة برقم خيط على الصدر فوق موضع القلب الخفاق وعلى الظهر ايضا ، وهكذا لا أروح ولا اغدو الا معروفا برقم ٦٦٥٥٣٢١ ، وليس صاحبكم الصغير اليكس الذى لم يبق لاسمه وجود !..

لم يكن من المجد فى شىء ان احل على مدار عامين فى ذلك الجحر من الجحيم أو (حديقة الحيوان البشرية) اتلقى فيها الضرب والركل على ايدى حراس قساة غلاظ الاكباد واخالط حثالة المجرمين ومنهم عتاة من معتادى الاجرام يتحفزون للانقضاض على فتى غض مثل

راوى هذه القصة لكم !.. ثم كان هناك ذلك الشغل الاجبارى فى ورش السجن لصنع علب الكبريت وما اليها ، وبعدها الدوران الى ما لانهاية فى ساحة السجن فيما يسمونه التمارين الرياضية ، ثم نقاد فى بعض الامسيات كالقطيع للاستماع الى بعض الاساتذة المتحذلقين يحدثوننا احاديث غريبة عن الخنافس او (درب اللبانة) أو عجائب رقائق الثلوج !.. وفى الحق اننى لم اتمالك من الابتسام عند سماعى اسم هذه الرقائق ، فقد ذكرتنى بتلك المناسبة التى لم انسها عندما قمت مع رفاقى السابقين بالاعتداء بالضرب الوحشى ليلا على ذلك المدرس الذى كان خارجا لتوه من مكتبة البلدية متأبطا كتبه المستعارة — حين كان أولئك الرفاق على ولائهم لى وبعدهم عن خيانة عهد الزمالة وكنت انا سعيدا حرا .. وعن أولئك الرفاق فلم أعد أسمع شيئا ، الا عندما زارنى ابى وامى فى السجن وقيل لى ان جورجى قد لقى حتفه .. نعم ياأخوانى .. لقى حتفه واصبح مثل جيفة كلب ميت على قارعة الطريق .. فان جورجى اغرى رفاقه بالسطو على بيت رجل موسر حيث اعتدوا عليه بالضرب واخذ جورجى ينزع الستائر والطنافس وانهمك ديم فى البحث عن التحف والنفائس ، غير أن صاحب البيت هاله ما حدث واستعان بقضيب حديدى مدافعا عن نفسه وماله ، فهرب ديم وبيتر من النافذة ، ولكن جورجى تعثر فى السجادة ، وعندها هوى الرجل على راسه بالقضيب الحديدى ، فكانت هذه نهاية جورجى الخائن !.. وقد أخلى سبيل الرجل بعامل الدفاع عن النفس وهو حق عادل ومشروع ، وهكذا لقى جورجى جزاءه عما كان من خيانته لى ، وهذا من تصاريف القدر ، ولاشك !..

واستأنف القصة فى السجن العمومى فأقول ، ياأخوانى ...

تروروننى فى جناح الكنيسة صباح يوم أحد والقس يلقى موعظته .. لقد أسندوا الى ادارة (الاستيريو) بوضع اسطوانات الموسيقى الكنسية اللائقة للعزف مع الترانيم فى مستهلها ونهايتها وفى منتصفها أيضا .. وكان مكانى قرب موقف الحراس الغلاظ المسلحين بالبنادق ، وكان بوسعى ان ارى السجناء جالسين يستمعون الى الترانيم وهم بملابسهم الشنيعة ، تنبعث منهم تلك الروائح العطنة المقززة التى لا تكون الا من نزلاء السجون .. ولا اجزم ان كانت لى هذه الرائحة بعد أن انخرطت فى زمر المجرمين ، وان كنت لاازال فى مستهل الصبا !. وهكذا كان من الاهمية عندى أن أخرج يا اخوانى من (حديقة

الحيوانات) العفنة هذه بأقرب ما استطيع .. ولسوف ترون وأنتم تتابعون هذه القصة انه لم يمض وقت طويل حتى تحقق لى هذا على نحو معجز يفوق حدود التصور !..

لقد راح القس واعظ السجن يقول تكرارا :

— ترى ماذا سيكون بعد ؟.. هل يستمر الحال على هذا النمط دخولا وخروجا ثم دخولا وخروجا من المؤسسات الاصلاحية الى ما لا نهاية ، وان كان الدخول اكثر من الخروج بالنسبة لمعظمكم ؟. أم أنكم سوف تستمعون الى كلمة الرب وتدركون العقاب الذى ينتظر الخاطئين غير التائبين فى عالم الاخرة ، كما فى هذه الدنيا ؟..

يا لأكثركم من عصبة من الحمقى اذ تبيعون آدميتكم لقاء كل رخيص وتافه — لقاء مغامرات السرقة والعنف ومغريات الحياة السهلة !.. هل يستاهل هذا منكم وامامنا الادلة التى لا نكران لها وجدال فيها بأن جهنم ماثلة وقائمة ؟.. اننى أعرف يا أصدقائى ، وقد نبئت به فى الرؤى الصادقة ، أن ثمة مكانا هو اشد ظلمة من اى سجن ، وأحر لظى من أى نار يوقدها البشر ، فيه يكون لارواح الخاطئين المجرمين وغير التائبين من امثالكم — ولا تسخروا منى ولا تضحكوا لعنكم الله — أقول فيه يصرخون من عذاب أبدى لا يطاق ، وتختنق انوفهم بروائح الادران ، وتحشى أفواههم بجمرات النار المتقدة ، وتشوى جلودهم حتى تتلاشى من الابدان ، وتنصهر أحشاؤهم من هول العذاب الاليم !..

وعند هذا الحد يا اخوانى ، عمد مجرم قرب الصفوف الخلفية الى اطلاق موسيقى الشفاه ، واذا الحراس الغلاظ يندفعون سراعا الى الموضع الذى ظنوا انه مصدر الصوت ، معملين هراواتهم يمينا وشمالا فى السجناء حيثما اتفق ، ثم استخلصوا سجينا مسكينا راعشا بالغ النحول وسحبوه من مكانه وهو يصرخ قائلا :

— لست أنا !.. هو هناك !.. انظروا !..

بيد أن هذا لم يغير من الواقع شيئا .. فقد انهالوا عليه بالضرب المبرح ، ثم جذبوه الى خارج جناح السجن وصراخه يصم الاذان ...

وقال واعظ السجن :

— والان ، انصتوا الى كلمة الرب ..

ثم تناول كتاب الترانيم الضخم واخذ يقلب صفحاته مبللا اصابعه وهو يفعل هذا بشفتيه .. كان رجلا ضخم الجسم شديد

احمرار الوجه ، بيد انه كثير العطف على لصغر سني ولانني الان رحت ابدى اهتماما كبيرا بكتاب الترانيم .. فقد تقرر كجزء من عملية اصلاحى ان اقرأ فى هذا الكتاب ، بل لقد سمح لى أن ادير (استريو) الكنيسة اثناء قراءتى .. وذات يوم قال لى القس وهو يشد على يدى :

— آه يارقم ٦٦٥٥٣٢١ ، فكر فى معاناة القديسين ، وتأمل فى نعيم الاخرة بعد طول المعاناة !..

وفى خلال ذلك كانت تفوح منه رائحة (الاسكوتش) ، وكان يدلف الى مقصورته الصغيرة بين وقت وآخر لكى يتناول المزيد من هذا الشراب ..

هكذا كنت اقرأ فى الكتاب اثناء عزف الاستريو لموسيقى باخ العذبة ثم اغمض عينى واسبح فى عالم الخيال حتى اتصور نفسى وقد لبست رداء الكهنوت !.. ومن هذا ترون يا اخوانى ان وجودى فى السجن العمومى لم يكن مضيعة للوقت ، بل لقد ترامى الخبر الى محافظ السجن ذاته ، فأبدى سروره اذ سمع اننى اصبحت ميالا الى التدين .. وكانت هذه بداية الامل الذى تولد فى نفسى ..

ومهما يكن يا اخوانى فانه بعد انتهاء الوعظ يوم الاحد ذاك وانسحاب السجناء عائدين الى زنزاناتهم فى صخب وجلبة والحراس الغلاظ لا يكفون عن ملاحقتهم بالسباب والركل ، وبعد أن اقفلت الاستيريو فى النهاية — اقترب الواعظ منى وهو ينفث دخان سيجارة كانت فى ملابسه ، ثم ابتدرنى قائلا :

— شكرا لك دائما يارقم ٦٦٥٥٣٢١ .. وما هى الاخبار التى عندك لى اليوم ؟..

والحكاية هى اننى علمت ان هذا الواعظ كان يتطلع الى الترقى فى مراتب كهنوت السجون ، وكان بحاجة الى تزكية قوية من محافظ السجن ، وهكذا كان يسعى الى المحافظ بين حين وآخر خفية ويدلى اليه بأنباء المؤامرات السرية التى يدبرها السجناء ، وكان يستقى الكثير منها عن طريقى !.. والواقع ان الكثير منها كان مختلقا ، وان كان بعضها حقيقيا ، مثال ذلك ما علمناه فى (دوائرنا) عن طريق الدق على مواسير المياه ، من ان المسجون هاريمان الضخم يدبر للهرب من السجن ، اذ كان فى النية ان يفاجىء الحارس وقت النوم ويأخذه على غرة ثم يخرج مرتديا ملابسه .. ثم كانت هناك المحاولة التى

تدبر فى عنبر الاكل لالقاء طعام السجناء البشع على الارض احتجاجا وتمردا ، وهو ما ابلغت الواعظ عنه ايضا .. وقد نقل الواعظ هذا كله الى محافظ السجن وقوبل بالثناء ..

أما الان فقد قلت للواعظ ، وهو مالم يكن صحيحا :

— حسن ياسيدى .. لقد تداول الخبر عن طريق المواسير بأن كمية من الكوكايين قد وصلت بطرق ملتوية ، وان احدى الزنزانات فى عنبره ستكون مركز التوزيع ..

لقد اخترعت هذه القصة فيما كنت اخترع من غيرها ، لكن الواعظ بدا شديد الامتنان قائلا :

— جميل ، جميل ، جميل !.. سأنقل هذا الى فخامته !..

و (فخامته) هو محافظ السجن طبعا .. وقد قلت له :

— سيدى ، اننى اديت واجبى ، أليس كذلك ..؟ لقد تعبت فى هذا كثيرا ، الا ترى هذا ياسيدى ؟..

فقال الواعظ :

— اظن عموما يارقم ٦٦٥٥٣٢١ انك فعلت هذا .. فى تقديرى انك اسديت مساعدة تذكر واظهرت رغبة حقيقية فى الصلاح .. واذا استمررت فى هذا النهج فسوف تفوز بالافراج عنك دون مشكلة على الاطلاق ..

فقلت له :

— لكن ياسيدى ، ماذا هناك بخصوص هذا النظام الجديد الذى يتحدثون عنه ؟.. ماذا عن تلك المعاملة الجديدة التى تؤدى الى الخروج من السجن فى فترة قليلة وتضمن الا يعود السجين اليه ابدا ؟..

فأجاب فى حذر وتحفظ :

— آه !.. اين سمعت هذا ؟.. من اخبرك بمثل هذه الأمور ؟..

فقلت :

— هذه الاشياء تتردد وتصل الى الاسماع ياسيدى .. هناك حارسان قالا كلاما ، ولا يستطيع الانسان الا أن يسمع ما يقال .. وبعدها يلتقط احدهم قصاصة جريدة فى ورش السجن وينشر فى الجريدة كل شىء عن الموضوع .. ما رايك ياسيدى فى أن تتفضل وتخبرنى بالموضوع ، اذا تجاسرت وطلبت منك هذا ؟..

فبدا انه يفكر فى هذا الاقتراح وهو ينفث دخان سيجارته ، متدبرا ماذا يمكنه أن يقول لى عن هذا الموضوع الذى طرقته أمامه .

وما لبث أن قال وهو لايزال على عذره :

— أفهم انك تشير الى (طريقة لودوفيكو) ؟..

فقلت له :

— أنا لا اعرف ماذا يسمونها ياسيدى .. كل ما اعرفه هو انها تهيىء لك الخروج من السجن سريعا وتضمن عدم عودتك اليه ..

فأجاب وهو يرمقنى بنظراته فى شيء من القطوب :

— هو كما تقول يارقم ٦٦٥٥٣٢١ .. وبالطبع فان المشروع هو فى المرحلة التجريبية فقط فى الوقت الراهن .. وهـو مشروع بسيط ولكنه ناجح جدا ..

فقلت للواعظ :

— لكنه يجرى استخدامه هنا الان ، اليس كذلك ياسيدى ؟ هناك تلك المبانى البيضاء الجديدة قرب السور الجنوبى ياسيدى .. اننا راقبنا تلك المبانى وهى فى دور البناء ياسيدى ، ونحن نؤدى التمرينات الرياضية ..

فقال الواعظ :

— ان المبانى لم تستخدم بعد ، ليس فى هذا السجن يا رقم ٦٦٥٥٣٢١ .. وفخامة المحافظ نفسه لديه شكوك قوية حول الموضوع .. ولابد ان أعترف بأننى اشاطره شكوكه .. والمسألة هى فيما اذا كان يمكن ان تؤدى هذه الطريقة حقا الى جعل الانسان صالحا .. ان الصلاح ينبع من داخل الذات يارقم ٦٦٥٥٣٢١ .. الصلاح شيء مرهون بالاختيار .. واذا كان الانسان لا يستطيع الاختيار ، فانه لا يبقى انسانا ..

وكان يمكن ان يتوسع فى الحديث عن هذه المسألة ، لولا اننا سمعنا اصوات المجموعة الاخيرة من السجناء وهى تهبط فى السلالم الحديدية لتلقى دورها فى الوعظ .. وهكذا اردف قائلا :

— سيكون لنا حديث فى الموضوع فى وقت آخر .. والان يحسن ان تقوم بمهمتك ..

وهكذا انتقلت الى موضع (الاستيريو) ووضعت معزوفة باخ الرعوية فى الوقت الذى اقبلت فيه صفوف أولئك المجرمين بجلبتهم المدوية كأنهم افواج من النسانيس ، وسرعان ما انشأ القس يلقى موعظته مرة اخرى ..

كانت هذه الدورات الدينية تتكرر اربع مرات ايام الاحاد ، ولما انتهت هذه الدورة لم أجد عند الواعظ مايقوله لى من جديد من (طريقة لودوفيكو) تلك ، مهما يكن من كنهها !..

وعندما فرغت من مهمتى مع (الاستيريو) اختصنى ببعض كلمات الشكر ، وبعدها اعادونى الى زنزانتى فى العنبر رقم ٦ ، وياله من مباءة مكتظة عطنة الى ابعد الحدود !.. ولم يكن الحارس الذى تلقانى مخلوقا فظا مثل زملائه ، فلم يضربنى ولم يركلنى عندما فتح لى الباب ، وانما قال لى :

— على الرحب يابنى فى موطنك !..

وهكذا عدت الى رفقة اصحابى الجدد .. وكانوا جميعا من عتاة المجرمين ، لكنهم والحمد لله لم يكونوا من الشواذ .. كان منهم المدعو (زوفار) فوق دكته ، وهو مخلوق اسمر شديد النحول لم يكن يكف عن الكلام والثرثرة ، لهذا لم يتكلف احد عناء الاستماع اليه .. وكان منهم (وال) الذى لم يكن له سوى عين واحدة ، وكان لا يكف عن قضم اظافر قدميه .. ثم كان منهم أيضـا (اليهودى السمين) ، وكان مفرط البدانة والعرق يظل اكثر الوقت ممددا فوق دكته كالاموات .. والى جانب هؤلاء كان هناك (جوجون) و (الطبيب) .. كان (جوجون) مخلوقا خبيثا ماكرا وكان تخصصه فى الاعتداء على النساء .. أما (الطبيب) فقد كان يدعى القدرة على الشفاء من الامراض التناسلية ولكنه كان يعطى حقنا من المياه ، كما انه تسبب فى قتل امراتين بعد أن وعدهما كذبا بتخليصهما من الحمل .. كانوا جميعا عصبة مريعة حقا ، ولم أستطب قط وجودى بينهم .. وكان مبعث الالم والحزن يااخوانى فوق ذلك هو أن هذه الزنزانة كانت معدة لثلاثة نزلاء ، ولكننا كنا الان ستة ، محتبسين بداخلها محشورين غارقين .. وكان ذلك هو الحال فى كافة السجون الاخرى فى تلك الايام، وهو عار ليس بعده عار ، اذ لا يملك احد ان يجد متسـعا لكى يمد اطرافه .. والادهى من ذلك انه فى يوم الاحد هذا اقحم علينا نزيل جديد .. والاغرب من كل شيء هو انه كان البادىء بالصراخ والشكوى حتى قبل أن تتاح لنا الفرصة لرؤية الموقف .. فقد حاول ان يهز القضبان صائحا :

— اننى اطالب بحقوقى المشروعة !.. هذه الزنزانة متخمة لا موضع فيها لقدم !..

ولكن الحارس اقبل ليقول له ان عليه ان يرضى بالواقع ويشارك اى واحد يسمح له بالمشاركة فى دكته ، والا فلن يكون امامه سوى الارض يفترشها !.. واضاف الحارس قائلا :

— وسيكون هذا أسوأ .. كلكم عالم بأسره من الاجرام ولا تستحقون غير هذا !..

الفصـــل الثـانـــى

لا باس !..

لقد كان اقحام هذا النزيل الجديد علينـا هو فى الواقع بداية خروجى من السجن العتيد .. ذلك انه كان مخلوقا مشاكسا الى ابعد الحدود ، منطويا على فساد الطوية وخبث النوايا ، الى حـد ان المتاعب بدات منذ ذلك اليوم ذاته .. ثم انه كان كثير التفاخر ، ممعنا فى التطاول علينا والسخرية منا بكلام طنان صخاب .. قال لنا انه هو الوحيد المحترم دوننا جميعا فى هذه الحديقة كلها (يعنى حديقة الحيوانات !) ، زاعما انه فعل كيت وكيت وقتل عشرة من رجال الشرطة بخبطة واحدة من يده ، الى آخر هذا الهراء ..

ثم بعد هذا يا اخوانى ركز اهتمامه على شخصى ، باعتبـارى أصغر الموجودين سنا ، قائلا انه لكونى أصغرهم جميعا فعلى ان اكون انا الذى ينام على الارض وليس هو .. غير أن الجميع انضموا الى جانبى صائحين :

ــ دعه وشأنه ياحقير !..

فما لبث أن راح يشكو حظه قائلا انه لا احد يحبه !..

وفى نفس تلك الليلة صحوت من نومى لكى أجد هـذا المجرم البشع ممددا الى جانبى فوق الدكة ، التى كانت أسـفل اثنتين فوقها وضيقة جدا ، وهو يتفوه بكلمات فاحشة ويتمسـح بى .. عندئذ ثارت ثائرتى ولطمته لطمة شديدة وان كنت لا أبصر فى الظلام اذ لم يكن ثمة سوى النور الاحمر الحسير خارج الزنزانة .. لكننى أيقنت أنه هو ذلك المخلوق الوضيع ، وبعد ان تعالت الجلبة واضيىء النور رايت الدم يقطر من فمه القبيح اثر اللطمة العنيفة التى اصابته من يدى ذات الاظافر الحادة ..

وما حدث بعد ذلك هو ان رفاقى فى الزنزانة هبوا من نومهم وانضموا الى الاشتباك قائمين بنصيبهم من الضرب فى تلك العتمة ، حتى تعالى الصياح والضجيج واستيقظ نزلاء العنبر كله واخـذوا

يدقون على الحوائط بكيزانهم وكأنهم خالوا ان تمردا شاملا يوشك أن يبدأ فى السجن ..

هكذا ياخوانى اضيئت كل الانوار وهرول الحراس بالقمصان والبنطلونات ملوحين بهراواتهم الغليظة .. وفى الضوء رأينا وجوه بعضنا البعض محمرة وأوداجنا منتفخة .. وايدينا متطاوحة متوعدة وصراخنا مقترنا بالسباب واللعنات !.. واذ ذاك تقدمت بالشكوى مما كان ، فقال الحراس جميعا بلا استثناء ان محدثكم المتواضـع يا اخوانى هو المتسبب فى نشوب المعركة اذ ليس فى وجهى اى جروح ولا خدوش فى حين ان هذا المسجون البشع ينزف الدم من وجهـه من حيث انهالت عليه يدى المخلبية باللطمات !.. لقد استفزنى هـذا الكلام اى استفزاز حتى قلت اننى لن انام ليلة واحدة فى تلك الزنزانة اذا كانت سلطات السجن سوف تسمح لهذا المجرم المنحرف الشنيع ان يحاول الانقضاض على وانا فى وضع لا يمكننى من الدفاع عن نفسى اثناء النوم ..

فرد الحراس بقولهم لى :

ــ انتظر حتى الصباح .. هل تريد فخامتك غرفة خاصـة بحمام وتليفزيون ؟! .. حسن اذن .. كل هذا سوف ينظر فيه فى الصباح .. اما فى الوقت الحالى أيها الرفيق الصغير فاقنع بالنوم على مرتبتك المحشوة بأجود القش ولا تدعنا نسمع اى ضوضاء من اى انسان .. مفهوم ، مفهوم ، مفهوم ؟..

وبعدها قفلوا راجعين وهم ينذرون ويتوعدون الجميع ، وعلى الاثر اطفئت الانوار .. فقلت اننى سأبقى طول ليلى صاحيا ، ووجهت كلامى الى ذلك المجرم البشع قائلا :

ــ ادخل الى فراشى اذا رغبت !.. اننى لن اطيقه بعد ان لوثته ببدنك القذر ورائحتك النتنة !.. غير ان الباقين تدخلوا ، وقال اليهودى السمين وكان لايزال غارقا بعد ابتلاع قطعة مخدر كنا نتداولها فى الظلام :

ــ لن نرضى بهذا يا اخوانى !.. لا تخضعوا لهذا الحيوان !..

فراح ذلك المجرم الجعجاع يقول :

ــ اخرسوا !.. ليبلع كل منكم لسانه !..

وعندئذ تحفز اليهودى السمين لتوجيه ضربة اليه .. فقال (الدكتور) :

ــ اسمعوا ياسادة !.. نحن لانريد مشاكل !..

لكن المجرم الوافد كان ينوى اثارة المشـــاكل فعلا ، اذ كان مغرورا ، متعاليا على قبول المشاركة مع ستة سجناء فى زنزانة واحدة واضطراره الى النوم على الارض لولا اننى أبديت استعدادى للتنازل عن الدكة له .. وحاول ان يتمادى فى المشاكسة .. وهنـــا قال (جوجون) :

— اذا كنا لا نستطيع أن نأخذ قسطا من النوم ، فلنأخـــذ قسطا من التعليم !.. من الخير ان نلقن صديقنا الجديد هـــذا درسا !.

فرد المجرم الجعجاع قائلا :

— اننى أدوسكم تحت قدمى !..

وهكذا بدات المعركة ، ولكنها بدات بطريقة هادئة متخافتة ، دون ان يرفع أحد منا صوته عاليا .. وقد صرخ المجرم الوافد مرة واحدة اول الامر ، لكن (وال) عاجله بلطمة على فمه ، فى حين شده اليهودى السمين الى قضبان باب الزنزانة حتى يمكننا ان نبصره فى الضوء الاحمر المعتم المنسوب من الخارج ، وكل ما بدر منـــه كان تأوهات خافتة .. والواقع انه لم يكن موفور القوة ، وبدا اضعف ما يكون وهو يحاول أن يرد الضربات التى أخذت تتوالى عليه ، ولعله كان يعوض هذا بالجعجعة والمفاخرة بنفسه .. وعلى اى حال فاننى عندما رايت الدم القانى يتساقط منه فى الضوء الاحمر ، سرت بين جوانحى حمية العنف السالف ، وقلت لهم :

— اتركوه لى يا اخوانى !.. دعوه لى الان !..

وقال اليهودى السمين محبذا :

— نعم ، نعم ياأولاد !.. هذا هو العدل !.. اعطه الدرس يا اليكس !..

وهكذا تخلوا عنه ، وسرعان ما هجمت عليه الاحقه باللكمات فى كل مكان وانا أتواثب من حوله ، ثم عاجلته بحركة (مقص) هوى على اثرها الى الارض .. واخيرا رفسته رفسة شديدة على راسه حتى انبعث أنينه محتبسا قبلما غاب عن الوعى .. وقال (الدكتور) :

— حسن جدا .. اظن ان هذا الدرس يكفيه .. دعوه يحلم بانه سيكون ولدا صالحا فى المستقبل !..

وهكذا عدنا جميعا كل الى دكته لكى ننام ، لفرط ما كنا نشعر به من التعب والجهد ..

وقد حلمت فى نومى يا اخوانى وكاننى فرد فى فرقة اوركسترا

كبيرة تضم مئات ومئات من العازفين الاقوياء ، وكان قائد الاوركسترا خليطا من بتهوفن وهاندل ، أصم واعمى معا ، تلوح عليـــه امارات الاعياء من الدنيا كلها .. وكنت عضوا فى فريق آلات النفخ ، ولكن ما كنت أعزف عليه كان أقرب الى بوق من اللحم البشرى ينتفخ منبثقا من بدنى فى وسط البطن ، وعندما كنت أنفخ كنت أضحك عاليا لان العزف كان كأنه يدغدغنى ، وما لبث بتهوفن ـ هاندل أن انتابه الغيظ والضيق ، ثم اقترب منى وصرخ عاليا فى اذنى ، وعندها صحوت من النوم والعرق يتفصد من جسدى .. طبعا كان الصراخ هو جرس السجن يتردد ايقاظا للنيام .. كان الوقت صباح يوم شتاء ، وشعرت باننى لا أكاد افتح جفونى الملتصقة من النوم فى الضوء الكهربائى الذى غمر (حديقة الحيوانات) .. ولما نظرت الى تحت وقع نظرى على السجين الجديد ممددا على الارض داميا ومرضوضا ولا يزال غائبا عن الوعى .. وهنا تذكرت ماحدث فى الليلة الماضية ، ممـــا جعلنى ابتسم يسيرا ..

ولكن عندما نزلت من الفراش وحركت السجين بقدمى الحافية شعرت بجسم متصلب بارد ، وهكذا اتجهت الى فراش (الدكتور) وهززته ، اذ كان يستيقظ بطيئا فى الصباح .. غير انه ترك دكته مسرعا هذه المرة ، وحذا الاخرون حذوه ، فيما عدا (وال) الذى كان ينام كجثة .. وقال (الدكتور) :

— يالسوء الحظ !.. لابد انه اصيب بنوبة قلبية !..

ثم أردف وهو ينظر الينا جميعا :

— فى الحقيقة ماكان يجب أن تجابهوه بمثل هذه الكيفية .. كانت هذه خطوة تدل على سوء التفكير والتصرف !..

فقال (جوجون) :

— خل عنك هذا يا (دكتور) !.. انت نفسك لم تتأخر عن توجيه لكمة غادرة ..

وعندئذ واجهنى اليهودى السمين قائلا :

— يا اليكس !.. انت ايضا كنت شديد العنف !.. ان الرفسة التى وجهتها اليه كانت قاتلة !..

اذ ذاك تملكنى الغضب ورحت اقول :

— من الذى بدأ بالضرب ؟.. انا لم اتدخل الا فى الاخر !..

واستدرت الى (جوجون) وقلت له :

ـ كانت الفكرة كلها من عندياتك !..

وقاطعني لحظتها غطيط (وال) ، فقلت :

ـ أيقظوا هذا الحيوان !.. انه هو الذى كان ينهال على فم القتيل باللكمات بينما كان اليهودى السمين محاصرا له عند الباب ..

فقال (الدكتور) :

ـ لا احد ينكر ان كل واحد منا اشترك فى توجيه ضربة خفيفة اليه .. لكى نعطيه درسا على حد قول القائل .. لكن الواضـــح هو انك انت ياعزيزى الصغير ، بما فيك من فتوة الشباب واستهتاره ، قد أهويت عليه بالضربة القاضية !..

فقلت :

ـ ياخونة !.. ياخونة وكذابين !..

فقد بدا لى انه ما أشبه الليلة بالبارحة ، عنـــدما تخلى عنى رفاقى المزعومون منذ عامين لكى اقع فى أيدى رجال الشرطة .. فهكذا لا ثقة فى الدنيا كلها يا اخوانى ، كما تجلى هذا لعينى تماما !.. واتجه (جوجون) وأيقظ (وال) ، فكان (وال) مبادرا الى الحلف بأن محدثكم المتواضع هو الذى أهوى بالضربات الوحشية !.. ولما قدم الحراس ثم كبيرهم ، ثم محافظ السجن ذاته ، راح رفاق زنزانتى هؤلاء يتسابقون فى سرد مختلف الروايات عما فعلته بهذا المجـــرم الصريع الذى تمددت جثته المخضبة بالدماء على الارض ..

كان يوما غريبا مشهودا ياإخوانى .. فقد نقلت جثة القتيل ، وصدر الامر باحتجاز كافة المسجونين فى زنزاناتهم تحت القفل حتى صدور اوامر أخرى ، ولم يوزع شىء من التموين على احـــد ، حتى ولا كوز شاى .. كل ماحدث هو اننا قبعنا جميعا فى أماكننا ، وكان الحراس يسيرون جيئة وذهابا ، وهم يصيحون بين وقت وآخر ان (اخرسوا) أو (اقفلوا افواهكم) كلما سمعوا ولو همسا من احدى الزنزانات ..

وحوالى الساعة الحادية عشرة صباحا حدث هرج ومرج خارج الزنزانة ، ثم وقعت انظارنا على محافظ الســجن ورئيس الحراس وعدد من الشخصيات الهامة يسيرون مسرعين يتحادثون باهتمـــام متجهين الى نهاية المشى ، ثم سمعناهم يعودون أدراجهم بخطى بطيئة هذه المرة ، وكان بوسعنا أن نسمع صوت محافظ السجن وهو وجل بدين عارق اشقر الشعر يردد كلمات مثل : « لكن يا سيدى ؟ » ...

وبعد ذلك توقف الجميع عند زنزانتنا وفتح رئيس الحرس بابها .. وكان فى الامكان معرفة صاحب الشخصية الهامة بين القادمين ، وكان طويل القامة أزرق العينين فاخر الثياب ، اذ كان يرتدى اجمل بدلة رأيتها فى حياتى ... كانت تمثل قمة (الموضـــــة) .. وقد تنازل وشملنا نحن المسجونين بنظرة عامة ، قائلا بصـــوت عذب ولهجة راقية :

ـ ان الحكومة لايمكنها أن تحصر اهتمامها بعد الان فى نظريات عقابية للاجرام عفا عليها الزمن .. كدس المجرمين جنبا لجنب معا ، ثم انظر ماذا يحدث .. النتيجة هى أفعال جنائية مركزة ، وجرائم فى صميم العقوبة .. ثم لن يمضى وقت طويل حتى نحتاج الى كافة مواقع السجون لاستيعاب المذنبين السياسيين » ..

اننى ياإخوانى لم أفهم هذا الكلام بتاتا ، لكن مهما يكن فانه لم يكن يوجه كلامه الى شخصيا ..

وما لبث ان مضى يقول :

ـ ان المجرمين العاديين من امثال هذا الجمع الكريه (وهو يعنينى ياآخوانى ورفاقى هؤلاء المجرمين الخونة) يمكن التعامل معهم على أساس علاجى صرف ... نقتل النزوع الاجرامى فى نفوسهم ، هذا كل شىء .. انجاز شامل فى ظرف عام .. ان العقوبة لا تعنى شيئا عندهم ، وهو ما يمكنهم رؤيته بسهولة .. انهم لينعمون بالعقوبة المزعومة .. انهم يبدأون بقتل بعضهم البعض ..

واتجهت عيناه الزرقاوان الى بنظرة صارمة وهو يقول هذا ، وهكذا قلت له بجراة :

ـ مع الاحترام ياسيدى ، اننى أعارضك بكل قوة فيما قلته !.. أنا لست من المجرمين العاديين ياسيدى ، ولست كريها !.. ان الاخرين يمكن أن يكونوا كريهين ، ولكننى لست كذلك !..

وهنا صعد الدم الى وجه رئيس الحراس حتى احتقن وصاح بى قائلا :

ـ اقفل فمك ياهذا !.. الا تعرف مع من تتكلم ؟!..

فقال صاحب الشخصية الكبيرة :

ـ لا بأس .. لا بأس ...

ثم التفت الى محافظ السجن وقال :

— يمكنك استعماله رائدا فى التجربة .. هو فتى ، وجرىء ، وشرير ... ان (برودسكى) سوف يتعامل معه من باكر ، ولك ان تستعد وتراقب برودسكى .. ان العملية سوف تنفذ بنجاح ، فلا تقلق بشأنها .. ان هذا الحدث الشقى سوف يتحول الى كينونة اخرى لا تكاد تعرفها ..

وحقا يا اخوانى ، لقد كانت هـذه الكلمـات الصارمة بداية حريتى !..

الفصـــل الثـالـــث

فى نفس هذا المساء قادنى الحراس الفلاظ بكل ترفق الى مكتب محافظ السجن او قدس الاقداس .. وقد نظر الى المحافظ فى اعياء وقال لى :

— لا اظن انك تعرف من كان ذلك الضيف صباح اليوم ، هل تعرف يارقم ٦٦٥٥٣٢١ ؟..

وقبيل ان ينتظرنى لكى اقول لا عاجلنى قائلا :

— لم يكن صاحب تلك الشخصية اقل من وزير الداخليـة ، وزير الداخلية الجديد ، وهو ما يسمونه (المكنسة الجديدة) .. لا بأس اذن .. ان تلك النظريات الجديدة المضحكة قد جاءت اخيرا ، والاوامر هى الاوامر ، وان كنت اقول لك فيما بينى وبينك اننى لا اوافق عليها .. اننى بكل تأكيد لا اقرها .. العين بالعين هى شريعتى .. اذا لطمك احد ترد له اللطمة ، اليس كذلك ؟.. فلماذا اذن لا تعمل الدولة عندما تضربونها بوحشية يامعشر المجرمين العتاة على أن ترد لكم الضربة بمثلها او أشد منها ؟.. لكن النظرية الجديدة تقول (لا) .. النظرية الجديدة هى ان نعمل على تحويل الفاسد الى صالح .. وكل هذا يبدو لى ظلما فاحشا !..

فقلت له محاولا أن أبدو فى مظهر الاحترام والمجاراة :

— سيدى ..

وهنا صرخ رئيس الحراس الذى كان واقفا خلف مقعد محافظ السجن محمرا منتفشا :

— اقفل فمك القذر ياحشرة !..

— فقال المحافظ الذى ظل على اعيائه :

— لا بأس .. لا بأس .. انت يارقم ٦٦٥٥٣٢١ ، لقد تقرر اصلاحك .. غدا سوف تذهب الى هذا الرجل برودسكى .. واعتقد انه سوف يمكنك الخروج من السجن رسميا بعد فترة اسـبوعين تقريبا .. بعد فترة أسبوعين تقريبا سوف تعود من جديد طليقا فى الدنيا الواسعة ، ولا تصبح بعد مجرد رقم ..

وخالجت لهجته نبرة تهكم وهو يقول :
— اظن أن الامل المرتقب سوف يسرك ؟..
لم اقل شيئا .. وهكذا صرخ رئيس الحراس قائلا :
— رد ، أيها الخنزير الصغير القذر ، عندما يوجه المحـافظ سؤالا اليك !..
وهكذا رحت اقول :
— آه ، نعم ياسيدى !.. اشكرك شكرا جزيلا ياسيدى !.. انني بذلت افضل ماعندى هنا ، حقا وصدقا .. انني شديد الامتنان لكافة الاطراف المعنية ..
فأوشك المحافظ ان يتنهد وهو يقول :
— لا لزوم لهذا .. ليس هذا من قبيل المكافأة .. بل انه ابعد مايكون عن المكافأة .. والان ، هنا استمارة ستوقع عليها بامضائك .. وهى تنص على رغبتك فى ابدال المدة الباقية من العقوبة المحكوم بهـا عليك بقبول ماهو مدون هنا طبقا للتعبير المضحك باسم (العـلاج الاصلاحى) .. فهل توقع الاستمارة ؟..
فقلت :
— بكل تأكيد ياسيدى ، سأوقع !.. وشكرى لا حدود له !..
وهكذا اعطونى قلم حبر ، فوقعت باسمى بخط جميـــــل منتشر ..
فقال المحافظ :
— لا بأس .. هذا كل شيء ، فيما اظن ..
فقال رئيس الحراس :
— ان قسيس السجن يود ان تكون له كلمة معه ياسيدى ..
وهكذا اقتادونى فى الردهة الى جناح الكنيسة الصـــغيرة ، وكانوا ينخسوننى طول الطريق على ظهرى وراسى ، ولكن بكيفيـة روتينية .. وعند وصولنا الى مقصورة القس تركونى ادخل ، فكان القس جالسا الى مكتبه تفوح من حوله رائحة بنية للسجائر الفاخرة و (الاسكوتش) ، وقال لى :
— آه يارقم ٦٦٥٥٣٢١ يا صغير .. اجلس !..
وخاطب الحراس قائلا :
— انتظروا فى الخارج ..
فامتثلوا ... ثم راح يقول لى بلهجة يغلب عليها الجد الكبير :
— شيء واحد أريدك أن تفهمه ياولد ، وهو أن هـذه المسألة

لا صلة لها بى شخصيا .. لو انها كانت متصلة بالمصلحة الشخصية لقابلتها بالاعتراض ، لكنها ليست كذلك .. هناك اعتبار وضـعى المهنى ، وهناك اعتبار ضعف صوتى اذا قورن بعناصر أشد قوة فى الدولة .. هل ترانى أوضحت لك الموضوع ؟..
انه لم يوضح شيئا يا اخوانى ، ولكننى اومات براسى مبديا انه أوضح الموضوع فعلا ، فاستطرد يقول :

— هناك اعتبارات اخلاقية عويصة مرتبطة بالموضوع .. لقد قدر ان يجعلوا منك شخصا صالحا يارقم ٦٦٥٥٣٢١ .. وابدا لن تهيأ لك الرغبة لارتكاب اعمال العنف او الاعتداء بأية كيفية مهما كانت على أمن الدولة واستتباب الامن عموما .. ورجائى أن تضع هذا نصب عينيك وأن تستوعبه تماما .. واملى ان تفهم هـذا كل الفهم وأن يكون واضحا فى ذهنك كل الوضوح ..
فقلت له :
— آه !.. انه لشيء جميل ياسيدى أن يكون الانسان صالحا ..
قلتها وانا أبتسم فى دخيلتى ياإخوانى ..
فقال لى :
— قد لايكون شيئا محببا أن يكون الانســان صالحا يا رقم ٦٦٥٥٣٢١ ، قد يكون شيئا مريعا أن يكون الانســان صالحا .. وعندما اقول لك هذا فاننى مدرك كيف أبدو فى هذا شديد المناقضـة لنفسى .. وانا أعرف اننى سامضى ليالى كثيرة مؤرقا مسهدا فى صدد هذا .. ماذا يريد الرب ؟.. هل يريد الصلاح ، أو اختيار الصلاح ؟.. وهل الانسان الذى يختار الفساد ربما كان فى ناحية ما افضل من الانسان الذى يكون الصلاح مفروضا عليه فرضا ؟! .. هذه اسئلة عميقة وصعبة يارقم ٦٦٥٥٣٢١ .. لكن كل ما اريد أن اقوله لك الان هو هذا : اذا أنت رجعت بنظرك فى المستقبل فى اى وقت الى هذه الفترة وتذكرتنى — انا ادنى واكثر خدام الرب اتضاعا — فرجائى ودعائى الا تسيء الظن بى فى ضميرك وقلبك ، ظنا بأننى متورط بأى شكل من الاشكال فيما يوشك الان ان يحل بك او يحدث لك .. والان ، على ذكر الدعاء ، فاننى أدرك بحزن انه لا جدوى من الدعاء من اجلك .. وهذا شيءمريع مريع جدا يتدبره الانســان .. ومع ذلك ، وعلى نحو ما ، فان فى اختيار المرء الحرمان من القـدرة على اختيار أخلاقى ، يدل فى معنى من المعانى على اختيارك الصلاح فعلا ..

هذا ، سوف اذهب اليه فى تفكيرى .. وليشملنا الرب بعونه جميعا يارقم ٦٦٥٥٣٢١ ..

وعندئذ اخذ يبكى ، بيد اننى لم احفل بهذا كثيرا ، وان تبسمت فى دخيلتى ، اذ كان واضحا انه تعاطى الويسكى كثيرا .. وما لبث الآن ان اخرج زجاجة من الدولاب وبدا يصب قدرا كبيرا منها فى كأس يعلوها كثير من الشحم .. وقد تجـــرع الشراب كله ثم عاد يقول :

ــ كل شىء قد يمضى بخير ، فمن يدرى ؟.. الرب يدبر الامور بكيفية لا نعلم سرها المغيب عنا ..

ثم بدأ يترنم بترنيمة فى صوت مرتفع .. وبعدها فتح الباب ودخل الحراس لكى يعيدونى الى زنزانتى الزنخة ، بيد أن القس المسن مضى فى ترنمه ..

لا بأس .. وفى صباح اليوم التالى كتب على ان اودع السجن العتيد ، وقد خامرنى شىء من الاكتئاب كما يحدث للانسان دائمـا اذا اريد له ان يفارق مكانا اعتاد عليه .. لكننى لم ابتعــــد كثيرا ياإخوانى ، وانما اقتادونى بالنخس والدفع الى المبنى الابيض الجديد المجاور للساحة التى كنا نمارس فيها التمرينات الرياضية .. كانت هذه البناية حديثة جدا لا تكاد تدلف اليها حتى يتملكك نوع مــن القشعريرة ، اذ كانت ردهتها العارية باردة وتفوح فيها روائح كروائح المستشفيات ، وكان الشخص الذى سلمنى الحارس اليه يرتدى معطفا ابيض كما لو كان يعمل فى مستشفى ، وقد وقع ايصالا باستلامى ، وقال له أحد الحراس الذين رافقونى :

ــ راقب هذا المخلوق ياسيدى .. انه كان مخلوقا شرسا لعينا ، وسوف يظل هكذا على الرغم من انه كان محل عطف قسيس السجن ويقرأ الكتاب المقدس ..

غير أن هذا الشخص الذى كان ازرق العينين قابل هـــذا التعريف بالابتسام ، ورد قائلا :

ــ آه .. اننا لا نتوقع اية متاعب يا أصـــدقائى .. اليس كذلك ؟

وافتر فمه الواسع ذو الاسنان الناصعة البياض عن ابتســامة عريضة حتى لقد انست اليه من فورى .. ومهما يكن فقد سلمنى بدوره الى شخص آخر ادنى منه مرتبة ولكنه كان لطيفا مثله . فقادنى الى غرفة نوم بيضاء نظيفة جدا بها ستائر ومصباح بجانب الفراش ،

وكان سرير وحيد كله لمحدثكم المتواضع ، حتى لقد تبسمت فى دخيلتى لما ارى ، وبدا لى اننى انسان محظوظ جدا .. ثم قيل لى أن اخلع ملابس السجن البشعة ، واعطيت لى بيجاما جميلة خضراء اللون يا اخوانى بدت كأنها قمة (الموضة) بين ملابس النوم !.. بل أعطيت فوق هذا (روبا) بديعا دافئا و (شبشبا) انيقا أضع فيه قدمى الحافيتين ، حتى لم أتمالك ان قلت لنفسى :

ــ لا بأس يا اليكس ياولدى ، يامن كنت رقم ٦٦٥٥٣٢١ !.. لقد ابتسم لك الحظ بلا شك ولا مراء !.. ولسوف تستمتع حقـا بوجودك هنا !..

وبعد ان أعطونى قهوة ممتازة وبعض الجرائد والمجلات القديمة لكى اتصفحها وانا اشرب هانئا ، جاءنى الشخص الاول وهو الذى وقع باستلامى وقال لى متطلعا :

ــ ها انت ذا هنا .. اسمى دكتور برانوم ، وانا مساعد الدكتور برودسكى .. وبعد اذنك سأقوم بالفحص الطبى المعتاد ..

وأخرج من جيبه الايمن السماعة المألوفة وتابع كلامه قائلا :

ــ علينا أن نتأكد من تمام لياقتك البدنية ، اليس كذلك ؟.. نعم ، لابد من هذا ..

وهكذا تمددت امامه رافعا صدر البيجاما حيث اخــذ يقوم بفحصه هنا وهناك ، وبعد أن فرغ من صدرى قلت له :

ــ ماذا هناك بالضبط ياسيدى ؟ ما الذى ستفعلونه ؟..

فأجاب الدكتور برانوم وهو يجيل سماعته الباردة فوق ظهرى من أعلاه الى أسفله :

ــ المسألة فى منتهى البساطة فعلا .. كل ماهناك اننا سوف نريك بعض الافلام ..

ــ أفلام ؟! ..

لم أصدق سمعى حقا ياإخوانى كما لكم ان تدركوا هــذا ، ومضيت اقول :

ــ تعنى ان المسألة ستكون مثل الذهاب الى السينما ؟! ..

فقال الدكتور برانوم :

ــ انها ستكون أفلاما من نوع خاص .. أفلاما خاصة جدا .. وستكون (الجلسة) الاولى بعد ظهر اليوم ..

وأضاف وهو ينهض عنى :

ــ نعم .. انك تبدو صبيا فى تمام اللياقة .. ربما كنت دون

مستوى التفذية الواجبة الى حد ما ، وهذا راجع الى طعام السجن..
والان البس قميص البيجاما ..
وأردف وهو يجلس على حافة الفراش :
– بعد كل وجبة سنعطيك حقنة فى الذراع ، وفى هذا مايساعد
حالتك ..
والحق اننى شعرت بكل الامتنان لذلك الدكتور برانوم اللطيف،
وقلت له :
– أهى فيتامينات ياسيدى ؟..
فاجاب وهو يبتسم فى مودة ورقة :
– شىء كهذا .. مجرد رشقة فى الذراع بعد كل وجبة ..
ثم خرج على الاثر ..
بعدها تمددت فى الفراش متأملا كأننى فى السماء ، ثم اخذت
اقرا فى بعض المجلات التى جاءونى بها : الرياضة العالمية ، سينى
(وهى مجلة سينمائية) ، الاهداف (مجلة كروية) ..
وبعد فترة عدت الى الاستلقاء فى الفراش وأغمضت عينى افكر
فى متعة الحياة التى سأعيشها من جديد ، فأجد عملاً سهلا أمارسه
فى النهار ، بعد أن كبرت الان بالنسبة للمدرسة ، ثم أشكل عصـبة
جديدة للنشاط الليلى ، واول ما افعله فى هذا الشأن هو البحث عن
ديم وبيتر ، ان لم يكونا وقعا فى قبضة الشرطة .. فى هذه المرحلة
المقبلة سألتزم الحرص لكيلا يقبض على .. لاشك انهم الان يمنحوننى
فرصة اخرى ، انا الذى اقترفت القتل وكل مايتصل بهذه الافعال ،
ولن يكون من الصواب أن يقبض على من جديد ، بعد أن يتجشموا
كل هذا العناء ليرونى الافلام التى ستجعل منى شخصا صالحا !..
وافقت من تأملاتى تلك مبتسما عندما جاءونى بطعام الفداء فى
صحفة .. وكان الذى جاء به هو الشخص الذى قادنى الى غرفة
النوم هذه عندما جئت الى المبنى الجديد ، وقد قال لى :
– شىء لطيف ان يرى الانسان شخصا سعيدا ..

وكان الطعام فى الواقع مشهيا .. قطع من (الروزبيف) الساخن
محفوفة بالبطاطس والخرشوف ، الى جانب (الايس كريم) وقدح
شاى ساخن .. بل كان مع الطعام ايضا سيجارة لكى ادخنهـا مع
علبة ثقاب بها عود واحد .. هذه اذن يا اخوانى هى الحياة المتعة ..
وبعد حوالى نصف ساعة امضيتهامستلقيا فى خدر كالنوم ، اقبلت

ممرضة شابة جميلة ذات نهدين بارزين (وأنا لم أشهد مثلهما منذ
عامين) ومعها صحفة وحقنة .. فقلت لها :
– آه !.. الفيتامينات المنتظرة !..
ومصمصت شفتى أمامها ولكنها لم تهتم .. وكل ما فعلته هو
انها دست ابرة الحقنة فى ذراعى اليسرى ، وسرعان ما انسابت مادة
الفيتامين .. وعلى الاثر خرجت وهى تطقطق بقدميها ذات الكعب
العالى .. ثم جاء الشخص السالف والظاهر أنه ممرض وكان يقود
كرسيا بعجلات .. فأدهشنى هذا حتى قلت :
– ماهى الحكاية يا أخ ؟.. بامكانى ان امشى بالتأكيد الى اى
مكان تريدون أن اذهب اليه !..
لكنه رد بقوله :
– الافضل أن أدفعك الى هناك ..
وفعلا يا اخوانى ، ما ان نزلت من الفراش حتى الفيتنى أشعر
بضعف يسير .. لاشك ان السبب هو سوء التغذية كما قال الدكتور
بارنوم بطعام السجن الشنيع !.. لكن من المؤكد ان حقنة الفيتامينات
بعد كل وجبة كفيلة بتصحيح كل شىء .. ما من شك فى هذا ، كما
فكرت وقدرت !..

الفصـــــل الرابــــع

ان ما اقتادوني اليه ، يا اخواني ، لم يكن شبيها باى سينما
رايتها فى حياتى !.. صحيح أن أحد الحوائط كان مغطى كله بستار
فضى ، وفى مواجهته حائط به فتحات مربعة لآلة العرض ، كما كان
يوجد جهاز (استيريو) له مكبرات للصوت موزعة فى أرجاء المكان ..
هذا فضلا عن اجهزة قياس صغيرة متعددة وضعت فوق منصة لدى
أحد الحوائط الاخرى ، وفى وسط الارضية وبمواجهة الستار قام
مايشبه كرسى طبيب الاسنان امتدت منه كل أنواع الاسلاك ، وقد
مررونى بصعوبة بين الاسلاك بعد انزالى من المقعد المتحرك الى الكرسى
الطبى بمساعدة ممرض آخر فى رداء أبيض .. ولاحظت وجود شبه
حائط من الزجاج الحبيبى أسفل فتحات العرض ، رايت من خلاله
اخيلة رجال يتحركون وخيل الى اننى سمعت بعضهم يسعل مرارا
هناك .. لكن الذى استرعى اهتمامى بعد ذلك شعورى بضعف متزايد،
وان عزوت هذا الى الانتقال من حالة سوء التغذية فى السجن الى التغذية
الصحية والفيتامينات التى حقنونى بها ..

وقال الممرض الذى قادنى فى الكرسى المتحرك :

— حسن .. الان ساتركك .. ان العرض سيبدأ حالما يصل
الدكتور برودسكى .. ارجو ان تتمتع به ..

وان اردتم الحق يا اخوانى قلت اننى لم اشـــعر بانى اريد
مشاهدة اى عرض سينمائى هذا المساء ، اذ لم يكن لى مزاج لهذا ،
وكنت أفضل كثيرا رقادا هانئا هادئا فى الفراش ، مع خلوة لطيفـة
بنفسى .. فقد كنت احس بخدر يكاد يشل أطرافى ..

وما حدث بعد ذلك هو ان أحد لابسى المعاطف البيضاء شـد
راسى بسيور الى مسند للرأس وهو يتغنى بأغنية شائعة ، فقلت
لـه :

— لم هذا ؟..

فقطع اغنيته برهة واجاب بأن ذلك من اجل تثبيت راسى وجعل
نظرى موجها الى الستار الفضى .. فقلت له :

— لكننى اريد ان انظر الى الستار فعلا .. انهم احضرونى الى
هنا لمشاهدة الافلام ، ولابد ان اشاهد الافلام !..

وهنا قال واحد من لابسى المعاطف البيضاء باسما (وكانوا
ثلاثة ، أحدهم امراة كانت جالسة الى اجهزة القياس تدير بعض
المقابض والازرار) :

— لا يمكن ان تتاكد من شيء !.. لايمكن أن تتأكد من شيء !..
ثق بنا ياصديقى .. هكذا أفضل ..

وعندئذ وجدتهم يربطون يدى بالســيور الى ذراعى الكرسى
ويثبتون قدمى فى القاعدة .. لقد بدأ هذا غريبا فى نظرى ، ولكننى
تركتهم يمضون فيما يريدون بى .. فاذا كان يراد ان اغدو طليق
السراح من جديد فى مدى أسبوعين ، فلا مفر ان أتجاوز عن الكثير
فى الوقت الحالى يا اخوانى !.. ومع ذلك كان ثمة شيء واحد لم
أسترح اليه ، وذلك عندما وضعوا مايشبه المشابك على بشرة جبينى
الى حد أن شعرت بجفنى العلويين يجذبان الى أعلى حتى لم أعـد
أستطيع اغماض عينى رغم كل محـــاولاتى .. فقلت وانا أغتصب
الابتسام :

— لابد انه سيكون احد افلام الرعب مادمتم مهتمين هكـذا
بمشاهدتى له !..

فرد احد لابسى المعاطف البيضاء باسما :

— صدقت ياصاحبى .. هو عرض حقيقى للرعب والفظائع !..

ثم البسونى بعد ذلك مايشبه طاقية مثبتة على الرأس تتدلى
منها أسلاك كثيرة ، والصقوا ببطنى شبه لبادة ماصة وأخرى فوق
موضع القلب ، ولمحت بعد ذلك اسلاكا ممتدة منهما ..

وبعد هذا كله سمعت صوت باب يفتح ، مقترنا بمـا ينبيء
بقدوم شخصية هامة جدا ، اذ وقف لابسو المعاطف البيضـاء وقفة
الانتباه والاستعداد .. واخيرا وقع نظرى على الدكتور برودسكى
هذا !.. كان رجلا مهيبا موفور البدانة ، يكسو هامته شعر مجعد ،
وتعلو انفه نظارة شديدة السمك ، وكان مرتديا بدلة بالغة الاناقة ..
وكان فى صحبته الدكتور برانوم الذى رأيته يفيض ابتساما وكأنما
يريد بث الثقة فى نفسى ..

وما لبث الدكتور برودسكى ان قال فى لهجة من اعتاد الادارة
والتوجيه :

— كلّ شيء على استعداد ؟..

فسمعت أصواتا من بعيد ومن قريب تجيب بالايجاب ، وعلى الاثر انبعث طنين هادىء كأنما اديرت ازرار ومفاتيح .. ثم انطفات الانوار ، واذا محدثكم وصديقكم المتواضع يجلس وحيدا فى الظلام تتوزعه المخاوف ولا يستطيع ان يحرك او يغمض عينيه .. وبعدها يا أصدقائى بدأ العرض السينمائى تسبقه موسـيقى عنيفة مملوءة نشازا من خلال مكبرات الصوت .. ثم لاحت الصورة على الستار ، لكن لم يسبقها عنوان ولا تعليقات .. كان ما ابصرته شارعا مثل اى شارع فى اية مدينة ، وكان الوقت ليلا والمصابيح مضـاءة وكـانت الصورة جيدة جدا وخلوا من النقاط والبقع التى يراها المشاهد لاحد الافلام القذرة فى بيت بأحد الشوارع الخلفية .. وكانت الموسيقى تدوى طول الوقت عنيفة وكأنها تمهد لشيء مشئوم .. ثم ظهر رجل يسير فى الشارع بادى الاحترام ، وفجأة هجم عليه شابان بملابس (الموضة) فى تلك الفترة (وهى البنطلون الضيق ولكن بربطة عنق عادية) ، واخذا يناوشانه ، واقترن ذلك بصرخاته وتأوهاته التى كانت تسمع بوضوح الى جانب لهث الشابين المعتدين .. واســتحالت المناوشة الى ضربات ولكمات عنيفة وتمزيق لملابسه ثم ركل جسـمه المعرى بالاقدام وتفصد الدم القانى منه ممتزجا بوحل الارض ، وعلى الاثر فر المعتديان ركضا .. وفى ختام المشهد بدا راس المعتدى عليه والدم ينزف منه غزيرا ، وكأنك ترى مشهدا فى عالم الواقع ..

وأثناء مشاهدتى لهذا الفيلم بدأت اشـعر اننى لست على مايرام ، وعزوت هذا الى سوء التغذية وعدم استعداد معدتى لتقبل الغذاء الدسم والفيتامينات التى اعطيت لى .. بيد اننى حاولت أن انسى هذا وان أركز على الفيلم التالى الذى عرض مباشرة دون ادنى توقف يا اخوانى !..

ان هذا الفيلم الثانى بدا وكأنه وثب على الستار وثبا ، وكان يمثل امراة شابة يعتدى عليها شبان واحدا بعد الاخر وهى تصرخ بصورة مؤثرة من خلال الموسيقى الصاخبـة المنبعثة من مكبرات الصوت .. وما ان فرغ آخرهم حتى بدأت اشعر بالغثيان وبآلام شملتنى تماما وبميل الى القيء وبكرب عظيم ياأخوانى وانا مصلوب فى هذا الكرسى !..

وعندما انتهى عرض هذا الفيلم الثانى استطعت ان اســمع صوت الدكتور برودسكى هذا وهو يقول من ناحيـة لوحة الازرار والمفاتيح :

— رد الفعل من درجة ١٢ اره ٦ .. مبشر !.. مبشر !..

وبعد هذا انتقلنا مباشرة الى فيلم ثالث ، وكان فى هذه المرة يمثل وجه انسان ــ وجه ممتقع شديد الامتقاع فى وضع ثابت وتتداوله عمليات بشعة مختلفة .. لقد شعرت بالعرق يسيل فى جسدى بسبب الم فى امعائى وعطش فظيع وضربات شديدة فى راسى ، وبدا لى أننى لو لم اكن استطيع اطباق عينى ، وحتى لو حاولت تحريك عينى جانبا لما استطعت ان أحيد عن خط نار الرؤية لهذه الصورة .. وهكذا كنت مقسورا على الاستمرار فى مشاهدة مايجرى وسماع أبشع الصرخات الصادرة عن ذلك الوجه .. وكنت أعلم ان شيئا كهذا لا يمكن ان يكون حقيقيا ، بيد ان هذا لم يغير من الامر شيئا .. ولقد شـعرت بأن جوفى يموج ولكن لم استطع أن اتقيأ وانا ابصر أول الامر مدية تخرج عينا من محجرها ثم تنحدر فتشق الخد شقا ثم تعمل فى الوجه كله تمزيقا علوا وسفلا ، بينما كان الدم الاحمر القانى يتفجر فى عدسات الكاميرا .. ثم امتدت تنزع الاسنان بزردية واحدة واحدة ، فكان الصراخ والدم يملأ القلب رعبا .. وبعد ذلك كله سمعت صـوت الدكتور برودسكى هذا يقول مبتهجا :

— ممتاز !.. ممتاز !.. ممتاز !..

وكان الفيلم التالى يمثل امراة عجوزا فى دكان لها تركل ركلا ، بالاقدام على ايدى عصبة من الشبان الذين مالبثوا ان حطموا الدكان ثم اضرموا النار فيه .. وكنت تستطيع رؤية تلك المراة المنكودة وهى تحاول الزحف من براثن اللهب وهى تصرخ صراخا مدويا ، بيد ان ساقيها التى كسرها الشبان من كثرة الرفس منعتها من الحركة .. وهكذا احاطت بها السنة اللهب المستعر ، وكنت تسـتطيع رؤية وجهها الهالع وقسماته تستعطف وتبتهل من خلال اللهيب المضطرم ثم يختفى بين اطوائه ، وكنت تستطيع سماع اهول صرخات النزع والعذاب التى تنفطر لها القلوب ويمكن أن يعبر عنها صوت بشرى .. وهكذا شعرت هذه المرة انه لابد ان اتقيأ ، فصرخت قائلا :

— أريد أن اتقيأ !.. ارجوكم ان تدعونى اتقيأ !.. ارجوكم احضار شيء لكى اتقيأ فيه !..

بيد أن الدكتور برودسكى هذا رد قائلا :

— هذا تخيل فقط .. ليس بك مايدعو الى القلق .. الفيلم التالى جاهز !..

لعله كان يقصد المزاح بعبارته تلك ، فقد سمعت صـوت

ضحكة صدرت فى الظلام .. وعلى الاثر اجبرت على مشاهدة أفظع
فيلم عن التعذيب فى حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ .. فقد وقع نظرى على
جنود يصلبون الى جذوع الشجر بالمسامير والنار توقد من تحتهم ،
واذا خصياتهم تقطع قطعا ، واذا راس احدهم تجتز بالسـيف ،
واذا الراس يتدحرج على الارض ومازالت الحيـــاة بادية فى الفم
والعينين ، واذا جسد الجندى ذاته يدور على نفسه قبل ان يخر
على الارض والدم يتدفق من عنقه مثل نافورة ــ وفى خلال ذلك كله
لم تنقطع ضحكات الجنود المنتصرين !.. ان الالام المبرحـة التى
شعرت بها الان فى بطنى وراسى والعطش المشتد كانت فى الحق مروعة
.. وهكذا رحت اصرخ بهذه الكلمات :

ــ اوقفوا الفيلم !.. ارجوكم ارجوكم اوقفوه !..
لا يمكن أن احتمل اكثر من هذا !..

وعندئذ سمعت صوت الدكتور برودسكى هذا يقول :

ــ نوقف الفيلم ؟ قلت نوقف الفيلم ؟ عجبا ! اننا لم نكـــد
نبدأ !..

وضحك هو والاخرون ضحكا رنانا !..

الفصـــل الخامـــس

لست اود ان اصف ، يا اخوانى ، تلك الفظائع الاخرى التى أجبرت على مشاهدتها عصر ذلك اليوم .. لقد بدا لى ان عقول الدكتور برودسكى والدكتور برانوم وغيرهما من لابسى المعـــاطف البيضاء ــ ولا انسى تلك المراة الجالسة الى اجهزة القيـــاس تدير الازرار والمقابض ــ بدا لى ان عقولهم جميعا لابد ان تكون اســوأ واحط من عقول نظرائهم فى السجن العمومى ذاته !.. ذلك لاننى لم يخطر ببالى ان يستطيع احد ان يفكر فى عمل افلام كالتى اكرهت على مشاهدتها وانا مقيد من قمة رأسى الى اخمص قدمى فى ذلك الكرسى وعيناى مشدودتان على سعتهما !.. وكل ما استطعته هو أن أصرخ فيهم لوقف العرض صراخا متواصلا غطى على أصوات العنف وصوت الموسيقى المصاحبة لها .. ولك ان تتصور كم تنفست الصـعداء عندما انتهى عرض الفيلم الاخير وقال الدكتور برودسكى هذا بصوت ناعس ملول :

ــ اظن ان هذا يكفى لليوم الاول ، الا ترى هـــذا يا دكتور برانوم ؟..

عند ذلك اضيئت الانوار وراسى يدق دقا عنيفا كآلة ضـخمة تولد الالم وحلقى متيبس شديد الجفاف ، وبى ميل كبير لكى اقىء كل طعام احتوته معدتى ..

وقال الدكتور برودسكى مرة أخرى :

ــ لا بأس .. خذوه الى فراشه من جديد ..

ثم اذا هو يربت على كتفى قائلا :

ــ بديع !.. بديع !.. هذه بداية مبشرة جدا !..

ذلك ووجهه كله ينضح بالابتسام ، ثم تمطى خارجا يتبعــه الدكتور برانوم ، وان كان الدكتور برانوم قد اختصنى بابتســامة ودية وعطوف الى أبعد حد وكأنه لا صلة له بكل هذا ولا ضلع له فيه وانما هو مكره مغلوب على امره مثلى !..

ومهما يكن فانهم حرروا جسدى من المقعد ورفعوا المشـابك

التى كانت تشد جفونى حتى تهيأ لى أن افتح واغمض عينى من
جديد ، وقد اغمضتهما فعلا يا اخوانى لفرط شعورى بالالم والدق
فى راسى ، وبعدها حملونى الى المقعد المتحرك واعادونى الى غرفة
نومى الحبيبة ، وراح الممرض الذى ادار المقعد يردد أغنيـة شائعة
حتى قلت له بحدة :

— اسكت يا هذا !..

لكنه لم يعد أن ابتسم ورد على بقوله « لا تهتم يا صاحبى » ،
ثم استمر فى الغناء بصوت أعلا !..

هكذا اعادونى الى الفراش وأنا لا ازال أشعر بالاعياء ، وان كنت
لم استطع النوم ، ولكن بدا لى أننى لا البث ان أتحسن عما قريب ..
ثم جىء لى بشاى دافىء منعش مع لبن كثير ، وبعد ان شربت
كفايتى بدا لى أن ذلك الكابوس الفظيع غدا فى أطواء الماضى وانتهى
وولى ...

واخيرا جاء الدكتور برانوم متهلل الاسارير وقال باسما :
— حسن .. فى تقديرى انه يتعين أن تشعر بانك على ما يرام
من جديد .. أليس كذلك ؟..

ثم جلس على حافة الفراش وهو يفيض ابتســـاما ، وأردف
قائلا :

— ان الدكتور برودسكى مسرور منك .. فقد تجاوبت بصورة
ايجابية .. وغدا بالطبع ستكون هناك جلستان ، صباحية ومسائية
.. ولابد أن أتصور انك سوف تشعر بالاعياء فى نهاية اليوم .. لكن
لابد لنا ان نشتد عليك ، اذ لابد من علاجك وشفائك ..

فقلت له :

— تعنى انه لابد من الاستمرار فى ذلك ؟.. تعنى انه لابد ان
اشاهد تلك ــ آه !.. كلا !.. كانت شيئا مريعا ، فظيعا !..

فقال الدكتور برانوم باسما :

— بالطبع فظيعة !.. ان العنف شىء فظيع جدا .. وهذا هو
ما تتعلمه الان .. ان جسدك يتعلمه ..

فقلت :

— لكن .. انا لا افهم .. انا لا افهم كيف يكون الشـــعور
بالغثيان كالذى شعرت به .. لم يسبق لى أبدا أن شعرت بهذا ..
كنت دائما اشعر بالعكس .. اقصد أننى كنت وانا افعل هـــذا او
أراقب حدوثه لا أشعر بذلك .. وانا لا افهم كيف ، ولماذا ، وما هو..

فراح الدكتور برانوم يقول بلهجة رصينة :

— ان الحياة شىء عجيب ورائع جدا .. عن عمليات الحياة ،
من تفاعلات الكيان البشرى ــ من يستطيع ان يفهم تمام الفهم هــذه
المعجزات ؟.. ان الدكتور برودسكى رجل فريد .. ان ماهو حادث
لك الان هو ما كان يجب أن يحدث لاى كيان بشرى ، طبيعى ، ومعافى
يتدبر تفاعيل قوى الشر ، ومعقبات افعال الدمار .. والان فانه يجرى
تحويلك الى كائن سوى ، صحيح ، معافى ..

فقلت :

— هذا ما لن يحدث معى ، وما لا افهمه باى حال !.. ان
ما تفعلونه معى هو جعلى أشعر باعتلال شديد ، شديد !..

فقال الدكتور برانوم وما زالت الابتسامة الودود تعلو شفتيه :

— وهل تشعر الان بانك عليل سقيم ؟.. ان شربك الشاى ،
والراحة ، وتبادلك حديثا هادئا مع صديق فى هذا من المؤكد انك
لا تشعر باى شىء سوى انك بخير ..؟.

لقد رحت أتلمس الاحساس باى ألم او سقم فى راسى وجسدى
بحذر واستشفاف ، لكن شعرت حقا وصدقا يا اخوانى أننى على
ما يرام ، بل شعرت حتى بأننى اريد طعام العشاء !.. ثم قلت :

— لا أستطيع ان أفهم .. لابد انكم تفعلون بى شـــيئا لكى
تجعلونى اشعر بالاعتلال !..

وشفمت هذا بتقطيب كمن يتأمل ويتدبر ..

فقال الدكتور برانوم :

— انك شعرت بالاعتلال بعد ظهر هذا اليوم لانك كنت تتحسن
وتتعافى .. اننا عندما نكون أصحاء معافين فاننا نستجيب لوجود
ما هو مكروه بالشعور بالخوف والغثيان .. كل ماهناك هو أنك
تتماثل للصحة والسواء .. ولسوف تكون أوفر صحة وسواء فى
مثل هذه الفترة غدا ..

قال هذا ثم ربت على ساقى وانصرف .. وتركنى أحاول ان
افهم هذا اللغز العجيب بقدر مايسعفنى الفهم .. وما بدا لى هو
أن تلك الاسلاك وغيرها مما ثبتوه على جسدى ربما كانت هى التى
جعلتنى اشعر بالاعتلال ، وان كل ذلك ما هو الا خدعة وتلاعب فى
الواقع !.. وكنت لاازال أتدبر هذا اللغز وأفكر فيما اذا كان ينبغى
أن أرفض غدا شدى الى ذلك المقعد وأبدأ عملية عنف معهم لان لى
حقوقى ــ عندما دخل شخص آخر بادى الوجاهة والابتسام وقال

لى انه هو مايسمونه (بضابط الافراج) ، وكان يحمل معه اوراقا كثيرة ، وخاطبنى قائلا :

ـ اين تنوى أن تذهب عندما تخرج من هنا ؟..

فى الحق أننى لم افكر فى شىء من هذا بتاتا ، وبرقت أمامى الان فكرة أننى ، سأنال حريتى عاجلا ، ورأيت أن هذا سيتحقق فعلا اذا انا جاريتهم فى كل مايطلبون ولم الجأ الى اى شىء من العنف أو الصراخ أو الرفض وما الى ذلك .. وهكذا قلت له ردا على سؤاله :

ـ آه !.. سأذهب الى بيتى .. الى (بى) و (مى) ..

ـ الى ماذا ؟..

لم يفهم لغة (نادسات) تلك ، وهكذا فسرت له :

ـ ... الى والدى فى مسكننا العزيز ..

فقال :

ـ فهمت ... ومنذ متى كانت زيارة والديك لك ؟..

فأجبت قائلا :

ـ منذ شهر .. او حوالى هذا .. انهم أوقفوا (يوم الزيارة) لفترة لان احد المسجونين حاول تهريب مادة ناسفة عبر الاسلاك بواسطة صديقته .. وهى خدعة حقيرة لمن هم ابرياء ، وكأنما كان يراد عقابهم هم ايضا !.. ولهذا مضى قرابة شهر منذ آخر زيارة ..

فقال الرجل :

ـ مفهوم ... وهل ابلغ والديك بأمر نقلك الى هنا والافراج عنك قريبا ؟..

كان لكلمة (الافراج) رنين بديع مفرح ، وقد اجبت قائلا :

ـ كلا .. انها ستكون مفاجأة لطيفة لهما ، اليس كذلك ؟.. اذ ادخل عليهما من الباب واقول لهما : « هانذا عدت حرا طليقا مرة اخرى ! » .. نعم .. هذا شىء رائع فعلا !..

فقال ضابط الافراج :

ـ صحيح .. سنكتفى بهذا ، مادام لك مقر للاقامة .. والان بقيت مسالة ايجاد عمل لك ، اليس كذلك ؟

وارانى قائمة طويلة بالاعمال التى يمكن ان التحق بها ، غير اننى فكرت ، ورأيت ان الوقت لايزال أمامى لهذا الفرض .. المطلوب أولا هو اجازة لطيفة .. بامكانى القيام (بعملية) من عمليات الماضى حالما اخرج لكى املأ جيوبى بمال وفير ، ولكن يتعين على ان التزم منتهى الحذر ، وان اتم العملية بمفردى تماما .. فلن تكون لى بعد

الان ثقة بأولئك الرفاق المزعومين .. وهكذا قلت لذلك الرجل ان نؤجل مسالة العمل بعض الوقت ويمكن ان نتداول فيها فيما بعد .. فلم يزد على قوله : صح ، صح ، صح !.. ثم تأهب للانصراف ...

غير انه فعل شيئا يدل على الغرابة الشديدة ، فقد تضاحك برهة ثم قال لى :

ـ هل تود ان تلطمنى على وجهى قبل ان اذهب ؟..

لا اظن اننى سمعت هذا جيدا ، ولهذا قلت له :

ـ ابه ؟! ..

فتضاحك مرة أخرى وقال :

ـ هل تود ان تلطمنى على وجهى قبل ان اذهب ؟..

قطبت وجهى لهذا الكلام وقد زادت دهشتى وحيرتى ، وقلت :

ـ ولماذا ؟..

فأجاب قائلا :

ـ آه .. لمجرد ان ارى كيف تتقدم حالتك ..

قال هذا وادنى وجهه منى وقد شاعت فى وجهه ابتسامة عريضة .. وهكذا ضممت قبضتى ووجهت بها لطمة الى وجهه ، بيد انه ازاغ وجهه بسرعة وهو لايزال باسما ، وهوت قبضتى فى الهواء !..

ياللعجب العجاب ، ويالفرابة هذا الذى حدث !.. ولم اتمالك ان قطبت وجهى حين انصرف والابتسامة تغمر وجهه ..

وعلى الاثر شعرت يااخوانى باعتلال حقيقى وغثيان مرة اخرى كما حدث لى فى فترة بعد الظهر ، ولكن مدى دقيقتين او نحوهما .. ثم زال عنى هذا سريعا ، وعندما احضروا لى طعام العشاء وشعرت بشهية طيبة واقبلت على نهش الدجاجة المشوية .. لكن كان من المضحك أن يطلب ذلك الرجل أن الطمه على وجهه ، وكان من الغريب ان اشعر بالاعتلال كما حدث لى !..

لكن كان الابعث على الضحك والغرابة هو ماحدث لى أثناء النوم هذه الليلة .. فقد انتابنى كابوس ، وكان يدور كما يمكنك ان تتوقع، حول تلك الافلام التى شاهدتها عصرا .. ان الحلم أو الكابوس هو فى الواقع اشبه بفيلم يدور فى راسك ، فيما عدا انه وكأنك تمشى فى ثناياه وتكون جزءا منه .. وهذا ماحدث لى .. كان الكابوس يمثل لقطات من الفيلم الذى أروه لى قرب نهاية الجلسة ، عن فتيان يعتدون على فتاة شابة كانت تصرخ من خلال دمائها القانية

وقد مزقت ملابسها شر ممزق .. وكنت فى قلب هذا المشهد الفاجر
أضحك واتزعم هذه الزمرة مرتديا آخر (موضة) فى زى فتيـــان
(النادسات) .. وعند نهاية هذا العدوان شعرت بما يشبه الشلل
والرغبة فى القيء ، بينما ذهب الباقون يضحكون منى .. وبعدهما
أخذت اشق طريقى الى اليقظة وانا ملتاث بدمى الذى كان ينسكب
ويجرى غزيرا ، ثم الفيتنى فى النهاية فى فراشى فى هذه الغرفة !..
لقد أردت أن اتقيأ ، وهكذا نزلت من الفراش وانا ارتعد بشدة لكى
انتقل الى دورة المياه فى الممشى ، ولكن ، وياللعجب ياإخوانى ، كان
الباب مغلقا .. وعندما عدت وجدت النافذة مشبكة بالقضبان ..
وهكذا لم يكن امامى سبيل للهرب من كل هذا .. وبعد فترة شعرت
انني لا اريد الان ان اتقيأ .. واخيرا غلبنى النوم ، ولم اعد احلم
مرة اخرى ..

الفصـــل الســـادس

— اوقفوا هذا !.. اوقفوا هذا !.. اوقفوا هذا !.. كفوا
عن العرض ياأولاد الحرام ، فلن اقوى على الاحتمـــال اكثر من
هـذا !..

بهذا رحت اصرخ .. وكان ذلك فى اليوم التالى ياإخوانى ، وقد
رحت ابذل اقصى جهدى صباحا ومساء لمجاراتهم فيما يفعلون بى
وجلست مبتسما متعاونا فى كرسى العذاب وهم يعرضون لقطات من
افلام العنف على الشاشة وعيناى مشدودتان الى اعلا ومفتوحتان
على سعتهما لكى اشهد كل مايدور ، وقد شمر جســدى ويداى
وقدماى فى المقعد بلا مهرب ولا فكاك !.. وإن ماجعلونى اشاهده
الان لم يكن فى الحق شيئا كان يمكن ان اعده بالغ الســوء فى الماضى ،
ولم يكن اكثر من ثلاثة او اربعة فتيان يحطمون دكانا ويملأون جيوبهم
بالنقود ثم يضربون صاحبته التى تحاول الهرب والدماء تســيل
منها .. لكن الدق العنيف المتواصل فى راسى ، والميل الى القىء ،
والعطش الشديد فى فمى ، والتيبس المؤلم فى حلقى — كان كل اولئك
اسوأ مما كان بالامس ..

هكذا رحت اصرخ :

— اواه !.. كفاية !.. ليس هذا عدلا ياظلمة !..

وحاولت أن اتملص من الكرسى ، غير أن هذا لم يكن ممكنا
وكأنما سمرت فيه وغدوت جزءا منه !..

ثم هتف الدكتور برودسكى هذا :

— درجة اولى !.. انت تتقدم بصورة طيبة فى الواقع !..
فيلم واحد فقط ، ثم نفرغ منك !..

ثم عرض فيلم آخر عن حرب ١٩٣٩ — ٤٥ مرة أخرى .. وكان
من الالمان ، وقد بدىء بشعارات النسور الالمانية وعلم النازى ذى
الصليب المعقوف الذى يشغف تلاميذ المدارس برسمه .. ظهر ضباط
المان يمشون متعالين متغطرسين فى شوارع امتلأت بالاتربة وحفر

القنابل والمبانى المدمرة .. ومن بعدهم ظهر اناس يعدمون رميا
بالرصاص امام حوائط تنفيذا لاوامر الضباط .. ثم تبدو جثث
عارية ملقاة فى الاوحال وكانت اشبه باضلاع مجردة وسيقان منحولة
بيضاء ، واعقب ذلك مشهد اناس يجرون جرا وهم يضربون ويصرخون
وان غطى صوت الموسيقى على أصواتهم .. وقد لاحظت بين الالم
والغثيان ياخوانى ان الموسيقى التى كان لها دوى قاصف هى موسيقى
بتهوفن ، او بالاحرى الحركات الاخيرة من السيمفونية الخامسة ،
وهكذا لم اتمالك ان صرخت فيهم :

— توقفوا !.. توقفوا ياكلاب !.. هذه جريمة !.. جريمة
قذرة لا تغتفر !..

انهم لم يتوقفوا على الاثر ، اذ بقيت دقيقة او اثنتان على نهاية
الفيلم — وكانت مشاهد اناس يضربون ودماؤهم تسيل ، ومزيد من
عمليات الاعدام رميا بالرصاص ، ثم راية النازى وكلمة (النهاية) ..
ولكن عندما اضيئت الانوار الفيت الدكتور برودسكى هذا
وكذلك الدكتور برانوم واقفين امامى ، ثم قال الدكتور برودسكى :

— ماهذا الكلام الذى قلته عن (جريمة) ؟..

فقلت وانا فى شدة الاعياء والاعتلال :

— أعنى استخدام موسيقى بتهوفن بهذه الكيفية .. انه لم
يفعل اذى لاى انسان .. بتهوفن لم يفعل غير وضع الموسيقى !..

ولم ألبث أن غالبنى القىء ، فأحضروا لى وعاء على شكل
كلية .. واخيرا قال الدكتور برودسكى متأملا :

— موسيقى ؟.. اذن فأنت مشغوف بالموسيقى !.. انا
شخصيا لا أعرف شيئا عنها .. كل ما اعرفه هو انها مفيدة فى
ترقية العواطف .. حسن .. حسن .. ما رايك فى هذا يابرانوم ؟..

فأجاب الدكتور برانوم :

— هذا شىء لا حيلة فيه .. كل انسان يقتل الشىء الذى
يحبه ، كما قال احد الشعراء .. ولعل هنا العنصر العقابى .. ينبغى
للحكومة أن تسر بهذا ..

اما انا فقلت :

— أعطونى ما اشرب ، بحق الله !..

فأصدر الدكتور برودسكى امره قائلا :

— فكوه .. وهاتوا له دورقا بالماء المثلج ..

وهكذا أسرع المرضون ، وبعد قليل كنت اعب الماء عبا ،
وشعرت كأننى كنت فى السماء ياأخوانى !..

وقال الدكتور برودسكى :

— يبدو انك فتى موفور الذكاء .. ويبدو أيضا انك لست بغير
ذوق وحس مرهف .. وكل ماهنالك انك اكتسبت ظاهرة العنف ،
أليس كذلك ؟.. العنف والسرقة ، والسرقة هى ظاهرة من ظواهر
العنف ..

اننى ياأخوانى لم افهم كلمة واحدة من هذا .. كنت لاأزال
اشعر بالاعتلال والغثيان ، وان طرأ على الان شىء من التحسن ..
لكنه كان يوما عصيبا مروعا ..

وعاد الدكتور برودسكى يقول :

— والان ، مارأيك فيما يفعل بك ؟.. قل لى ، ماذا تظن اننا
فاعلون بك ؟..

فقلت :

— انكم تعملون على جعلى أشعر بالاعتلال .. اننى أشعر
بالاعتلال والسقم عندما انظر الى هذه الافلام القذرة المنحرفة التى
تعرضونها .. لكن ليست الافلام حقا هى التى تفعل بى هذا .. اننى
اشعر أنكم لو توقفتم عن عرض هذه الافلام ، فسوف يتوقف شعورى
بالاعتلال والسقم ..

فقال الدكتور برودسكى :

— صح .. هو الترابط والتداعى — اقدم أسلوب تعليمى فى
العالم .. وما هو الذى يجعلك تشعر فعلا بالاعتلال والسقم ؟..

فقلت :

— هذه الاشياء البشعة التى تتولد فى رأسى وجسدى
نتيجة لما تفعلون بى ..

فقال الدكتور برودسكى .. فى شىء من الضجر :

— لا بأس .. لا بأس .. ليست الاسلاك هى التى تفعل بك
هذا .. ليس لما تشكو منه علاقة بقيودك هذه .. انما هى لمجرد
قياس ردود الفعل عندك .. ماهو السبب اذن ؟

فجأة خطر لى اننى كنت اعمى اذ لم افطن الى ان الحقن التى
كانوا يحقنون بها ذراعى هى السبب ، وهكذا صرخت قائلا :

— آه !.. آه !.. اننى أرى الان كل شىء !.. هى خدعة

حقيرة .. وخيانة قذرة ، ولن تفعلوا هذا بى بعد الان !..
فقال الدكتور برودسكى :
— انا مسرور لانك تبدى الان اعتراضاتك .. الان يمكن ان نكون واضحين تماما فى كل شىء .. بامكاننا ان ندخل تلك المادة ، (مادة لودفيكو) فى تكوينك بطرق كثيرة مختلفة .. عن طريق الفم مثلا .. لكن طريقة الحقن تحت الجلد هى الافضل .. لا تقاوم ما يعطى لك من فضلك .. لا فائدة من اية مقاومة .. فلا يمكنك أن تغلبنا !..
فقلت فى تأثر يكاد يبلغ حد البكاء :
— ياملاعين!.. اننى لا اهتم بما تعرضون من افلام العنف وما اليها !.. بامكانى ان اتجاوز عن هذا .. لكن فى مسألة الموسيقى ليس هذا من الانصاف والعدل !.. ليس من الانصاف والعدل ان تسمعونى الموسيقى الجميلة لبتهوفن وهاندل وغيرهما .. كل هذا يبين انكم عصبة من اولاد الحرام ، ولن اغفر لكم هذا بأى حال !..
بدا لى ان الاثنين يفكران ساهمين .. وما لبث الدكتور برودسكى أن قال :
— التحديد والتخطيط دائما صعب .. الدنيا شىء .. والحياة شىء آخر .. ان احلى واسمى النشاطات تتشارك بدرجة ما فى أعمال العنف — فى الجنس مثلا ، فى الموسيقى مثلا .. لابد ان تجرب حظك ياولد .. وكان الاختيار كله منوطا بك
لم افهم كل هذا الكلام ، لكننى قلت بعد ان غيرت لهجتى بعض الشىء بطريقتى الماكرة .
— لا حاجة الى الاستمرار فى هذا اكثر من ذلك .. فقد برهنتم لى ان كل اعمال العنف هذه من ضرب وقتل وغيرهما هى خطأ ، خطأ ، وخطأ فظيع !.. اننى تعلمت الدرس ياسادة !.. وقد تبينت الان ما لم اتبينه من قبل ابدا .. وقد شفيت الان بحمد الله !..
قلت هذا وانا ارفع عينى الى السماء تبجيلا واجلالا
غير ان الطبيبين هزا راسيهما على نحو من الحزن ، وقال الدكتور برودسكى :
— أنت لم تشف بعد .. وهناك الكثير مما لابد ان نفعله .. فقط عندما يستجيب جسدك استجابة فورية وقوية الى العنف ،

كما يستجيب ازاء افعى ، ودون مساعدة اخرى من جانبنا ، ودون تطبيب — عند هذا فقط ..
فقلت مقاطعا :
— لكن سيدى وسادتى !.. ارى ان هذا خطأ !.. هذا خطأ لانه ضد المجتمع ، وخطأ لان كل انسان على وجه الارض له حقه فى ان يحيا ويسعد دون أن يتعرض للضرب او الاعتداء بالمدى !..
غير أن الدكتور برودسكى تلقى هذا الكلام بضحكة عالية متصلة حتى بدت كل اسنانه البيضاء ، وقال :
— كلام مزوق !.. ارى ماهو صواب واقره ، لكننى افعل ماهو خطأ !.. كلا ، كلا ياولدى .. لابد ان تترك كل شىء لنا .. لكن كن منشرحا متفائلا .. وعما قريب سينتهى كل شىء .. وفى اقل من اسبوعين سوف تكون رجلا حرا ..
وشفع هذا الكلام بأن ربت على كتفى ..
فى اقل من اسبوعين ؟! .. اواه يااخوانى واصدقائى !.. هذه المدة كأنها دهر !.. كأنها منذ بداية الخليقة الى نهايتها !.. ان اختتام الاربع عشرة سنة بقية المدة المحكوم بها على بالعودة الى السجن كان فى نظرى اهون من هذا !..
وعندما جاءت الممرضة المكلفة بالحقن ، وان كان ذلك بعد اربعة أيام من حديثى ذاك مع الدكتور برودسكى والدكتور برانوم ، قلت لها :
— آه .. لا .. لن تفعلى هذا !..
وضربتها على يدها ، فهوت الحقنة برنين على الارض .. وانما فعلت هذا لكى ارى ماذا هم فاعلون .. فكان أن جاء اربعة او خمسة من الممرضين الاشداء الملاعين والزمونى الفراش وهم يضربوننى ووجوههم باسمة قريبة من وجهى ، وهنا قالت تلك الممرضة :
— يالك من شيطان صغير شقى !..
وغرست حقنة اخرى فى ذراعى وبها تلك المادة الكريهة الشيطانية .. وبعدها نقلونى فى الكرسى المتحرك منهكا الى موقع تلك السينما الجهنمية كما كان من قبل !..
وكل يوم يا اخوانى كانت تلك الافلام كمثيلاتها : اعتداء بالضرب والرفس ، ودماء حمراء قانية تقطر من وجوه واجساد وتلطخ عدسات الكاميرا عن آخرها !.. كانت دائما مشاهد فتيان يبتسمون ويضحكون وهم فى قمة (موضة النادسات) !.. او مظاهر تعذيب

وحشية من جنود متبربرين عملهم بقر البطون والرمى بالرصاص !.. وكل يوم كان احساسى بالرغبة فى الموت من القىء ، وأوجاع الراس، وآلام الاسنان ، والعطش الرهيب المشتد كان احساسى بهذا يزيدنى سوءا وكربا !.. الى ان جاء يوم حاولت فى صباحه ان اقهر أولاد الحرام اولئك بدق راسى فى الجدار دقا متواصلا حتى اخر مغشيا على ، لكن كل ماحدث هو اننى رايت هذا النوع من العنف كان مماثلا للعنف فى الافلام ، ولم اجن من هذه المحاولة سوى الاعياء والوهن ، واستمر اعطائى الحقن ، واستمر نقلى بالكرسى المتحرك كما كان من قبل !..

ثم جاء صباح يوم استيقظت فيه وتناولت افطارا من البيض و (التوست) والمربى والشاى باللبن الساخن جدا ، وعندها فكرت : « لا يمكن ان يطول الوقت كثيرا الان .. الان لابد ان نهاية هذه المسألة أصبحت قريبة جدا .. اننى قاسيت الى ابعد حد ولا يمكننى ان أقاسى اكثر من هذا !.. » .. وجعلت انتظر ياخوانى ان تاتى تلك الممرضة بالحقنة ، غير انها لم تحضر .. وبعدئذ جاءنى ممرض وقال لى :

– اليوم ياصاحبى سندعك تمشى ..

فقلت :

– امشى ؟! .. الى اين ؟..

فأجاب قائلا :

– الى المكان المعتاد .. نعم ، نعم .. لا تدهش هكذا .. ستمشى الى مكان الافلام ، وانا معك بالطبع .. لن تنقل بعد الان فى كرسى متحرك ..

فقلت :

– لكن ... ماذا عن تلك الحقنة الصباحية الفظيعة ؟..

فقد دهشت حقا يا أصدقائى من هذا ، بعد ان رأيتهم مهتمين الى ابعد حد بادخال (مادة لودفيكو) تلك فى جسدى كما اخبرونى .. واضفت قائلا :

– الن آخذ تلك المادة البشعة المقززة فى ذراعى المعذب بعد الان ؟..

فقال الممرض باسما :

– بتاتا .. الى الابد والى الابد ، آمين !.. انت الان مستقل بنفسك ياولدى .. تمشى بارادتك الى غرفة الفظائع .. لكن سوف

يستمر ربطك فى الكرسى واجبارك على المشاهدة .. هيا اذن ايها النمر الصغير !..

ولم أجد بدا من لبس روبى (وشبشبى) والمشى فى الردهة الى (دار السينما) تلك !..

والان فى هذه المرة يا آخوانى لم اكن فقط معتلا جدا بل متحيرا أيضا .. لقد تكررت المشاهد السابقة من جديد ، اعمال العنف بكل انواعها ، وأناس تهشم رءوسهم وتسيل دماؤهم ، ونساء يصرخن مسترحمات ، الى آخر هذه القائمة من الفظائع والقبائح !.. ثم جاءت مشاهد معسكرات الاعتقال وتعذيب المعتقلين والشوارع الاجنبية الكابية المليئة بالدبابات والجنود والاسرى يتساقطون صرعى برصاص الاعدام .. فى هذه المرة لم يكن لى ان الوم احدا لشعورى بالغثيان والعطش والاوجاع فيما عدا اجبارى على رؤية ما اشهد ، اذ ظلت عيناى مشدودتين عنوة للنظر وجسدى كله موثق فى المقعد ، وان كانت الاسلاك لم تعد متصلة ، براسى وجسدى .. اذن فماذا يمكن أن يكون هذا الا ان الافلام التى اشاهدها هى التى تفعل هذا بى ؟.. والا ان (مادة لودوفيكو) تلك ياخوانى كانت بمثابة مصل ، وها هى ذى تسرى فى جسدى ودمى ، لكى اظل اشعر بالغثيان الى الابد كلما شاهدت شيئا من افعال العنف تلك ؟! .. هكذا اختلج فمى وانبثقت الدموع فى عينى تحجب ما كنت مكرها على مشاهدته .. غير ان هؤلاء المرضين الملاعين خفوا الى يمسحون دموعى قائلين :

– عيب على مثلك البكاء يابنى !..

ووضحت صور المشاهد امام عينى من جديد !.. الالمان يسوقون اليهود الباكين المستصرخين رجالا ونساء واطفالا الى غرف الغاز السام !.. واذا الدموع تنبثق من عينى مرة اخرى ، فيسارع المرضون الى مسحها لئلا يفوتنى اقل شىء مما يعرضونه امامى !..

لقد كان هذا ياخوانى واصدقائى يوما عصيبا مشهودا !..

ثم كنت ممددا فى فراشى تلك الليلة بعد عشاء من حساء الضأن الدسم وفطير الفاكهة و (الايس كريم) ، وذهبت افكر على هذه الصورة :

– سحقا لهم !.. ربما كانت الفرصة امامى للنجاة اذا انا هربت الان !..

لكن لم يكن معى اى سلاح ، ولم يسمحوا لى حتى بمطواة ،

وكان يحلق ذقنى يوما بعد يوم شخص سمين اصلع كان يأتى الى
فراشى قبل الافطار بينما يقف عن كثب اثنان من الممرضـــــين
للاطمئنان الى اننى انسان مسالم !.. وكانوا قد قلموا اظافر يدى
عن آخرها لئلا اخمش او اخدش احدا !.. لكننى مازلت سريعا فى
الهجوم ، وان كانوا قد أوهنوا قواى يا اخوانى حتى اصبحت أقرب
الى شبح مما كنته فى ايام الحرية الخوالى !.. وعنـــدما اختمرت
الفكرة فى ذهنى هبطت من الفراش وذهبت الى الباب الموصد واخذت
اضربه بعنف وأنا أصرخ قائلا :

– النجدة!.. النجدة!.. انا اموت!.. طبيب!.. طبيب..
طبيب بسرعة !..

لقد جف حلقى وبح صوتى قبلما جاء احد .. ثم سمعت وقع
اقدام آتية فى المشى وصوتا يزمجر ، وعلى الاثر تعرفت على الممرض
الذى كان يأتينى بالطعام ويصحبنى الى حتفى المحتوم كل يوم ..
قال ساخطا :

– ماذا جرى ؟.. ماهى لعبتك القذرة هذه المرة ؟..

فقلت متأوها متوجعا :

– اننى اموت !.. أشعر بألم مميت فى جنبى !.. هى الزائدة
الدودية !.. آه !.. آه !.. أواه !..

فرد الممرض مزمجرا :

– زائدة فى عينك !..

وشد ماكانت فرحتى ياخوانى عندما سمعت صليل مفاتيح
وصوته يقول :

– اذا كنت تحاول خداعنا ياصديقى الصغير فاننى وزملائى
سنضربك ونؤدبك طول الليل !..

وما لبث أن فتح الباب فكان فتحه بشيرا بقرب خريتى ..
وكنت اسرع منه فى الوقوف خلف الباب عندما فتحه ، ولمحته فى
ضوء المشى يتلفت حوله بحثا عنى فى دهشة وحيرة .. وهنا رفعت
قبضتى الاثنتين لكى ألطمه على عنقه بعنف ، وأقسم لكم اننى عندما
خيلته ممددا على الارض سلفا يئن من الضربة ويغيب عن الوعى
حتى تملكتنى الفرحة – عندها شعرت بالغثيان يرتفع فى داخلى كأنه
موجة ، واحسست بخوف شديد وكأننى اوشك أن اموت !..
وما لبثت أن عدت مترنحا الى الفراش ، وبدأ الممرض الذى لم يكن

فى معطفه الابيض بل فى (روب) ، يفهم ما كنت انتويه ، اذ قال
لى :

– حسن .. كل شىء كانه درس .. اليس كذلك ؟ الانسان
يتعلم فى كل وقت .. هيا ياصديقى الصغير ، قم من الفراش واضربنى
.. أريد أن تضربنى حقيقة .. ضربة قوية على الفك !.. اننى مشتاق
لهذه الضربة وحقك !..

لكن كل مااستطعت أن افعله ياخوانى هو اننى لبثت ممددا
فى الفراش ابكى وانتحب .. الى ان قال الممرض ساخرا :

– ياحقير !.. ياقذر !..

ثم جذبنى من ياقة بيجامتى وانا فى منتهى الضعف والاعياء ،
وصوب الى لطمة اصابتنى فى وجهى ، قائلا :

– هذه نظير اخراجى من فراشى ، ايها الحقير الصغير !..

ومسح يديه واحدة بالاخرى ثم خرج ، وسمعت صرير المفتاح
فى قفل الباب ..

وما كان لى ياخوانى الا أن الوذ بالنوم هربا من ذلك الاحساس
الفظيع بانه كان خيرا لى أن أتلقى اللطمة بدلا من أن اعطيها .. بل
لو أن ذلك الممرض قد بقى ، فربما ادرت له خدى الاخر !..

الفصـــــل الســـابـــع

لم استطع ياخوانى ان اصدق ماقيل لى .. فقد بدا لى كاننى لبثت فى هذا المكان اللعين دهرا ، واننى سابقى فيه الى ابد الابدين!.. لكن الفترة كلها لم تزد عن اسبوعين ، وقـد ابلغونى الان أن فترة الاسبوعين قاربت النهاية ..

قالوا لى :

ـ غدا ، ياصديقنا الصغير ، الى الخارج ، الى الخارج ، الى الخارج !..

واكدوا هذا التصريح برفع أصبع الابهام ، ايماء الى الحرية !..

وبعدئذ جاءنى الممرض ذو المعطف الابيض الذى لطمنى والذى مازال يحضر لى الطعام ويصحبنى كل يوم الى غرفة العذاب ، وقال لى :

ـ .. لكن لايزال امامك يوم حافل .. انه ســيكون جواز مرورك الى الخارج ..

وشفع هذا بابتسامة خبيثة ..

وكنت أتوقع هذا الصباح اننى سأنتقل الى (دار السينما) الرهيبة كالمعتاد بالبيجاما و (الشبشب) والروب .. لكن كلا .. فى هذا الصباح اعطونى قميصى وملابسى الداخلية والخارجية وحذاء الرفس الضخم ، وكلها مغسولة ومكواة ومصقولة .. بل انهم اعطونى مطواتى (قرن الغزال) التى كنت استعملها فى تلك الايام الخوالى السعيدة للمعابثة والعدوان !.. وهكذا رحت أرتدى هذه الملابس وانا عابس حيران لما ارى ، غير أن الممرض لم يعد أن ابتسم ولم يشأ ان يقول شيئا ياخوانى !..

ثم اقتادونى بترفق بالغ الى (دار السينما) الجهنمية ، لكننى الفيت تغييرات قد حدثت بها .. فقد حجبت ستائر شاشة العرض ، ولم يعد الزجاج الحبيبى أسفل فتحات العرض قائما مكانه ، ولعلهم رفعوه أو طووه مثل ستائر النوافذ .. وفى المكان الذى كانت تسمع فيه أصوات السعال ولغط الاحاديث واشباح أشخاص كان هنـاك

الان حشد من النظارة تبينت بينهم وجوها أعرفها ، منها محافظ السجن ، وواعظه ، ورئيس الحراس ، وتلك الشخصية الهامة جدا التى كان صاحبها يرتدى أفخر الملابس : اعنى وزير الداخلية !.. اما الباقون فلم اكن أعرفهم .. وكان الدكتور برودسـكى والدكتور برانوم بين الحضور ، وان لم يكونا الان بالمعاطف البيضاء ، بل كانا يرتديان ايضا ملابس فخمة مثل كبار الاطباء .. وقد اكتفى الدكتور برانوم بالوقوف ، بيد أن الدكتور برودسكى كان يخاطب المجتمعين بأسلوب المحاضرين .. وعندما رآنى أدخل قال مواصلا حديثه :

ـ آه !.. عند هذه المرحلة أيها السادة نقدم لكم (الموضوع) ذاته .. انه كما سوف ترون سليم وجيد التغذية .. وهو قادم الان بعد نوم ليلة وافطار طيب ، وهو غير مخدر ولا منوم مغناطيسيا .. وغدا نرسله فى ثقة الى العالم الخارجى من جديد ، فتى مهذبا كأى فتى تلتقون به فى صباح يوم من مايو ، مبرأ من الشر والعنف ، نزاعا الى الكلمة الطيبة والعمل الايثارى .. ما أعظم هذا التغيير ، ايهـا السادة ، الذى طرأ عليه بعد أن كان منحرفا منكودا قضت عليـه الدولة بعقوبة غير مثمرة منذ نحو سنتين ، فلم يتغير فيه شىء خلال تلك الفترة !.. بل ان وجوده فى السجن علمه الابتسامة الزائفة ، والنفاق ، والتمسح الساخر !.. لقد علمه الســجن رذائل أخرى كثيرة ، كما قوى فيه تلك الرذائل التى طالما مارسها فى الماضى .. لكن نكتفى الان أيها السادة بالكلام .. فالافعال ستكون افصـح لسانا .. الى العمل الان !.. لاحظوا كل مايجرى !..

فى الحق ياخوانى لقد شعرت بشىء من الذهول لهـذا الكلام ورحت أحاول فى ذهنى أن استوعب أن كل هذا كان بخصوصى !.. وعلى الاثر أطفئت الانوار ، ثم أعقب ذلك ظهور دائرتين من الضـوء المنبعث من مربعات العرض السينمائى سلط أحدهما على شـخص محدثكم المتواضع المعذب ، وظهر فى الدائرة الثانية شخص ضخم لم اره من قبل .. كان له فم غليظ وشارب وخصلات من شعر قليل التصقت فى شبه خطوط على رأسه شبه الاصلع .. وكان يناهز الثلاثين أو الاربعين أو الخمسين ، أو سنا متقدمة فى هذا المدار .. وما لبث ان اقترب منى تتبعه دائرة الضوء حتى استحالت الدائرتان الى دائرة واسعة .. وقد قال لى مستهزئا :

ـ هالو ياكوم الاوساخ !.. اف !.. انت لا تغتسل كثيرا كما تدل عليه رائحتك الفظيعة !..

ثم بدا بحركة شـــبه راقصة وداس على قدمى اليسرى ثم اليمنى ، ثم خدش باظفر أصبعه انفى خدشة عنيفة آذتنى بشـدة واسالت الدموع من عينى !.. ثم فرك اذنى اليسرى كما لو كان يدير مفتاح الراديو حتى سمعت ضحكا عاليا من الحضور !.. ومن فرط ما آلمنى وجع انفى واذنى وقدمى قلت له :

— لأى شىء تفعل هذا بى ؟.. انا ياأخى لم افعل شيئا خاطئا فى حقك !..

فقال ذلك المخلوق :

— آه !.. انا افعل هذا (وخدش انفى مرة ثانية) وهـــذا (وفرك صوان اذنى) وهذا (وداس بعنف على قدمى اليمنى) — افعل هذا كله لاننى لا اهتم بشخصك الحقير !.. واذا كنت تريد ان تفعل اى شىء فى المقابل ، فلتبدا !.. ابدا من فضلك !..

فى هذه اللحظة ادركت انه لابد ان اسرع بالعمل واخرج مطواتى قرن الغزال الفتاكة قبلما تفارقنى حماســـــة المعركة .. لكن آه ياأخوانى !.. ما ان امتدت يدى الى جيبى تلتمس المطواة حتى تجلت لخاطرى صورة ذلك المخلوق المعتدى وهو يصرخ مســترحما والدم الاحمر القانى يسيل من فمه ، وسرعان ما اقترنت هذه الصــورة بمشاعر الغثيان والجفاف والالام تطبق على ، وأدركت انه لابد من تغيير الانطباع الذى احسست به حيال ذلك المخلوق الكريه حتى لا تتفاقم تلك المشاعر فى نفسى ، وهكذا تحسست جيبى التماســا لسجائر او نقود ، غير انى الفيت ياأخوانى جيوبى خلوا منهــــا ، فقلت له على الاثر متلعثما :

— بودى ياأخى أن أعطيك سيجارة ، لكن يظهر انه ليس معى شىء منها ..

فرد على قائلا :

— عض اصابعك حسرة ياطفل ، وابك بالدمع السخين !..

وخدش انفى بظفره المخلبى من جديد ، حتى سمعت ضحكات المرح تتردد من صفوف الحضور .. فقلت فى يأس محاولا التلطف والاسترضاء لكى احول دون استفحال ما الم بى من غثيان وآلام :

— ارجوك ان تدعنى افعل شيئا من اجلك !.. ارجوك !..

وتحسست جيبى مرة أخرى ، فلم اجد سوى مطواة قرن الغزال .. فاخرجتها وقدمتها اليه قائلا :

— خذ هذه من فضلك !.. هدية صغيرة !.. خـــذها من فضلك !..

غير انه قال :

— احتفظ برشوتك الحقيرة لنفسك .. لايمكنك ان تستغفلنى بهذه الطريقة !..

ولطم يدى حتى سقطت المطواة على الارض .. وهكذا رحت اقول له :

— لابد ان افعل شيئا من اجلك !.. هل امسح حذاءك ؟ لابد ان اركع والعقه !..

ويا اخوانى صدقوا او لا تصدقوا ؛ فقد ركعت على ركبتى ومددت فمى لكى الق الحذاء القذر ، لكن هذا المخلوق رفسنى فى فمى .. وهكذا خطر لى أن الغثيان والالم لن يلما بى اذا انا تشبثت بساقيه وطوحت بهذا المخلوق الحقير الى الارض .. ففعلت .. وكانت مفاجاة له ان يهوى على الارض بين الضحك المتعالى من جمهور النظارة .. لكن رؤيتى له على الارض اشعرتنى بتصــاعد تلك الاحاسيس الفظيعة واطباقها على ، وهكذا مددت له يدى لكى انهضه ، فنهض قائما .. وفى اللحظة التى هم فيها ان يصوب الى ضربة عنيفة على فمى قال الدكتور برودسكى :

— لا بأس .. هذا سيثمر تماما ..

واذ ذاك رايت هذا المخلوق الفظيع ينحنى ثم يبتعد خفيفا فى حركات تمثيلية بينما اضيئت الانوار وأنا اطرف بعينى وفمى فاغر يوشك على الصراخ !..

وقال الدكتور برودسكى للحضور :

— ان (موضوعنا) قد اضطر للانحياز الى الخير نقيضا لاندفاعه نحو الشر .. ان نيته لعمل عنيف قد صاحبتهـــــا مشاعر قوية للاضطراب الجسدى .. ولمواجهة ذلك كان لابد (للموضوع) ان يتحول عكسيا الى الحالة المضادة .. هل من أسئلة ؟..

فتعالى صوت عميق عرفت فيه صوت القس يقول :

— وعامل الاختيار ؟.. انه ليس له رغبـــة حقيقية ، اليس كذلك ؟ ان المصلحة الذاتية والخوف من الالم البدنى دفعاه الى اذلال نفســه على تلك الصورة الشنيعة !.. وكان واضحا عدم صدق انبعاثه .. لقد توقف عن فعل الشر .. وهو يتوقف أيضـــا عن ان يكون مخلوقا قادرا على الاختيار الاخلاقى الفاضل !..

فرد الدكتور برودسكى باسما :

– هذه تخريجات تقوم على الحـــذلقة .. اننا غير معنيين بالدافع ، بالاخلاقيات السامية !.. نحن معنيون فقط بقطع دابر الجريمة ..

ورن صوت وزير الداخلية الانيق الملبس :

– ومعنيون أيضا بتخفيف التكدس المروع فى سجوننا !..

وقال صوت من الحضور :

– اسمعوا !.. اسمعوا !..

وهنا ارتفعت أصوات النقاش والمجـــادلة وانا واقف مكانى يا اخوانى وكأن هؤلاء الجهلاء التافهين قد تجاهلوا شخصى ، وهكذا صرخت فيهم قائلا :

– وانا ؟.. انا ؟.. انا ؟.. ماذا شانى ؟.. اين مكانى فى كل هذا ؟.. هل انا مجرد حيوان او كلب ؟..

فكان كلامى هذا باعثا على احتدام نقاشهم وقذفهم كلمـــات الى شخصى .. وكذلك صرخت فيهم بأعلى من أصواتهم قائلا :

– هل يراد لى ان اكون فقط اشبه (ببرتقالة بقلب ساعة) ؟!..

ولست أدرى ما الذى جعلنى استخدم هذه الكلمات ، تلك التى انبعثت فى راسى دون سؤال .. ولكنها عقدت السنة الجمع لسبب ما نحو دقيقتين ثم مالبث احدهم وكانت تبدو عليه ســمات الاساتذة الفطاحل ان نهض قائلا وقد انتفخت اوداجه :

– لا حق لك ان تتذمر ياولد .. انك اديت اختيارك ، وكل هذا هو نتيجة اختيارك .. وكل مايمكن ان يترتب ويحدث بعد الان هو ما اخترته انت بنفسك ..

وصاح واعظ السجن بدوره :

– آه لو كنت اعرف هذا !..

وقد لمحت محافظ السجن يصوب اليه نظرة كان معناها انه لن يرقى فى مراتب الوعظ فى وظيفته كما كان يقدر .. وما لبث النقاش والجدل ان ارتفع مرة اخرى ، كما سمعت كلمة (الحب) تدور على الالسنة ، وسمعت صوت واعظ السجن ذاته يصيح مثل غيره بعبارة ان (الحب السامى يطرد الخوف) وما الى هـــذا .. وأخيرا قال الدكتور برودسكى والابتسام يشيع فى كل وجهه :

– يسرنى أيها السادة انكم عرضتم لموضوع (الحب) فالان

سوف نرى عمليا لونا من الحب كنا نظنه قد انطوى مع (العصـــور المتوسطة) ..

وعندئذ انطفات الانوار وعادت دوائر الضوء مرة أخرى ، واحدة منها تشمل محدثكم وصديقكم المسكين المعذب ، وسرى فى الدائرة الثانية طيف اجمل واحلى فتاة يمكن ان تقع نواظركم عليها ياإخوانى مدى الحياة !.. ورغبة فى الدقة أقول انها كانت ذات نهدين ترنو اليهما الاعين ، وكانت ترتدى ملابس تنحدر وتنحدر وتنحدر أسفل الكتفين !.. وكانت ساقاها صورة لابداع الخلق !.. وكانت تتهادى فى مشيتها الى حد يثير التنهدات ، ومع ذلك كان محياها الفاتن ينضح بأحلى ابتسامة واعذبها .. وقد تقدمت نحوى تحف بها هالة من السناء النورانى – حتى كان اول ماخطر ببالى هو ان أنقض عليهـــا انقضاضا ، ولكن سرعان ما باغتنى الغثيان وكأنه ديدبان كان متربصا وما لبث أن وثب فجأة لاعتقالى !.. ثم أذكت رائحتها العطـــرة مشاعرى وأثارت حواسى الى حد تعين على معه ان أجد أسلوبا آخر للتفكير فيها قبل ان تدهمنى اعراض الالم والعطش والغثيان الفظيع وتطبق على اطباقا لاشك فيه .. وهكذا رحت اهتف بين يديها :

– آه يا اجمل وابدع النساء !.. اننى لأطرح قلبى عند قدميك لكى تطئيه من كل جانب !.. لو كانت لدى وردة لقدمتها اليك !.. ولو كان المطر يهطل مدرارا الان على الارض لقدمت اليك ملابسى لكى تمشى عليها لئلا تتلوث قدماك الرقيقتان بالبلل والاقذار !..

وكنت وانا أقول هذا ياإخوانى اشعر بالغثيان ينحسر عنى .. وقد مضيت أهتف قائلا :

– اننى لأعبدك واكرس نفسى لمساعدتك وحمايتك من هـــذه الدنيا الشريرة !..

وفكرت لحظة فى الكلمة المناسبة وقد دب التحســـن الى ، فرحت أقولها :

– دعينى اكن لك الفارس المخلص !..

وشفعت هذا بأن ركعت على ركبتى أمامها منحنيا ومتمسحا !..

ثم ساورنى الوجوم على الاثر لما بدا لى انه موقف تمثيلى مرة اخرى ، اذ أن هذه الفاتنة انحنت أمام الحضور باسمة ، وانسحبت فى خفة الطائر وقد اضيئت الانوار مقترنة بالتصفيق !.. وقد بدا لى أن أعين طائفة من الحضور الاجلاء تكاد تجحظ وهى ترمق تلك الغادة الحسناء بنظرات ملتاثة ورغبة محرمة ياإخوانى !..

وسمعت صوت الدكتور برودسكى يدوى قائلا :
ـ انه سيكون المتدين الصالح ، وعلى استعداد لكى يدير خده الاخر ، وللاستشهاد بدل التعذيب ، متقززا حتى شغاف قلبه للتفكير فى ان يقتل حتى ذبابة !..

وصدق الدكتور برودسكى ياإخوانى ، ذلك لانه عندما قال هذا كنت افكر فى قتل ذبابة ، وعلى الاثر شعرت بالغثيان والالم ، بيد اننى دفعت عنى الغثيان والالم عندما فكرت فى اطعام الذبابة بفتات من السكر وعكفت على رعايتها مثل مايرعى الانسان حيوانا اليفا سال دمه ، الى آخر هذه الامثلة !..

وفى الختام هتف الدكتور برودسكى بما هو مسك الختام :
ـ هذا هو سبيل الاصلاح ، وانتم على ذلك شهود ..
واذا وزير الداخلية الانيق يعقب قائلا بجد كل الجد :
ـ المهم انه اسلوب ناجح ، وناجع !..
فما كان من الواعظ الا أن تنهد قائلا :
ـ لطف الله بنا !..

القسم الثالث

الفصل الأول

ترى ما الذى سيكون بعد ؟..

هذا هو السؤال الذى سألته لنفسى يا اخوانى فى صباح اليوم التالى وانا واقف خارج ذلك المبنى الابيض الملحق بالسجن العمومى ، مرتديا ملابسى التى كنت ارتديها ليلا منذ سنتين ، فى بكرة النهار الضبابية ، ومعى حقيبة صغيرة بها حاجياتى الشخصية ، الى جانب نقود يسيرة تبرعت بها السلطات المجتمعة تكرما وتفضلا لكى استعين بها فى استهلال حياتى الجديدة ..

ولقد كنت بقية اليوم السابق متعبا جدا ، ناهيك عن المقابلات والاحاديث المسجلة والمصورة للصحافة والتليفزيون وغير ذلك مما يثير الارتباك والحيرة فى امثال هذه المواقف .. وبعدها ارتميت على فراشى منهكا ، فما استيقظت الا على اصوات تدعونى الى الخروج والذهاب الى بيتى ، مشفوعة بانهم لايريدون رؤية محدثكم الضعيف الى الابد !.. وهأنذا الان ياإخوانى فى بكرة الصباح وليس معى سوى تلك النقود النثرية اليسيرة فى جيبى الايسر اسمع رنينها فى يدى وافكر فيما سيكون بعد ياترى ؟..

فكرت فى البحث عن افطار فى مكان ما ، اذ لم اتناول اى طعام فى ذلك الصباح لانشغال الجميع واهتمامهم باطلاق سراحى واخلاء سبيلى ، وكل مانلته هو قدح من الشاى لا اكثر ..

كان موقع السجن فى طرف كئيب من المدينة ، لكن كانت تنتشر فيه مقاهى العمال ، ولم يطل بى الوقت حتى وجدت واحدا منها ياإخوانى ..

كان مقهى متواضعا ، لا يضيئه سوى مصباح وحيد فى سقفه وقد جفت به نفايات الذباب فكادت تحجب ضوءه الكليل .. وكان به عمال مبكرون يتناولون الشاى وبعض السجق الشنيع المظهر

وشرائح هزيلة من الخبز سرعان ما كانوا يتلهمونها طالبين المزيد ..
وكانت تقوم على خدمتهم فتاة خلت من معالم الحسن الا من نهدين
بارزين ، وكان بعض الاكلين يحاولون جذبها اليهم وهم يقهقهون
وهى تضحك ضحكات ناعمة ، غير ان مشهدهم كان يثير غثيانى
يالخوانى .. لكننى طلبت بعض الشاى والمربى والتوست بكل تأدب
وبلغة المهذبين ، وجلست فى ركن معتم آكل واشرب ...

وفى خلال هذا دلف الى المشرب قزم آدمى يبيع جرائد الصباح،
فاشتريت نسخة ، وكانت فكرتى أن أستعد للاندماج من جديد فى
الحياة العادية بالاطلاع على مايجرى فى الدنيا .. والظاهر أن هذه
الجريدة كانت حكومية ، اذ كانت الاخبار الوحيدة على الصفحة
الامامية عن الحاجة الى أن يعمل كل فرد على عودة الحكومة الى
منصة الحكم فى الانتخابات العامة القادمة ، التى بدا انها ستكون بعد
نحو اسبوعين أو ثلاثة .. وكانت الصفحة تتضمن كلاما فيه تفاخر
بما قامت به الحكومة يالخوانى فى العام الماضى او نحوه ، ناهيك بزيادة
الصادرات ونجاح السياسة الخارجية وتحسين الخدمات الاجتماعية
واشياء من هذا القبيل .. لكن اشد ما كانت تفاخر به الحكومة فعلا
هو الكيفية التى ادت فى تقديرها الى اقرار الامن فى الشوارع لجميع
المواطنين المسالمين الذين يسيرون فى الشوارع ليلا فى مدى الشهور
الستة الاخيرة ، فضلا عن تحسين مرتبات رجال الشرطة واتخاذهم
اجراءات مشددة ضد الشباب المنحرف واللصوص والعابثين بالامن ،
وهو ما أثار اهتمام محدثكم المتواضع الى حد ما .. وقد تضمنت
الصفحة الثانية للجريدة صورة شبه مطموسة لشخص بدا مألوفا
فى نظرى ، ثم تبينت أن هذه الصورة لم تكن الا صورتى انا .. انا ..
انا !.. كنت أبدو فى الصورة اقرب الى الاكتئاب والوجل ، ولكن
هذا لم يكن الا بسبب أضواء كاميرات التصوير التى لاحقتنى طويلا
.. وقد نشر تحت الصورة أن صاحبها هو أول خريج للمؤسسة
الحكومية الجديدة لاصلاح الجناة ، وقد أمكن شفاؤه من غرائزه
الاجرامية فى مدى اسبوعين فقط ، وانه الان مواطن صالح مطيع
للقانون ، وهلم جرا !.. ثم اطلعت على مقال حافل بالتفاخر عن
تلك الطريقة المعروفة باسم (طريقة لودفيكو) ، وكيف كانت الحكومة
آية فى البراعة الى غير ذلك من الكلام المنمق !.. وكانت هناك صورة
أخرى لشخص رأيت أننى أعرفه ، وكان وزير الداخلية ذاته ..

وبدا فى السطور المكتوبة انه يتباهى بما حققه ، متطلعا الى عهد
مشرق خال من الجريمة ، ينعدم فيه الخوف من الهاجمات المتسمة
بالجبن التى كان يقوم بها المنحرفون الشبان واللصوص ومعتادو
الاجرام ومن اليهم .. وهكذا لم أتمالك ان القيت الجريدة على الارض
حتى غطت بقع الشاى المسكوب والبصاق الشنيع من جانب
(الحيوانات) التى كانت ترتاد هذا المشرب !..

ترى اذن ما الذى سيحدث بعد الان ؟! ..

ان الذى سيحدث يالخوانى الان هو العودة الى دارى بمفاجأة
لطيفة لابى وامى ، انا وحيدهما وولى عهدهما وربيب احضانهما
الحنونة !... وبعدها استطيع أن أستلقى فى فراشى بغرفتى أو
ما اسميه (وكرى) الخاص واستمع الى شيء من الموسيقى الحبيبة ؛
وفى نفس الوقت يتهيأ لى أن افكر فيما أن سأفعله الان بحياتى .. وكان
(ضابط الافراج) قد اعطانى فى اليوم السابق قائمة طويلة بالاعمال
التى يمكن أن أتقدم اليها ، كما قام بالاتصال تليفونيا بعدد من
الاشخاص من اجلى .. لكن لم يكن فى نيتى يالخوانى أن أذهب للعمل
الان مباشرة .. شيء من الراحة أولا .. نعم !.. ثم تفكير هادىء
فى الفراش على صوت الموسيقى المحبوبة ..

وهكذا ركبت الاتوبيس الى منطقة (سنتر) ، ثم الاتوبيس الى
(كنجزلى افينو) ، وكانت العمارة السكنية رقم ١٨ قريبة ..
وسوف تصدقوننى يالخوانى عندما اقول أن قلبى كان يدق ويدق
بتأثير الانفعال .. وكان كل شيء فى تمام الهدوء ، اذ كان الوقت
لايزال فى بكرة الصباح هذا الشتاء ، وعندما دخلت الى ردهة العمارة
لم أجد أحدا حولى ، فيما عدا صور الرجال والنساء العارية المحفورة
على جوانب المدخل رمزا لكرامة العمال والعاملين .. وان ما أدهشنى
يالخوانى هو ماطرأ على هذا الرمز من تنظيف ، فقد خلت الصور
من العبارات البذيئة الفاحشة التى أضيفت على السنة العمال ،
ومحيت تلك الاجزاء القذرة التى رسمها على الاجسام العارية بالقلم
الرصاص افراد ملتاثو العقول فاسدو الطوايا !.. وكان ما أدهشنى
أيضا هو اصلاح المصعد ، فقد هبط اثر ضغطى على الزر الكهربائى ،
وكان من بواعث دهشتى كذلك أن جدران المصعد ذاته أصبحت
نظيفة ..

وهكذا صعد بى المصعد الى الدور العاشر ، ورأيت باب مسكنى كما كان من قبل ، وكانت يدى تهتز وترتعش عندما أخرجت من جيبى المفتاح الصغير الذى اعتدت ان افتح به .. غير انى ادرت المفتاح بثبات فى القفل وفتحت الباب ثم دخلت ، فقابلت ثلاثة ازواج من الاعين تنظر الى بدهشة وفيما هو أقرب الى الجزع ، وكانت لابى وامى وهما يتناولان طعام الافطار .. لكن كان ثمة شخص ثالث لم اره من قبل فى حياتى ، وكان مخلوقا بدينا بالقميص والحمالات ، وقد تربع كأنه فى بيته ياالخوانى يحتسى الشاى باللبن ويقضم التوست والبيض .. وكان هذا الدخيل الغريب هو الذى تكلم اولا ، اذ قال :

— من أنت ياصاحبى ؟ ومن أين لك بالمفتاح ؟.. اخرج ، قبل ان احطم وجهك !.. اخرج اولا ثم دق الباب !.. اشرح طلبك ، بسرعة !..

جلس ابى وامى وكأنهما سمرا فى مكانهما ، وقدرت انهما لم يطلعا على الجريدة بعد ، ثم تذكرت ان الجريدة لا تصل اليهما الا بعد ذهابهما الى العمل .. ولكن أمى لم تلبث أن قالت :

— اواه !.. انت هربت !.. انت هربت !.. ماذا سنعمل الان ؟! .. سياتى البوليس الى هنا ، اواه ، اواه ، اواه ، أيها الولد الفاسد الشرير ، الذى فضحت عائلتك على هذه الصورة !!..

وانخرطت فى البكاء .. وهكذا رحت أحاول الشرح والبيان ، وقلت انه يمكنهما الاتصال تليفونيا بالسجن اذا ارادا .. وخلال هذا كله كان ذلك الغريب جالسا فى مكانه عابسا وكانه يفكر فى تهشيم فمى بقبضته المشعرة الحيوانية ..

وهكذا رحت اقول له :

— ما رايك انت ياأخ فى ان تجيب على بعض الاسئلة ؟.. ماذا تفعل هنا ، والى متى ؟.. انا لا اهضم الكلام الذى تفوهت به الان !.. حاسب ! هيا ، رد !..

كانت له هياة العمال ، وكان قبيح الصورة فى الثلاثين او الاربعين من عمره ، وقد جلس مكانه ينظر الى فاغر الفم لا يكاد يفقه كلمة واحدة مما قلت .. وما عتم ابى أن قال :

— هذا كله شيء محير يابنى .. كان يجب أن تدعنا نعرف أنك ستحضر .. وكنا نظن انك ستمضى على الاقل خمس او ست سنوات اخرى قبل ان يدعوك تخرج !..

واضاف بلهجة شبه مكتئبة قائلا :

— ... وليس معنى هذا اننا غير فرحين جدا برؤيتك من جديد ووجودك حرا ايضا ..

فقلت :

— من يكون هذا ؟..

فردت أمى قائلة :

— هذا جو .. وهو يقيم معنا الان .. بصفة ساكن .. ياعينى !.. ياعينى !.. ياعينى !..

وقال المدعو جو :

— ياهذا !.. اننى سمعت كل شىء عنك ياولد .. واعرف كل مافعلته ، وحطمت بسببه قلب ابويك المسكينين المحرومين !.. الان فقد عدت ؟! .. عدت لتجعل الحياة تعاسة وشقاء لهما من جديد ، اهذا ماسيكون ؟.. لن يكون هذا الا على جثتى ، لانهما سمحا لى ان اكون مثل ابن لهما ، اكثر من مجرد ساكن !..

كدت اضحك عاليا من هذا الكلام لولا ان شعرت بالغضب فى داخلى يثير فى التهيؤ للقىء ، فان هذا المخلوق كان فى مثل سن ابى وامى ، وها هوذا الان يحاول ان يضع يدا حانية كابن حول امى الباكية ، ياالخوانى !..

قلت وانا اشعر باننى أكاد انهار باكيا :

— هذا هو الحال اذن !.. لا بأس .. اننى أمهلك خمس دقائق كبيرة لاخراج حاجياتك الحقيرة من غرفتى ..

واسرعت الى هذه الغرفة قبل أن يتحرك هذا المخلوق لكى يستوقفنى لبطء حركته .. وما أن فتحت الباب حتى كاد قلبى ينخلع اذ رايت أنها لم تعد غرفتى بحال ياالخوانى !.. كانت الرايات الخاصة بى قد رفعت كلها عن الحوائط ، ووضع هذا المخلوق مكانها صور ملاكمين ، وايضا صورة فريق جلس كالاصنام مشبك الايدى ، وامامه شبه درع فضية .. ثم أبصرت بعد ذلك ماطرا من نفسى .. فان (الاستيريو) ودولاب اسطواناتى لم يعد لهما وجود ، ولا صندوق كنزى المغلق المحتوى على الزجاجات والعقاقير وحقنتين نظيفتين جديدتين .. وهكذا صرخت :

— هناك عمل قذر حقير تم هنا !.. ماذا فعلت بحاجياتى الشخصية ياابن الحرام الشنيع ؟..

كان الخطاب موجها الى ذلك المدعو جو ، غير ان ابى هو الذى
تولى الرد قائلا :
— كل هذه الاشياء قد اخذها البوليس يابنى .. تبعا للوائح
الجديدة الخاصة بالتعويض للضحايا ..
كان من أشق الامور الا يصيبنى الغثيان ؛ ولكن راسى مسه
صداع عنيف واشتد جفاف حلقى حتى اضطررت الى اخذ رشفة
من زجاجة اللبن التى كانت على المائدة ؛ الى حد ان المدعو جـو
قال :

— اخلاق خنازير قذرة !..
اما انا فقلت تعقيبا على كلام ابى :
— لكنها توفيت .. تلك العجوز صاحبة القطط توفيت !..
فقال ابى وهو اقرب الى الاسى :
— المسألة كانت متعلقة بالقطط ، التى تركت دون ان يعنى
بها احد الى ان فتحت وصية العجوز ، وهكذا تعين عليهم أن يخصصوا
شخصا لاطفالها .. وهكذا باع البوليس حاجياتك من ملابس وغيرها
للمساعدة فى تدبير النفقات من اجل القطط .. هذا هو القـانون
يابنى .. لكنك لم تكن ابدا ممن يتبعون القانون !..
اضطررت ان اجلس ، بينما قال ذلك المدعو جو :
— استأذن قبل الجلوس ، ايها الخنزير الصغير المجرد من
الاخلاق !..

فرددت عليه بسرعة وعنف :
— سد فتحة فمك الواسعة القذرة ياهذا !..
ومن ثم حاولت ان اكون معقولا ومبتسما ، من اجل صحتى ،
وهكذا قلت :

— لا بأس .. هذه غرفتى ، ولا نكران لذلك .. وهذا بيتى
ايضا .. ماهى الاقتراحات التى عندكم ياابى وامى ؟..
غير انهما لزما الصمت والوجوم ، وكانت امى تهتز شيئا ما
وقد استحال وجهها الى تجاعيد بللتها الدموع ، وما لبث ابى ان
قال :

— كل هذا يحتاج الى تفكير يابنى .. لايمكننا ان نطرد جو
هكذا .. أهذا ممكن فعلا ؟.. ان جو مرتبط بعقد عمل لمدة سنتين ،
وقد رتبنا الامور بناء على ذلك .. أعنى يابنى اننا فكرنا انك ستمضى
فى السجن مدة طويلة ، وغرفتك خالية (تشحذ) من يشغلها !..
بدا أبى خجلا كما دلت على ذلك قسمات وجهه ، وهكذا لم

اجد الا أن ابتسم مومئا براسى ، وقلت :
— رأيت كل شيء .. انكم اعتدتم راحة البال ، واستطبتم
بعض النقود الاضافية !.. هذا هو الموقف !.. ولم يكن ابنكم الا
مصدر متاعب شديدة لكم !..
وصدقونى ياأخوانى اذا قلت اننى شعرت اذ ذاك بالرثاء لنفسى
والرغبة فى البكاء .. وعندئذ قال ابى :
— ربما ترى يابنى ان جو دفع ايجار الشهر القادم ، ومهمـا
يمكن ان نفعل مستقبلا فلا يمكننا ان نطلب من جو أن يذهب ، هل
هذا ممكن ياجو ؟..
— ان واجبى يجعلنى أفكر فيكما انتما الاثنين ، يامن كنتما
مثل اب وام لى .. فهل من الصواب والعدل ان انسحب واتركمـا
تحت رحمة هذا الوحش الصغير الذى لم يكن ابنا بارا بأى حال !؟.
انه يبكى الان .. لكن هذا مكر وتصنع منه !.. دعوه يذهب ويبحث
له عن غرفة فى اى مكان !.. دعوه يتعلم جزاء اخطـائه وتصرفاته
ويعرف ان ولدا فاسدا مثله لا يستحق ان يكون له اب وام مثلمـا
كنتما له !..
وهنا نهضت قائما والدموع لاتزال فى عينى ، وقلت :
— لا بأس .. قد عرفت حقيقة الموقف الان .. لا احد يريدنى
او يحبنى !.. اننى قاسيت وقاسيت وقاسيت ، وكل واحد يريد
ان أستمر فى المعاناة والعذاب !.. عرفت هذا فعلا !..
فقال ذلك المدعو جو :
— انك جعلت الاخرين يعانون .. فمن العدل ان تعانى بالمثل..
انهم اخبرونى بكل مافعلته فى جلوسى هنا الليالى حول مائدة الاسرة ،
وكان شيئا مروعا ان اسمع ما سمعت !.. انه جعلنى اتقزز فى
الواقع !..
— ياليتنى عدت الى السجن ، انه أرحم بى منكم !.. انا ذاهب
الان !.. ولن ترونى ابدا بعد هذا !.. ساشق طريقى بنفسى !..
شكرا لكم ثم شكرا !.. لتقع التبعة على ضمائركم !.
فقال أبى :
— لا تنظر الى الامور هكذا يابنى ..
ذلك وقد اجهشت أمى بالبكاء والتوت ملامح وجهها ، بينمـا
عاد ذلك المدعو جو يضع يده حولها مربتا عليها مواسيا لها .. وهكذا
اتجهت الى الباب مترنحا وخرجت ، تاركا اياهم ياأخوانى يتحملون
عواقب جرحهم الفظيع !..

الفصـــل الثـانى

خرجت الى الشارع اسير بلا هدف وعلى غير هدى ياإخوانى ، وانا بتلك الملابس الليلية التى راح الناس يحدقون فيها وأنا امر بهم فى ذلك اليوم الشتوى القارس البرد ، وكل ما كان يساورنى هو ان اباعد بينى وبين كل هذا والا افكر فى اى شيء على الاطلاق .. وهكذا ركبت الاتوبيس الى منطقة (سنتر) ، ومنها عدت سيرا الى (تيلور بليس) حيث يوجد محل بيع الاسطوانات (ميلوديا) الذى اعتدت أن أتحفه بطلباتى المتواضعة .. وقد بدا لى ياإخوانى كالعهد به فى الماضى ، ولما دخلت اليه توقعت أن ارى صاحبه (آندى) الاصلع النحيل الذى كان يخف الى تلبية رغائبى .. لكن لم يكن هناك آندى ياإخوانى ، وانما سمعت صياحا وضوضاء من (النادسات) المراهقين فتيانا وفتيات يستمعون الى اغنيات (البوب) الشنيعة الشائعة ويرقصون على نغماتها ايضا ، وكان الجالس خلف (الكاونتر) هو احد فتيان (النادسات) ذاته ، ينقر بأصابعه باسما متهللا .. وهكذا تقدمت اليه وانتظرت الى أن يتنازل لملاحظة وجودى ، وعندئذ قلت له :

– اود ان استمع الى اسطوانة موتسارت رقم ٤٠ ..

ولا ادرى لماذا خطرت هذه الاسطوانة فى ذهنى ، ولكن هذا ماكان .. فقال لى :

– ٤٠ ايه ياصاحبى ؟..

فأجبت قائلا :

– السيمفونية رقم ٤٠ ..

فتدخل واحد من فتيان (النادسات) الراقصين وكان فتى مسدل الشعر على العينين ، قائلا :

– أوه !.. (سيمفونا) ؟.. الا يبدو هذا مضحكا ؟.. انه يريد (سيمفونا) !..

شعرت بالغضب يثور فى دخيلتى ، لكن كان لابد أن أحذر هذا ،

وهكذا ابتسمت للشاب الذى حل محل آندى وللفتيان والفتيات الراقصين والراقصات .. فقال لى صاحب المحل :

– ادخل الى كشك الاستماع هناك ، وساوصلك بما تريد سماعه ..

وهكذا يممت شطر الكشك الذى يمكنك أن تستمع فيه الى الاسطوانات التى تريد شراءها ، ووضع الشاب اسطوانة لى ، غير انها لم تكن اسطوانة (موتسارت ٤٠) ، وانما اسطوانة (موتسارت براج) ، والظاهر انه وضع اية اسطوانة لموتسارت وجدها على الرف ، مما كان لابد ان يثير غضبى ، وتعين على أن احذر هذا خوفا من شعورى بالغثيان ، والالم ، ولكننى نسيت شيئا ما كان يجب ان انساه ، وهو أن هؤلاء الاطباء الماكرين قد رتبوا الامر بحيث تؤدى اية موسيقى عاطفية الى ان تبتعث عندى الغثيان كلما شاهدت او أردت ارتكاب اى عنف .. والسبب هو ان أفلام العنف التى شاهدتها كانت تقترن بالموسيقى ، وقد تذكرت بصفة خاصة ذلك الفيلم الفظيع عن النازية وما اقترن به من موسيقى بتهوفن .. والان هاهى موسيقى موتسارت تبدو فظيعة فى سمعى .. وهكذا اندفعت خارجا من الكشك للتخلص من اعراض الغثيان والالم التى كانت توشك ان تلم بى ، واندفعت الى خارج المحل ذاته واولئك الفتيان (النادسات) يضحكون فى أثرى وصاحب المحل يقول لى : ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا .. غير اننى لم أعبأ بأحد وابتعدت مترنحا كأعمى عبر الشارع واستدرت عند الناصية لكى اقصد الى (مشرب لبن كوروفا) .. فقد عرفت ما اريد ..

كان المشرب شبه خاو اذ كان الوقت لايزال صبحا .. وقد بدا غريبا فى نظرى ، بعد ان طلوه برسوم ابقار حمراء تخور ، ومن خلف (الكاونتر) قام شخص لا أعرفه .. ولكن عندما طلبت (لبنا مقوى كبيرا) عرف ذلك الشخص النحيل الحليق الوجه مطلبى ، فأخذت كأس اللبن المقوى الكبير الى احدى المقاصير الصغيرة الممتدة بدوران المحل والمحجوبة بالستائر .. حيث جلست فى احد المقاعد المحشوة ورحت أحتسى وأحتسى .. وبعد أن اتيت على الشراب كله بدأت أشعر بأن كل شيء يتغير ..

ألفيتنى قد سمرت عينى فى قطعة ورق مفضض متخلفة من علبة سجائر ملقاة على الارض ، اذ كانوا لا يعنون بالكنس فى هذا المحل .. وقد اخذت القصاصة المفضضة تكبر فى نظرى وتكبر ،

ياالخوانى ، حتى استحالت الى كتلة نارية متوهجة جعلتنى اطرف بعينى .. واستمرت تكبر وتكبر حتى ملأت ليس فقط المقصورة التى جلست فيها بل مشرب كوروفا كله ، ثم امتدت فشملت الشارع ، ثم المدينة بأسرها ، ثم الدنيا جمعاء !.. ورايتنى اتفوه بكلام غير مفهوم لا ادرى كنهه .. ثم استحال اللون المفضض الى الوان شتى لا حصر لها ولم تكتحل بها عين بشر من قبل .. ثم بدا لى اننى ابصر مجموعة من التماثيل تتراءى عن بعد سحيق ولكنها تقترب من مكانى وانية دائبة ولها ضوء باهر يشيع فيها من اعلى واسفل وعن يمين وشمال ياالخوانى !.. كانت تبدو كأطياف سماوية نورانية ولكن لها لحى وأجنحة تخفق من حولها فيما هو فضاء علوى ، ولها أعين تتحرك وتدب فيها الحياة ، وقد زاد اقتراب الاطياف منى حتى شعرت كأنها تطبق على وتكاد تهصرنى .. ثم أحسست اننى انزع عنى كل شىء : الملابس ، والجسد ، والعقل ، والاسم — كل أولئك قد تجردت منه وانسلخت عنه ، حتى لقد احسست كأننى فى السماء !.. وبعدها خلت بكل شىء كأنه يتصدع ويتهاوى ، وفى النهاية تلاشت الاضواء والاطياف واستحالت الى برودة ، واذا انا كما كنت من قبل ، أمامى كأس فارغة على المائدة ، وبى رغبة جامحة للبكاء ، واحساس بأن الموت هو الجواب الوحيد لكل شىء !..

وهذا هو المطلوب .. هذا هو الذى رأيت بجلاء انه الشىء الذى يتعين أن افعله .. لكن على اى وجه افعله ؟ ذلك مالم اعرفه تماما ، اذ لم أفكر فيه من قبل ياالخوانى ... فى حقيبتى الصغيرة التى بها حاجياتى كانت مطواتى قرن الغزال ثاوية ، غير أننى شعرت فى الحال بغثيان شديد عندما فكرت فى طعن نفسى بها فيتدفق دمى القانى غزيرا .. ان ماكنت اريده لم يكن شيئا عنيفا ، ولكن شيئا يجعلنى انتهى بنوم رفيق ليكون فى هذا خاتمة حياة محدثكم المتواضع ، فلا تحدث بعد ذلك متاعب لاى انسان .. وقد خطر لى اننى اذا عرجت على المكتبة العمومية القريبة فقد أجد بها كتابا يرشدنى الى افضل طريقة لاختتام حياتى بغير الم .. وتصورت نفسى ميتا وكيف يحزن كل أحد لنهايتى : أبى وامى وذلك المدعو جو الحقير المغتصب ، وكذلك الدكتور برودسكى والدكتور برانوم ووزير الداخلية ذاك ، ومن اليهم من الناس !.. ومن بعدهم الحكومة السنية المتفاخرة بما حققت من أعمال !..

وهكذا خرجت الى الشارع فى برد الشتاء هذا القارس ، وكان الوقت الان يناهز الثانية بعد الظهر كما رأيت بنظرة الى ساعة

الميدان ، ومعنى هذا انى كنت فى عالم (اللبن المقوى) وقتا اطول كثيرا مما كنت اظن !.. والان فقد رحت اقطع (مارجانيتا بوليفار) سيرا على القدمين ثم دلفت منه الى (بولبى افينو) وانعطفت اخيرا حول الناصية ، واذا انا امام المكتبة العامة ..

كان المبنى متينا ذا رواء ولم اتذكر اننى زرته منذ ان كنت صغيرا فى سن السادسة .. وكان منقسما الى قسمين : قسم لاستعادة الكتب وقسم للمطالعة ، وهذا القسم ملىء بالجرائدوالمجلات وقراء كثيرين من اناس مسنين تنضح اجسادهم بالشيخوخة والفاقة .. وكانوا واقفين امام حوامل الصحف الممتدة حول القاعة يعطسون ويتجشاون ويهمهمون لانفسهم ويقلبون الصحائف لقراءة الاخبار فى كآبة ، ومنهم من جلسوا الى المناضد يتصفحون المجلات او يتظاهرون بالاطلاع عليها ، وبعضهم نائم ومنهم من يغط فى النوم ..

واول الامر لم استطع ان اتذكر ماجئت اطلبه ، ثم تذكرت مصدوما اننى جئت الى هنا لكى أهتدى الى وسيلة اختتم بها حياتى دون الم !.. وهكذا اتجهت الى رف المراجع ، فوجدته مليئا بالكتب ، ولكن ليس بينها ياالخوانى مافيه عنوان يرشدنى الى ضالتى المنشودة .. وتناولت كتابا فى الطب اخذت أتصفحه ، غير انه كان حافلا بالرسوم والصور الفوتوغرافية لجروح وامراض بشعة مما تقززت به نفسى .. هكذا جلست فى مقعد استريح وانا منقبض النفس اكاد ابكى ، واذا رجل مسن فى المقعد المواجه يقول لى :

— ماذا بك يابنى ؟.. ماهى مشكلتك ؟..

فقلت :

— اريد ان انتهى !.. لقد شبعت من الحياة حتى أصبحت لا تحتمل !..

فقال قارىء بجانبى كان يقرأ مجلة مليئة برسوم هندسية دون ان يرفع رأسه :

— صمتا !..

ان المجلة والقارىء دقا جرسا فى ذهنى لم اتنبه له أول الامر ، بينما قال محدثى تعقيبا على كلامى :

— انت صغير جدا لمثل ماتقول يابنى .. ياللعجب ، الحياة أمامك ممتدة عريضة بها كل شىء !..

فقلت بمرارة :

— نعم .. مثل جسم املس الظاهر متقيح الباطن !..

فقال قارىء المجلة مرة اخرى وهو يرفع راسه هذه المرة :
– صمتا :
وتلاقت نظراتنا .. فعرفته على الفور .. اما هو فقد قال بلهجة مستطيرة :
– أنا لا انسى ابدا شكل اى انسان !.. والله ايها الخنزير الصغير لقد وقعت فى يدى الان !..
(علم البللوريات) !.. نعم .. كانت الكتب المصنفة فى هذا العلم هى التى حملها ذلك الرجل المبن فى تلك الليلة بعد استعارتها من المكتبة !.. فحطمت اسنانه .. ومزقت ملابسه وكتبه عن علم البللوريات !..
رايت انه لابد لى من الانسحاب من هنا بأسرع ما يمكن ياأخوانى !.. غير ان هذا العجوز نهض قائما وراح يصرخ فى أرجاء القاعة مستنجدا بروادها جميعا من قارئى الصحف والمجلات والمصطفين حول المنضدة والنائمين أيضا قائلا :
– وقع فى أيدينا !.. الخنزير الصغير السام الذى اتلف كتب علم البللوريات ، تلك الكتب النادرة التى لن يجود الزمان بمثلها !.. هو الان هنا بيننا وتحت رحمتنا !.. هو وعصابة ضربونى وداسونى بالاقدام وجردونى من ملابسى وانتزعوا أسنانى !.. انهم هزاوا من دمى المسفوح وتأوهاتى الحزينة .. انهم جعلونى اهرب الى بيتى مشدوها عاريا !..
لم يكن هذا كله صحيحا ياأخوانى كما تعرفون مما سلف ، اذ كانت تستره بعض ملابسه ، ولم يكن عاريا تماما !..
لم اتمالك ان اخذت أصرخ مثله قائلا :
– كان هذا منذ سنتين .. وبعدها نلت عقابى !.. اننى تعلمت درسا .. انظروا فى الجرائد !.. صورتى فيها !..
وقال واحد منهم عليه طوالع جندى سابق :
– عقاب ؟! .. امثالكم يجب استئصالهم !.. مثل كثير من الحشرات الضارة !.. (عقاب قال) !؟ ..
فقلت :
– لا بأس .. لا بأس .. كل واحد حر فى رايه .. سامحونى كلكم .. لابد ان اذهب الان ..
وتحفزت للخروج من عش المسنين هذا وقد سطع فى ذهنى اسم فجأة : الاسبرين !.. نعم هذا هو المطلوب !.. بامكانى ان انهى

حياتى بمائة قرص اسبرين .. اسبرين من مخزن الادوية .. بيد ان صاحب علم البللوريات عاد يصرخ :
– لا تتركوه يذهب !.. سنعلمه ماهو العقاب ، هذا الخنزير الصغير القاتل !.. امسكوه !..
وصدقونى ياأخوانى ان اثنين او ثلاثة من هؤلاء الطاعنين فى السن ، حوالى تسعين سنة عمرا ، امسكونى بأيديهم المرتعشة ، حتى قززتنى روائح المرض والشيخوخة التى كانت تفوح منهم .. وكان اسبقهم صاحب علم البللوريات الذى راح ينهال باللطمات على وجهى وانا احاول الابتعاد والخروج عبثا ، لكن هذه الايدى العتيقة التى كانت ممسكة بى كانت أقوى مما كنت اظن .. ومن بعدهم اقبل قراء الجرائد يتطاوحون لكى يأخذوا نصيبهم من تأديب محدثكم المتواضع ياأخوانى !.. وراحوا جميعا يصرخون بهذه النداءات :
– اقتلوه !.. دوسوه بالاقدام !.. انزعوا اسنانه !..
لقد فهمت السبب .. كانت هى الشيخوخة تحاول أن تنتقم من الشباب ..
هكذا أطبقوا على من كل جانب ياأخوانى وفى طليعتهم صاحب علم البللوريات يكيل لى اللطمات تباعا دون أن اجسر على أن اكيل لهم بنفس الكيل ، والا تعرضت للشعور بالغثيان والالم الشنيع .. لكننى على الرغم من ذلك كنت أشعر والعنف يدور من حولى وبحف بى أن الغثيان آت لا محالة ..
وعندئذ اقبل أحد المشرفين وكان شابا فصاح قائلا :
– ماذا يجرى هنا ؟.. كفوا عن هذا فى الحال .. هذه قاعة للمطالعة !..
لكن أحدا منهم لم يعبأ به ، فقال على الاثر :
– لا بأس .. سأتصل بالشرطة .. تليفونيا ..
وهكذا صرخت بدورى وكنت اظن أننى لن افعل مثل هذا فى حياتى :
– نعم !.. نعم !.. افعل هذا !.. احمنى من هؤلاء العجائز المجانين !..
ولاحظت ان ذلك المشرف لم يكن متحمسا للمشاركة فى المعمعة وانقاذى من غضب وجنون أولئك المسنين ومن مخالبهم .. كل مافعله هو انه إنسحب الى مكتبه او الى مكان التليفون .. والان كان هؤلاء العجائز يلهثون كثيرا ، وشعرت أن بوسعى أن أتملص منهم فيتساقطون

على الارض ، غير اننى تركت نفسى مقيدا بينهم ، صابرا الى اقصى حد ، مغمض العينين ، شاعرا بضرباتهم الواهنـــة على وجهى ، مستمعا الى صرخاتهم اللاهثة وانفاسهم المتقطعة وهم يقولون :

ـ ياللخنزير الصغير .. ياللقاتل الوغد !.. ياللمجرم قاطع الطريق !.. اقتلوه قتلا !..

وعندئذ تلقيت لطمة اليمة على انفى حتى لم اتمالك ان قلت لنفسى : ليذهبوا الى جهنم !..

وفتحت عينى واخذت أصارع لاسترداد حريتى مما لم يكن بالامر العسير ياخوانى ، وتملصت مبتعدا عنهم الى الردهة خارج قاعة المطالعة ...

لكن هؤلاء المنتقمين العتاة جدوا فى أثرى وهم يلهثون ويشهقون كمن هو على وشك الموت ، مشرعين مخالب أيديهم الراعشة للاطباق من جديد على صديقكم ومحدثكم المتواضع .. ثم لم البث أن تعثرت بسببهم وسقطت على الارض لكى يرفسونى بالاقدام ، وبعدها سمعت أصواتا شابة تصيح بهذه الكلمات :

ـ لا بأس !.. لا بأس !.. توقفوا الان !..

فعرفت أن رجال الشرطة قد حضروا ..

الفصـــــل الثـالـث

كنت فى غاية الدهشة ياخوانى ، ولم استطع ان ابصر جيدا ، غير اننى كنت متأكدا اننى قد التقيت برجال الشرطة هؤلاء فى مكان ما قبل الان .. ان الشرطى الذى امسك بى لدى باب الخروج من المكتبة وهو يقول (كفى ، كفى ، كفى) ـ لم يكن معروفا لى تماما ، لكن بدا لى أنه صغير السن ليكون من الشرطة .. لكن الاثنين الاخرين تأكدت من ظهريهما اننى رايتهما من قبل .. كانا يلوحان بكرباجين صغيرين تهديدا وتخويفا لاولئك العجائز فى شبه مرح وشماتة ، قائلين :

ـ كفى ايها الاولاد الاشقياء .. لابد أن يعلمكم هذا أن تكفوا عن الشغب ومخالفة القانون ، ياأشرار ومعتدون ..!

وهكذا ردوا أولئك المنتقمين اللاهثين الشاهقين الموشكين على الموت الى قاعة المطالعة ، ثم انثنوا وهم يبتسمون سرورا وتفكهـــا للنظر الى . وقال اكبرهم :

ـ جميل !.. جميل !.. بديع !.. بديع !.. اليس هـذا اليكس الصغير !؟ .. لم نرك منذ مدة طويلة ايها الزميل !.. كيف الحـال ؟..

كنت كالمشدوه ، فان الكسوة الرسمية وخوذة الراس من الصعب ان أبصر من هو هذا ، وان كان الوجه والصوت معهودين لى تماما .. ثم نظرت الى زميله الذى كان متهلل الوجه ، فلم يبق فى نفسى اى شك .. ثم قلبت النظر مرة اخرى الى أولهما الذى قال (جميل وبديع) فاذا هو بيليبوى غريمى القديم ، أما الاخر فكان بالطبع ديم ، ذلك الذى كان رفيقى السالف والعدو أيضا لبيليبوى ، ولكنه الان شرطى بكسوة وخوذة وكرباج صـــــغير لحفظ الامن والنظام !..

قلت : آه !.. كلا !..

فهتف ديم وهو يقهقه قهقهته التى اتذكرها تماما :

ـ مندهش ؟.. ها !.. ها !.. ها !..

فقلت : هذا مســــتحيل !.. لا يمكن أن يكون هذا .. انا لا أصدقه !..

فقال بيليبوى مبتسما كمن يكشر عن أنياب :

— كل شيء واضح للعيان .. لا خداع ولا غش ولا سحر ايها الزميل .. هو عمل لاثنين بلغا سن العمل .. في الشرطة ..

فقلت : انتما صغيران جدا .. اصغر كثيرا .. ان الشرطة لا تقبل فتيانا من سنكم !..

فراح ديم الشرطي يقول :

— كنا صغارا ...

لم أستطع ياإخواني أن أهضم هذا أو أصدقه ، بينما مضى يقـول :

— كنا صغارا يازميلي الصغير .. وكنت انت اصغرنا جميعا .. وها نحن أولاء هكذا الان ..

فقلت : مازلت لا أصدق ..

وما لبث بيليبوى — الشرطي بيليبوى الذى لم استطع ان اتقبله — مالبث أن قال للشرطي الثالث الممسك بي والذى لم اكن اعرفه :

— أظن اننا نحسن صنعا ياركس اذا خرجنـــا قليلا عن الاجراءات المعتادة .. الاولاد سيبقون دائما أولادا ، ولا لزوم لكي نتبع اللوائح المعروفة هذه المرة .. هذا الشخص قد عاد الى عاداته القديمة كما نتذكر نحن ، وان كنت انت لا تتذكر طبعا .. ها قد رايناه يعتدى على المســنين العزل ، وكانوا محقين في الاقتصـــاص منه .. لكن لابد لنا ان نتبع اسلوبنا نيابة عن الحكومة ..

فقلت وانا لا اكاد اصدق اذني :

— ماهذا كله ؟.. انهم هم الذين اعتدوا على ياإخواني !.. أنتم لستم في صفهم ولا يمكن ان تكونوا !.. لا يمكنك هذا ياديم .. انه كان شخصا تلاعبنا به في الايام السالفة وحاول الان أن ينتقـم لنفسه بعد كل تلك المدة الطويلة ..

فقال ديم :

— مدة طويلة فعلا .. انني لا اتذكر تلك الايام .. ولا تقل لي ديم ايضا .. قل ياحضرة الضابط !..

وقال بيليبوى مؤمنا على ذلك الكلام ، وكان الان اقل سمنة :

— مع ذلك نتذكر مافيه الكفاية .. ان الفتيان الاشقياء الذين يتداولون المطاوى الحادة يجب قمعهم !..

واطبقوا على بشدة وأخرجوني عنوة من المكتبة .. وكان ثمـة

سيارة شرطة للدورية منتظرة في الخارج ، كان سائقها ذلك المدعو ركس .. فدفعوا بي الى جانب السيارة الخلفي وانا لا أكاد أصدق الا انهم يمزحون ، وأن ديم لا يلبث أن ينزع خوذته عن رأسه ويضحك مقهقها كعادته .. لكنه لم يفعل .. فقلت محاولا مغالبة القلق الذى انتابني :

وصاحبنا بيتر ؟ ماذا جرى له ؟.. ان ماحدث لجورجي كان شيئا محزنا .. انني سمعت عن هذا ..

فقال ديم :

— بيتر ؟.. آه ؟ نعم ، بيتر .. يخيل الى انني اتذكر هـذا الاسم ..

ولما رأيت انهم يخرجون من المدينة قلت :

— الى اين نحن ذاهبون ؟..

فاستدار بيليبوى من المقعد الامامي قائلا :

— الوقت لايزال نهارا .. مجرد مسيرة الى الريف !.. هنالك الاشجار مجردة في الشتاء ولكنهـا جميلة وجميلة !.. ليس من المستحسن لاهل المدينة ان يشاهدوا عقابنا الخصوصي .. والشوارع لابد أن يحفظ فيها الامن بأكثر من طريقة ..

والتفت امامه مرة ثانية ..

قلت له :

— اسمع !.. انني لا أفهم هذا ابدا !.. ان الايام السالفة قد انطوت وذهبت .. وعن كل مافعلته ـ الماضي قد نلت عقـــابي واصبحت سليما معافى ..

فقال ديم :

— ان الرئيس قرأ لنا كل هذا .. وقال انها طريقة عـــلاج ناجحة ..

فقلت باشمئزاز :

— قرأ لكم ؟.. أمازلت ياأخ على جهلك ولا تعرف القـــراءة لنفسك ؟..

فرد ديم بلهجة اقرب الى الدعة والاسف :

— آه .. لا .. لا تتكلم هكذا ..

وشفع هذا بلطمة عنيفة سـددها الى أنفى ، حتى بدأ الدم ينزف منه

فقلت بمرارة وانا امسح الدم بيدى :

– لم تكن بيننا ثقة ابدا !.. كنت دائما أنفرد بنفسى !..

وقال بيليبوى :

– يكفى الى هنا ..

كنا الان فى الريف حيث بدت الاشجار مجردة ولا يسـمع سوى أصوات طيور متباعدة ؛ وعلى البعد كان ما يشـبه ماكينة زراعية يتردد صدى دورانها .. وقد أقبل المساء اذ كنا فى صميم الشتاء .. وبدت المنطقة خلوا من الناس والحيوان ، فلم يوجـد سوانا نحن الاربعة ..

وقال نعيم : انزل ياأليكس .. مجرد نزهة قصيرة ..

وفى خلال هذا كله كان السائق المدعو ركس جالسا الى عجلة القيادة يدخن سيجارة ويقرأ كتابا بين يديه فى ضوء مصباح السيارة دون أن يهتم بما فعله بيليبوى وديم بمحدثكم المتواضع .. ولن أسهب فى بيان مافعلاه بى ، ولكنه كان ضربات صامتة وأنفاسا لاهثة بين جلبة الماكينة الزراعية الدائرة وأصوات الطيور المتبـاعدة ؛ ذلك والسائق جالس فى مكانه يقلب صفحات الكتاب فى أتم هدوء وسكينة .. وظل الاثنان لا يكفان عن كيل الضربات لى فترة ليست بالقليلة.. وأخيرا قال بيليبوى او ديم اذ كنت لا أتذكر من منهما المتكلم :

– أظن ان هذا يكفى ايها الزميل .. الا ترى هذا ؟..

ثم صوب كل منهما ضربة على وجهى حتى وقعت ولبثت منطرحا فوق الحشائش .. وكان البرد شديدا ولكننى لم اشـعر به .. وما لبث الاثنان ان مسحا ايديهما فى الاتربة ثم لبس كل منهمـا كسوته ووضع خوذته على رأسه وكانا قد نزعاهما ، وأخيرا عادا الى السيارة وبيليبوى يقول :

– سوف نراك مرة اخرى فى مكان ما ياأليكس !..

اما ديم فقد ارسل قهقهته الحيوانية المعهودة .. وأتم السائق قراءة الصفحة التى كان يقرأها ووضع الكتاب جانبا ، ثم ادار محرك السيارة وقادها فى اتجاه المدينة ورفيقى السابق وغريمى السـابق

يلوحان لى بأيديهما .. بيد أننى لبثت منطـرحا فى مكانى منهكا مضعضعا ..

وبعد فترة شعرت بأوجاع شديدة ، ثم نزل المطر لاذعا كالثلج .. ولم أستطع ان أبصر انسانا على مدى النظر ، ولا انوار تنبعث مـن بيوت .. فالى أين أذهب ، انا الذى لا بيت له ولا نقود كثيرة فى جيبه ؟..

لقد أجهشت بالبكاء .. ثم لم ألبث ان استويت قائما ومضيت امشى !..

الفصـــل الرابـــع

البيت !.. البيت !.. البيت – كان ما اريده هو البيت !..
وكان البيت هو الذى وصلت اليه ياإخوانى !..

لقد رحت أمشى خلال الظلام ، متجها لاشطر المدينة بل فى اتجاه الجلبة التى كانت تصدر من الماكينة الزراعية .. وقد أفضى بى هذا الى احدى القرى التى شعرت اننى رايتها من قبل ، لكن ربما كان ذلك لان القرى كلها تتشابه فى الظلام خاصة .. هنا كانت بيوت وما يشبه المشرب ، وعند طرف القرية قام بيت صغير منعزل ، واستطعت ان اتبين اسمه بخط أبيض فوق البوابة : (البيت) ..

وكنت أقطر من البلل بسبب هذا المطر القارس ، الى حد أن ملابسى كانت فى حالة يرثى لها ، وكان شعرى الغزير الذى كان موضع مخارى غابة مبللة مشعثة فوق هامتى ، وكنت واثقا من وجود جروح وكدمات فى وجهى كله ، وشعرت باثنتين من اسنانى مخلخلتين كلما حركت لسانى ، وكانت الاوجاع تشيع فى انحاء جسدى ، هذا الى ما الم بى من عطش شديد جعلنى افتح فمى لكى أتلقى المطر البارد ، وكانت معدتى تتلوى بصوت مسموع طيلة الوقت اذ لم اذق طعاما منذ الصباح ، وما تناولته كان أقل من القليل ياإخوانى ..

فى هذا البيت قد أجد انسانا يسعفنى .. ففتحت البوابة وتقدمت خطوات فى المشى والمطر يستحيل الى زمهرير ، ثم طرقت الباب برفق .. ولما لم يظهر أحد كررت الطرق بصوت أعلا ، وعندئذ سمعت وقع أقدام تقترب من الباب .. وبعدها فتح الباب وقال صوت رجل من الداخل :

– نعم ؟.. ماذا هناك ؟..

فقلت : أسعفنى بالله .. ان البوليس ضربنى وتركنى أموت فى الطريق !.. اناشدك أن تعطينى اى شراب ياسيدى وركنا قرب النار !..

وعندئذ فتح الباب عن آخره ، واستطعت ان ارى فى الضوء والدفء نارا موقدة تتلظى .. وقال رب الدار :

– ادخل ، مهما تكن !.. لطف بك الله ياضحية ، يامسكين .. ادخل ودعنا ننظر اليك !..

وهكذا دخلت أتطوح ، ولم أكن أفتعل هذا تماما ياإخوانى ، فقد كنت اشعر باننى فى أسوأ حال .. وقد وضع هذا الرجل الطيب يديه على كتفى وجذبنى الى داخل هذه الغرفة التى كانت بها النار المستوية ، وفى الحال تعرفت على مكان تلك المدفأة ولماذا كانت كلمة (البيت) المكتوبة على البوابة معهودة لدى .. ونظرت الى هذا الرجل ونظر هو الى فى تعاطف ، والان تذكرته تماما .. وطبعا ما كان يمكنه ان يتذكرنى ، ففى تلك الايام الخوالى التى كنت ورفاقى متحررين فيها من كل شيء وكنا نقوم بالعدوان والانتهاك والعبث ، كنا ليلتها متنكرين تحت الاقنعة .. كان الرجل أدنى الى قصر القامة وفى منتصف العمر ، وكان يضع نظارة على عينيه .. وما لبث ان قال لى :

– اجلس بجانب المدفأة ، وسأحضر لك شيئا من الويسكى والماء الساخن .. مسكين ، مسكين ، مسكين !.. انهم ضربوك ضربا شديدا !..

فقلت له :

– الشرطة !.. كانوا قساة معى بصورة شنيعة ..

فقال وهو يتنهد :

– ضحية أخرى !.. ضحية العصر الحديث !.. سأذهب لاحضار الويسكى ثم انظف جروحك بقدر مايمكن ..

وذهب ... ورحت ادير النظر فى ارجاء تلك الغرفة الوثيرة ... كانت شبه ممتلئة بالكتب ، الى جانب المدفأة وبعض المقاعد ، وكان يمكن ان أقدر انه لا توجد امراة مقيمة فى البيت ... ورايت آلة كاتبة فوق منضدة ، وكمية من الاوراق غير مرتبة ، وتذكرت أن هذا الرجل مؤلف .. كتابه بعنوان (برتقالة بقلب ساعة) كما تذكرت الآن ، وكان من المضحك المبكى أن يعلق هذا العنوان بذهنى ، لكن لابد الا يبدو هذا منى ، اذ كنت الآن فى أمس الحاجة الى الاسعاف والرحمة .. ان اولئك الملاعين أصحاب المبنى الابيض القائم بجوار السجن قد فعلوا بى هذا ، فجعلونى فى حاجة الى من يسعفنى ويمد الى يدا رحيمة ، بل اجبرونى على بذل المساعدة والرحمة من جانبى اذا تقبلهما منى أحد !..

وعاد الرجل قائلا :
ـ ها نحن على استعداد ...
واعطانى كأسا من ذلك الشراب احتسيته على الفور وشعرت
بتحسن .. ثم عكف على تنظيف جروح وجهى ... وأخيرا قال :
ـ لك أن تأخذ حماما دافئا لطيفا سأعده لك ، وبعدها يمكنك
أن تحكى لى حكايتك اثناء عشاء ساخن لذيذ سأجهزه ريثما تأخذ
الحمام !..

أواه يا اخوانى !. كدت ابكى ازاء هذه الشفقة ، واظن انه لابد
قد راى الدموع فى عينى ، اذ انه قال وهو يضع يده على كتفى :
ـ كفى !.. كفى !.. كفى !..
ومهما يكن فانى صعدت الى الدور العلوى واخذت ذلك الحمام
الساخن ... وقد احضر لى بيجاما وروبا مدفأين قرب النار فضلا
عن شبشب مستعمل ... والآن يا اخوانى ، فاننى على الرغم من
الآلام الشديدة التى شملتنى فى كل موضع من جسدى ، شعرت بأننى
سأتحسن عما قريب .. ولما نزلت الى تحت رايت انه قد اعد فى
المطبخ المائدة وعليها السكاكين والشوك ورغيف كبير من الخبز وزجاجة
من الصلصة ، وما لبث ان صنع طبقا من البيض المقلى واعد الى
جانبه قطعا من اللحم المقدد والسجق المليء واقداحا من الشاى
الساخن باللبن ... وكم كان بديعا ان اجلس هكذا فى هذا المكان
الدافىء اتناول الطعام ، ولما كنت اشعر بالجوع الشديد فقد اقبلت
على الطعام بنهم ، واختتمت بقطع عريضة من الخبز كسوتها بالزبد
والمربى من اناءين كبيرين .. وقلت فى النهاية :
ـ انا احسن كثيرا ... كيف يمكن ان أوفيك هذا الصنيع ؟.
فقال لى :

ـ اظن اننى اعرف من انت ... فان كنت من أظنه انت ، فقد
جئت اذن يا صديقى الى المكان الصحيح ... الم تكن صورتك تلك
التى كانت فى الجرائد صباح اليوم ؟. هل انت الضحية المسكينة
لذلك النظام الجديد الشنيع ؟. فان صح هذا ، فاذن هى العناية
الالهية التى ارسلتك الى هنا ... لقد عذبوك فى السجن ، ثم القوا
بك خارجه لكى تعذب على ايدى الشرطة ... ان قلبى لينفطر من
أجلك ، يا ولدى المسكين المنكود !.
لم أستطع يا اخوانى ان اقاطعه بكلمة واحدة ، وان فتحت فمى

على سعته لكى أرد على اسئلته ، بينما استرسل قائلا :
ـ ان الشرطة مغرمة بالمجىء بضحاياها الى اطراف هذه القرية
... لكنها العناية الالهية التى شاءت وأنت ضحية أخرى ان تجىء
الى هنا ... ربما تكون اذن قد سمعت عنى ؟.
كان لابد أن التزم الحذر يا اخوانى ، ولهذا اجبت :
ـ اننى سمعت عن (برتقالة بقلب ساعة) .. اننى لم اقرا
الكتاب ، لكننى سمعت عنه ...
فقال وقد اشرق وجهه كما تشرق الشمس فى سناء بزوغها :
ـ آه ... الآن حدثنى عن نفسك ...
فرحت اقول بكل تواضع :
ـ ليس عندى ما اخبرك به يا سيدى الا القليل ... هناك فتى
أبله صبيانى حرضه اصدقاؤه المزعومون او بالاحرى ارغموه على
اقتحام بيت سيدة عجوز .. ولم يكن فى النية عمل ما يضر ضررا
حقيقيا ... لكن من سوء الحظ ان السيدة اجهدت قلبها الضعيف
بمحاولتها طردى الى الخارج ، ذلك وان كنت على استعداد للخروج
من تلقاء نفسى ، وبعدها توفيت ... وقد اتهمت بأننى المتسبب فى
وفاتها ، وهكذا ادخلونى السجن يا سيدى ...
ـ نعم ، نعم ، نعم ... استمر ..
وبعد ذلك اختارنى وزير الداخلية لاجراء (تجربة لودوفيكو)
على شخصى ...
فقال وقد مال الى الامام اهتماما حتى تلوث مرفقا ذراعيه
بالمربى من الطبق الذى كنت ازحته جانبا ...
ـ حدثنى عن كل هذا ...
وهكذا اخبرته بكل شىء يا اخوانى ... وقد ابدى اهتماما بالغا
بسماع ما قلته وهو لامع العينين منفرج الشفتين فيما كان الشحم فى
الاطباق يتجمد ويزيد تجمدا ... ولما فرغت نهض عن المائدة مومئا
برأسه مرارا وهو يهمهم ، وأخذ يجمع الاطباق والاشياء الاخرى من
المائدة وحملها الى الحوض لغسلها ...
فقلت له : سأفعل هذا يا سيدى بسرور ...
فقال وهو يفتح الصنبور حتى خرج البخار فى نشيش :
ـ استرح .. استرح أيها الفتى المسكين .. انك اذنبت
فيما اظن ، لكن عقابك قد جاوز كل الحدود .. انهم احالوك الى

شيء آخر غير كائن بشرى ... انهم جردوك من كل قوة للاختيار ... انهم قضوا عليك بأن تكون آلة صغيرة لا قدرة لها الا على اداء ما تواضعوا على انه صلاح ... انني أرى عواقب اعمالهم بوضوح ـ في مجال ما يسمونه (التكيف الهامشي) ... والنتيجة ان اشياء مثل الموسيقى والحب والادب والفن ، قد أصبحت عندك الآن مصدرا لا للمسرة بل للألم !..

فقلت وانا ادخن احدى سجائره ذات الفلتر :

ـ هذا صحيح يا سيدى ؟..

فقال وهو يجفف أحد الاطباق شارد الذهن :

ـ انهم يقتطمون دائما أكثر من اللازم .. لكن المقصد الاساسي هو الخطيئة الفعلية ... ان الرجل الذى لا يستطيع الاختيار يبطل كيانه كرجل !..

فقلت : هذا هو ما قاله واعظ السجن يا سيدى ...

ـ هل قال ذلك حقا ؟.. طبعا قاله ... وكان لابد ان يقوله ، كرجل دين ، أليس كذلك ؟.

قال هذا وهو لا يزال يجفف نفس الطبق الذى ظل يجففه منذ عشر دقائق ... ثم استطرد يقول :

ـ سوف يزورنا بعض الاشخاص لرؤيتك غدا ... في ظنى انه يمكن استخدامك أيها الولد المسكين ... أرى انه يمكنك ان تساعد في زعزعة هذه الحكومة التى لا تطاق ... ان تحويل شاب سليم الى (ترس) في آلية الساعة ينبغى الا ينظر اليه بالتأكيد على انه نصر لأية حكومة ، الا الحكومة التى تتباهى بسياستها القمعية !..

قال هذا وهو لا يزال يجفف نفس الطبق ... فقلت :

ـ سيدى ... انك لا تزال تجفف نفس الطبق ... انني اتفق معك يا سيدى بصدد التباهي ... يبدو ان هذه الحكومة شديدة التباهي والمفاخرة ...

ـ آه !.

قالها وكأنه رأى ذلك الطبق لاول مرة ثم وضعه جانبا ، ومضى يقول :

ـ أنا مازلت غير مدرب تماما على الاعمال المنزلية .. كانت زوجتى تقوم بكل هذه الاعمال وتتركني لمباشرة كتابتي ...

فقلت : زوجتك يا سيدى ؟.. هل ذهبت وتركتك ؟.

كنت حقا اريد ان اعرف مصير زوجته ، وانا اتذكر جيدا ... فقال بصوت عال ومرير :

ـ نعم ... تركتني .. انها توفيت .. لقد اغتصبوها وضربوها بوحشية ... وكانت الصدمة شديدة جدا ... وقد حدث هذا هنا في البيت !.

كانت يداه ترتعدان وهو ممسك بالمنشفة ، ثم اضاف :

ـ ... في الغرفة المجاورة ... انني استمددت عزما من فولاذ لكى أستمر في المعيشة هنا ... لكنها كانت تود لى البقاء حيث لا تزال ذكراها العطرة باقية ... نعم ، نعم ، نعم .. يا للمخلوقة المسكينة !.

انني ياإخواني قد استرجعت في ذاكرتى بأتم وضوح كل ماحدث في تلك الليلة البعيدة ، وعندما رأيت دورى فيها ، بدأت اشعر بميل الى الغثيان وسرى الالم الى رأسى ... وقد شاهد الرجل ما اعترانى ، اذ بدا وجهى ممتقعا ، شديد الامتقاع يكاد الدم ينضب منه حتى كان من السهل أن يرى هذا ... فما لبث ان قال لى برقة : مسكين مسكين يا ولدى !. لابد انك مررت بوقت مروع !. كنت ضحية من ضحايا العصر الحديث ، مثلما كانت هى المسكينة التاعسة ...

الفصـــــــل الخـامـــــس

نمت هذه الليلة نوما عميقا يا اخواني دون احلام بتاتا ، وطلع النهار صحوا باردا كالصقيع ، ونفذت الى انفي رائحة فواحة سائغة هي رائحة اعداد طعام الافطار تحت ... وقد استغرقت فترة في تذكر اين انا ، كما يحدث دائما ، لكن سرعان ما تذكرت ، وساورني احساس بالدفء والطمأنينة ... لكن سطع في ذهني وانا ممدد في الفراش انه يجدر بي أن أعرف اسم هذا الانسان الطيب القلب الحامي والحاني كأم ، وهكذا قمت أبحث عن كتاب (**برتقالة بقلب** ساعة) الذى لابد أن يحمل اسمه كمؤلف ... ولما لم يكن في غرفة نومي سوى سرير وكرسي ومصباح ، فقد دلفت الى غرفته المجاورة ، وفيها شاهدت صورة زوجته فوق الحائط في اطار كبير ، فما تمالكت أن شعرت بالغثيان يلابسني بتأثير الذكرى ... لكن كان في الغرفة رفان او ثلاثة صفت عليها الكتب ، ووجدت من بينها ، كما قدرت ، نسخة من كتاب (برتقالة بقلب ساعة) وعلى ظهر الغلاف اسم المؤلف : **ف . الكسندر** ... يا الهي !.. انه اليكس آخر !.. وعندئذ أخذت أتصفح الكتاب وأنا واقف بالبيجاما عارى القدمين ولكن غير شاعر بالبرد بسبب الدفء السارى في كل ما حولي ، ولم استطع أن أدرك ماهية الكتاب .. اذ بدا لي انه مكتوب بأسلوب غريب ، مليئا بالآهات وما اليها ، ولكن ما ظهر لي منه أن كل الناس هذه الايام قد تحولوا الى آلات ، واننا ــ انت وانا وهو الخ ــ اشبه بنبات طبيعي مثل فاكهة ... وقد بدا للمؤلف ف . الكسندر اننا جميعا ننبت على شجرة سماها شجرة الدنيا ، في حديقة الدنيا التي أنبتها الخالق ، واننا خلقنا لتحقيق مشيئته في قيام المحبة ، أو شيء من هذا القبيل ... في الحق يا اخواني انني لم استرح الى هذا الكلام ، وعجبت كيف يفكر ف . الكسندر هكذا الا أن يكون متأثرا بموت زوجته ... لكنه لم يلبث أن نادى علي لكي أنزل ، بصوت طبيعي مليء بالبهجة والمحبة وكل ما يتفرع عليهما ، وهكذا

هبط محدثكم المتواضع الى الدور الارضي ... وقال لي وهو يقلب بيضا مسلوقا ويخرج التوست من الفرن : انك نمت طويلا ... الساعة الآن بلغت العاشرة ... أما انا فقد استيقظت منذ ساعات : اشتغل ...

فقلت له : هل تؤلف كتابا جديدا ؟.

فأجاب : كلا ، كلا ... ليس هذا الآن ..

ولما جلسنا نتناول الافطار الشهي واقداح الشاي الكبيرة عن كثب منا أردف قائلا : كلا .. انني كنت أتكلم تليفونيا مع عدة اشخاص ..

فقلت وانا أغترف البيض بالملعقة الصغيرة دون ان اتحسب في كلامي : كنت اظن انه ليس عندك تليفون ...

فقال وقد بدا متنبها جدا مثل حيوان حذر والملعقة في يده : ولماذا لا تظن ان يكون عندي تليفون ؟.

فقلت : لا شيء ... لا شيء ... لا شيء !.

وتساءلت في نفسي يا اخواني الى اى مدى كان يتذكر المراحل الاولى من تلك الليلة البعيدة وانا واقف لدى الباب أردد الحكاية القديمة وأطلب من زوجته الاتصال تليفونيا لاستدعاء طبيب وردها بعدم وجود تليفون ... لقد رمقني بنظرة مستخبرة ، بيد أنه لم يلبث أن عاد الى رقته وبهجته ومضى يأكل البيض ويقضم ، قائلا :

ــ نعم ... انني اتصلت تليفونيا بعدة أشخاص سوف يهتمون بقضيتك ... بامكانك ان تكون سلاحا فعالا قويا جدا في ضمان ان هذه الحكومة الحالية الشريرة القاسية لن تعود الى الحكم في الانتخابات الوشيكة ... ان أشد ما تباهى به الحكومة هو الكيفية التي عالجت بها الجريمة في هذه الشهور الاخيرة ..

ورمقني بعينيه عن كثب مرة أخرى من فوق بيضته الساخنة حتى تساءلت في نفسي من جديد اكان يستشف الجانب الذي لعبته حتى الان في حياته .. غير أنه عاد يقول : هذه الحكومة التي تجند فتيانا أشداء قساة للعمل في الشرطة ... والتي تدعو الى تطبيق أساليب في (التكيف الاجتماعي) هي غاية في اضعاف النفوس واستنزاف الارادة !..

كل هذه الكلمات المطولة الطنانة كان يقولها يا اخواني وقد لاحت في عينيه نظرات أقرب الى الجنون ...

ثم استطرد قائلا : اننا شهدنا مثل هذا من قبل ، فى البلاد
الاخرى .. وقبل ان نعرف ما نحن صائرون اليه سوف تحل بنا
الدكتاتورية الشمولية بكامل اجهزتها !..

فقلت له وأنا اقضم وابتلع : وأين مكانى فى هذا كله ياسيدى ؟.

فأجاب وما زالت تلوح عليه تلك المسحة الغريبة : أنت ضحية
حية لهذه الخطط الشيطانية ... لابد للناس ، لسواد الشعب ، ان
يعرفوا ، وأن يروا !..

ونهض عن أفطاره وراح يمشى فى المطبخ جيئة وذهابا ، وفيما
بين حوض غسل الاطباق ودولاب المؤونة ، وهو يقول بلهجة مستطيرة:
هل يحبون لابنائهم أن يصيروا الى ماحدث اليك أنت الان . أيتها
الضحية المسكينة ؟.. الا تنوى الحكومة الآن أن تفرز ما هو جريمة
وما ليس بجريمة ، وتمتص الحياة والارادة من كل من يستصوب
مناهضتها ؟..

ثم انحاز الى بعض الهدوء وان لم يعد لاستكمال بيضته ،
واضاف قائلا : اننى كتبت مقالا هذا الصباح بينما كنت أنت نائما ...
وسوف ينشر بعد يوم أو نحوه ، مع صورتك الفوتوغرافية المنكودة
... وسوف توقع بامضائك هذا المقال يا ولدى المسكين ، اذ سيكون
تسجيلا لما فعلوه بك !..

فقلت له : وما الذى ستناله من هذا يا سيدى ؟. اقصد ،
فضلا عن المبلغ الجزيل الذى ستحصل عليه عن المقال ؟.. اعنى لماذا
أنت غاضب وعنيف هكذا ضد هذه الحكومة — اذا جاز لى ان
أتجاسر على هذا السؤال ؟.. فشد بيديه على حافة المائدة وهو يضغط
على أسنانه التى كانت مصفرة بتأثير دخان السجائر : لابد لبعضنا
أن يناضل !.. هناك تقاليد عظمى للحرية لابد من الدفاع عنها !..
انا لست مشايعا للحكومة ... وحيثما أرى عملا شائنا فاننى اسعى
لازالته !.. ان ابناء الاحزاب لا يعنون شيئا فى نظرى !.. فان تقاليد
الحرية هى كل شىء !.. ان سواد ابناء الشعب سوف يتغاضون عن
هذا — أجل وا أسفاه !.. انهم سوف يبيعون الحرية لقاء حياة ادنى
الى الهدوء !.. وهذا هو السبب فى أنه لابد من نخسهم ، ووخزهم !.

وشفع هذا يا اخوانى بأن تناول الشوكة وضربها فى الحائط
ثلاث مرات حتى انثنت ، ثم طوح بها الى الارض ... وأخيرا عاد

يقول بكل رقة : كل جيدا أيها الولد المسكين ... ايها الضحية
المنكودة للعالم الحديث !..

وبدا لى انه يكاد يفقد صوابه وهو يقول : كل !.. كل !.. كل
بيضتى ايضا !.

غير اننى قلت له : وما الذى سأناله من هذا ؟. هل سأشفى
من الحالة التى أنا عليها الآن ؟.. هل سأجد نفسى قادرا على الاستماع
الى السيمفونية الرعوية لبتهوفن دون ان اغشى مرة اخرى ؟.. هل
يمكننى ان أحيا حياة طبيعية من جديد ؟.. ما الذى سيحدث لى
يا سيدى ؟..

لقد نظر الى يا اخوانى وكأنه لم يفكر فى هذا قبل الآن ، وعلى
أى حال فلم يكن هذا بذى بال اذا قورن (بالحرية) وما يماثل هذا
الكلام ، وبدت عليه علائم الاستغراب اذ قلت له هذا ، وكأننى شخص
أنانى حين أريد شيئا لنفسى .. ثم ما لبث ان قال : آه .. كما
قلت لك ، أنت شاهد حى يا ولدى المسكين ... كل افطارك عن
آخره ، ثم تعال وانظر ما كتبته ، لانه سوف ينشر فى صحيفة (ذى
ويكلى ترامبت) مذيلا باسمك ، ايها الضحية المنكودة !..

لا بأس يا اخوانى ... ان ماكتبه كان موضوعا مطولا جدا ،
وباكيا جدا ... ومن قراءتى له شعرت بالاسى للانسان المسكين الذى
أفاض فى سرد عذاباته ومعاناته ، وكيف أن الحكومة قد استنزفت
ارادته ، وكيف انه يتمين على كافة الناس الا يدعوا لمثل هذه الحكومة
الفاسدة والشريرة أن تتبوأ الحكم مرة أخرى ... وطبعا قد أدركت
أن ذلك الانسان المسكين المعذب لم يكن سوى محدثكم المتواضع ...
وفى النهاية قلت : عظيم جدا ... لقد أبدعت الكتابة والتصوير
يا سيدى ... انت (مجدع) يا سيدى !..

فقال وكأنه لم يسمعنى من قبل : ماذا ؟..

فقلت : آه !.. هى كلمة نتداولها فيما نسميه (كلام
الفلاسات) !.. جميع المراهقين يستعملون هذه اللغة يا سيدى !..

وأخيرا ذهب الى المطبخ لغسل الاطباق ، وبقيت بالملابس الليلية
المستعارة ، انتظر ما سوف يفعلون بى ما هم فاعلوه ، اذ لم تكن لدى
خطط لنفسى ، أواه يا اخوانى !..

وفيما كان ف . الكسندر الكبير فى المطبخ سمعنا دقا لجرس

على الباب ، فهتف وهو يخرج من المطبخ مجففا يديه : آه !. هم هؤلاء الناس !. سأذهب اليهم ...

وذهب وادخلهم ، وسمعت حديثا وقهقهة وكلاما عن الطقس الشنيع فى الردهة ، وبعدها دخلوا الى الغرفة ذات المدفاة والكتب والمقال المدبج عن تفاصيل معاناتى ، ولما وقع نظرهم على تفوهوا كلهم بالآه ... وكانوا ثلاثة ، وذكر لى ف . اليكس الكبير اسماءهم : ز . دونين الداخن المصاب بعسر التنفس الذى يسعل باستمرار وهو يعض على طرف السيجارة فى فمه مريقا رمادها على ملابسه ويداه تنفضانه بتبرم ، وهو الى هذا سمين مستدير يلبس نظارة كبيرة ذات اطار سميك ... وروبنشتين الفارع الطول والمهذب لفة وايماءات والمدبب اللحية ... وأخيرا د . ب . داسيلفا الكثير الحركات والذى تفوح منه رائحة عطرة قوية ... ان ثلاثتهم رمقونى بنظراتهم طويلا وبدا عليهم الابتهاج الشديد لرؤيتى ... وقال ز . دولين : لا بأس !.. لا بأس !.. يا له من (اداة) رائعة يمكن ان يكونها هذا الصبى !. واذا لزم الامر ، فيمكن بالطبع ان يظهر أكثر اعتلالا مما يبدو ... اى شىء ممكن فى سبيل القضية ... لا شك انه يمكننا التفكير فى ذلك !.

اننى لم استرح الى هذا الكلام يا اخوانى لما فيه من مساس بشخصى الضعيف ، وهكذا قلت : ما هذا يا حضرات ؟. ماذا تدبرون (لمحسوبكم) الصغير ؟.

وعندئذ سارع ف . الكسندر قائلا : غريب !. غريب !. ان هذه اللهجة تثيرنى !. اننا اتصلنا مع بعض من قبل !. انا متأكد من ذلك !.

وراح يتأمل مقطبا ... فكان هذا نذيرا لى بان التزم الحذر فى كلامى ... وقال د . ب . داسيلفا : اجتماعات عامة بصفة اساسية ، وعرضك على انظار الجمهور سيكون عونا هائلا ... كما أن الاستعانة بالصحافة مسألة مفروغ منها ... وستكون البداية هى كيف ضيعوا حياتك !. لابد ان نلهب القلوب والمشاعر !.

قال هذا وقد كشف عن أسنان ناصعة البياض تباينت مع وجهه الاسمر ، وبدت عليه مسحة شخص اجنبى ...

قلت : لا احد يقول لى ما الذى اجنيه من كل هذا ... لقد عذبت فى السجن ، وطردت من بيتى من قبل والدى والساكن عندهما

القذر الثقيل ، وضربت على ايدى رجال عجائز ، وكدت اقتل على ايدى الشرطة !.. ما الذى سأصير اليه ؟.

وهنا تدخل المسمى روبنشتين قائلا : سوف ترى يا ولد ان (الحزب) لن يكون ناكرا للجميل ... كلا !.. عند نهاية هذا كله ، سوف تعد لك مفاجأةمرضية ... وما عليك الا ان تنتظر وترى !..

فهتفت قائلا : هناك شىء واحد اطلبه !.. وهو ان اكون انسانا طبيعيا سليما معافى كما كنت فى الايام الحلوة ، مستمتعا بالمرح مع رفاق حقيقيين ليسوا مثل من يدعون انهم كذلك وما هم فى الحقيقة الا خونة غادرين ؟. فهل يستطيع اى شخص ان يعيدنى الى ما كنت عليه ؟.. هذا هو ما اريده ، وهذا هو ما اريد أن اعرفه !.

أخذ ز . دولين يسعل ، ثم قال : انت شهيد فى سبيل الحرية ... عليك دور تؤديه ، ولا تنس هذا ... وفى اثناء ذلك سوف نعنى بك ...

واخذ يمسح على يدى اليسرى كما لو كنت ابله معتوها وهو يبتسم ابتسامة سخيفة ... فهتفت قائلا : كف عن معاملتى كأننى اداة لاستخدامها فقط !. انا لست ابله يمكنكم ان تفرضوا عليه ما تريدون ايها الخبثاء !.. ان السذج هم الاغبياء ، وأنا لست واحدا منهم ولن اكونه ؟. هل فهمتم ؟.

فقال ف . الكسندر متأملا : عجبت لهذه اللهجة !.. يخيل الى أننى سمعت مثلها فى مكان ما !.

لم استرح فى الحق لهذه الظاهرة من جانب ف . الكسندر ولا لهيأته اذ ذاك ... ولهذا اتجهت الى الباب للصعود وارتداء ملابسى ثم الاسراع بالخروج ، بينما راح ف . الكسندر يقول وقد انفرجت أسنانه وبرقت عيناه جنونا : أكاد اصدق الآن !. لكن مثل هذه الاشياء مستحيلة !.. وحق القديسين لو انه كان هو لمزقته اربا وحطمته تحطيما !..

وهنا انبرى له د . ب . داسيلفا يربت على صدره وكأنه كلب يريد تهدئته ، قائلا : لقد حدث كل هذا فى الماضى ... وكان الفاعلون اناسا آخرين ... لابد أن نساعد هذه الضحية المسكينة ... هذا هو ما يجب أن نفعله الآن ، متذكرين (المستقبل) و (قضيتنا) !..

فقلت وانا عند قاعدة السلالم : سأصعد لارتداء ملابسى ،

ثم أخرج لما يعنينى ... قصدى اننى ممتن لكم جميعا ، وأمامى
حياتى الخاصة لكى اعيشها ...
والحق يا اخوانى اننى اردت أن اخرج من هنا بأسرع ما يمكن
... غير ان ز . دولين قال : آه ، لا !.. انت عندنا يا صديقى ،
وسنحتفظ بك ... وسوف ترى ان كل شىء سيكون على ما يرام ..
واقترب منى كأنه يريد ان يمسك بيدى مرة أخرى ... وعندئذ
فكرت ، يا اخوانى فى المقاومة والقتال ، ولكن التفكير فى العنف جعلنى
أريد ان اتهاوى واغشى ، وهكذا لزمت مكانى ... ولما انثنيت ولمحت
تلك النظرة الجنونية فى عينى ف . الكسندر اخذت اقول : مهمـا
تقولوا فانا بين أيديكم ، لكن هلموا بنا نبدأ لكى ننتهى يا اخوانى !..
ذلك لان ما كنت اريده الآن هو الخروج من هذا (البيت) ،
اذ بدات اشعر اننى غير مرتاح لنظرات ف . الكسندر بأى حال ...
فقال المدعو روبنشتين : بديع ... البس ملابسك ودعنا نبدأ ...
أسرعت الى الغرفة العليا ولبست فى ثانيتين .. ثم خرجت مع
هؤلاء الثلاثة وركبنا سيارة جلست فيها بين دولين وهو يسعل عن
يمينى ، وروبنشتين عن شمالي ، وتولى د . ب . داسيلفا القيادة ؛
واتجهت بنا السيارة الى المدينة حيث توقفنا بعد مسافة قليلة نسبيا
أمام احدى العمارات السكنية العمالية ، وقال ز . دولين : هنـا
سيكون مقرك ... انزل ..
كانت العمارة شبيهة بمثيلاتها من مساكن العمال ذات لوحات
محفورة فى المدخل ترمز الى كرامة العمل ، وركبنا المصعد الى شقة
علوية مؤثثة تأثيثا طيبا ، بها غرفتا نوم وغرفة ثالثة للمعيشـــة
والعمل والطعام معا ، توسطتها منضدة كانت مغطاة بالكتب والاوراق
والحبر والزجاجات وما الى ذلك ... وقال د . ب . داسيلفا :
هذا هو بيتك الجديد ... عنـدك الطعـام فى دولاب المؤونة ...
والبيجامات فى احد الادراج ... فاسترح ، استرح ايتها الروح
المعذبة !.

فقلت وانا لا اكاد افهم : ايه ؟.
فقال روبنشتين بلهجته المهذبة : لا باس ... اننا سنتركك
الآن ... فهناك عمل أمامنا ... وسنعود اليك فيما بعد ... اشغل
نفسك بقدر ما يمكنك ..
فقال ز . دولين بعد أن سعل مرات : هناك مسألة هامة ...

انك رايت ما الذى حرك الذكريات فى نفس صديقك ف . الكسندر
المعذبة ... فهل ، بمحض الصدفة ـ ؟... بعبارة اخرى ، هل
أنت ـ ؟.. اظن انك فهمت قصدى ... اننا لن ندع المسألة تتطور
الى اكثر من هذا !..
فقلت : اننى كفرت !.. الله يعلم اننى كفرت عما فعلت !..
لقد كفرت ليس فقط عن نفسى بل أيضا اولئك الانذال الذين كانوا
يقولون انهم أصحابى !..
واشتد بى الانفعال حتى شعرت بغثيان يسير ، فقلت : سأتمدد
قليلا ... اننى مررت بأوقات رهيبة ، رهيبة !.
فقال د . ب . داسيلفا : فعلا ، هو كما تقول ..
وهكذا تركونى يا اخواني ... وانصرفوا لشأنهم ، الذى فهمت
انه يتصل بالمسائل السياسية وما اليها ... فاستلقيت فى الفراش
وحيدا وسرى الهدوء من حولى ... لقد تمددت مكانى بعد ان القيت
حذائى وفككت ربطة عنقى وانا فى أتم الحيرة ولا ادرى اية حياة يمكن
ان احياها الآن ... وراحت كل أنواع الصـور تتوارد على ذهنى
لمختلف الاشخاص الذين التقيت بهم فى المدرسـة ، وفى السجن ،
ولشتى الاحداث التى مرت بى ، وكيف انه لم يكن ثمة شخص واحد
يمكن الثقة به والركون اليه فى هذا العالم الواسع ... وفى النهاية
غالبنى النوم يا اخوانى ..
عندما استيقظت سمعت صوت موسـيقى تتسرب من خلال
الحائط عالية ، وكانت هى التى جذبتنى من نومى ... كانت سمفونية
اعرفها تمام المعرفة ولكنى لم اسمعها منذ سنوات عديدة ، وهى
السمفونية رقم ٣ للموسيقار الدنماركى (أوتوسكا دلينج) ، وهى
معزوفة رائعة وعنيفة خصوصا فى المقطع الاول ، وهو ما سرى الآن
الى سمعى ... ولقد اخذت استمع اليها مدى ثوان باهتمام وبهجة ،
لكن سرعان ما اعترتنى بوادر الالم والغثيان ، حتى رحت أتوجع من
اعماقى .. ثم اذا بى أنا الذى طالما احببت الموسيقى وشغفت بها
أزحف خارج الفراش وادق الحائط صارخا : اوقفوها !. اوقفوها !.
بيد انها استمرت ، وبدا كأنها ازدادت علوا ... وهكذا مضيت ادق
الحائط حتى احمرت عقد اصابعى وتسلخ جلدى وانا لا اكف عن
الصياح ، غير أن الموسيقى لم تتوقف ... ثم بدا لى أن اهرب منها ،
فاندفعت من غرفة النوم الى باب الشقة ، غير اننى وجدته موصدا

من الخارج ولا سبيل الي الخروج منها ... وطوال هذا كله كانت الموسيقى تزداد دويا حتى لكأنها تعذيب مستمر دائب يا اخوانى !. وهكذا غرست اصابعى الصغيرة عميقا فى اذنى ، بيد ان قرع الطبول ما فتىء يدوى فى سمعى ... فرحت اقول وقد غلبنى البكاء : رحماك يا اله السماوات !.. ماذا اعمل ؟. اغثنى يارب !.

ولبثت اهيم فى ارجاء الشقة فى كرب من الالم والغثيان وانا اصرخ حتى تكاد احشائى تتمزق وقلبى ينفطر ... ثم لاحت منى التفاتة الى الكتب المكومة فوق المنضدة فى غرفة الجلوس ، فرايت فيها ما يتعين على ان افعله وما كنت اريد فعله الى ان اعترض سبيلى عجائز المكتبة العامة ثم ديم وبيليبوى فى زى رجال الشرطة ... وذلك ان انهى حياتى وانسفها نسفا من هذه الدنيا الشريرة القاسية !. كان ما رايته هو كلمة (الموت) مطبوعة على غلاف احدى النشرات ، وان كان العنوان هو (الموت للحكومة) !.. وكأنى بالقدر اراد أن ييسر مهمتى ، اذ لمحت كتيبا آخر كان على غلافه رسم نافذة مفتوحة وتحتها هذه العبارة : (افتحوا النافذة للهواء الجـديد ، للافكـار الجديدة ، لاسلوب آخر للحياة) ... وهكذا عرفت ان فى هذا ايماءة لى بأن اختم حياتى بالقفز من النافذة ... ربما كانت لحظة الم واحدة ، وبعدها نومة ابدية ، ابدية ، ابدية !.

كانت الموسيقى لا تزال تنبعث مدوية ... وكانت نافذة غرفة النوم مفتوحة ... فاقتربت منها ورايت بنظرة مسقطا لا بأس به الى حيث السيارات والاتوبيسات والمـارة من تحتى ... وعندئذ هتفت بأعلى صوت للدنيا كلها : الوداع !. الوداع !. ادعو الله ان يغفر لى القضاء على حياتى بيدى !..

ثم ارتقيت الى حافة النافذة وصـوت الموسيقى يتبـاعد عن شمالى ، فأغمضت عينى ، وشعرت بالهدوء البارد يلذع وجهى ، ثم قفزت ...

الفصـــل الســـادس

قفزت ياإخوانى ، وهويت على الرصيف الصلد ، غير اننى لم اقض نحبى !.. هذا حق ، والا لما كنت بين ايديكم الان اسرد قصتى !..

يبدو أن القفزة لم تكن من ارتفاع كبير يؤدى الى ازهاق الروح .. لكننى أصبت فى ظهرى وشعرت فيه وفى رسغى وساقى بألم شديد قبلما غبت عن الوعى ياإخوانى ، مع لمحة خاطفة لوجوه اناس يطلون على بدهشة واستغراب !.. وفى تلك اللحظات الخاطفة بين الحياة والموت تجلى لى انه لا احد فى هذه الدنيا البشعة بأسرها كان مواليا لى ، وان تلك الموسيقى التى سرت الى سمعى من خلال الحائط انما كانت مدبرة من جانب أولئك الذين كان يظن ان يكونوا رفاقى الجدد ، وان شيئا كهذا الذى حدث لى كانوا يريدونه ان يحدث طبقا لانانيتهم الشنيعة وسياساتهم التى يتباهون بها !.. كل هذا تجلى لى فى فترة واحد من المليون من الدقيقة قبلما غبت عن الدنيا وعن السماء وعن الوجوه التى راحت تحملق فى مشدوهة !..

أما أين كنت عندما عدت الى الحياة بعد فجوة مديدة سوداء سوداء من الغيبوبة ربما كانت مثل مليون سنة ، فذلك فى المستشفى ولا شك ، فهو ناصع البياض بالغ النظافة تشيع فيه رائحة المطهرات النفاذة .. وقد عدت ببطء الى الوعى الذى دريت فيه من انا واننى مشدود فى الاربطة والضمادات واننى لا أستطيع أن أشعر بأى الم او اى شيء آخر فى جسدى بتاتا .. كان راسى كله ملفوفا بالضمادات، والصقت قطع من الاشرطة حول وجهى ، وكانت يداى فى الضمادات، وشدت عصوات صغيرة الى اصابعى وكأنما كانت ازهارا يراد ان تنمو مستقيمة !.. وكانت قدماى ممدودتين أيضا وتحف بهمـــا الضمادات واقفاص صغيرة من الســلك ، وفى يدى اليمنى قرب الكتف ، كان سائل أحمر يسقط قطرات من قدر زجاجيـة مقلوبة راسا على عقب !.. لكننى لم اكن اســتطيع ان اشعر بأى شيء ياإخوانى !.. وكانت ثمة ممرضة جالسة بجانب فراشي تقرأ فى كتاب

بدا مطموس الطباعة ، وكان لك أن تقدر أنه قصـة ، بسبب كثرة الاقواس بين سطوره ، وكانت تتنفس بعسر . ولهث وهى تقرأ ، فلابد أنها قصة غرامية عنيفة !.. وكانت هذه الممرضة بادية الملاحة ذات ثغر أحمر وأهداب طويلة فوق عينيها ، وكان يبدو لك من تحت ردائها المتيبس نهدان بديعان .. وهكذا قلت لها : ياأختى الصغيرة .. هلا جئت وقاسمت أخاك المسكين مضجعه ؟ » .. غير أن كلماتى لم تخرج من فمى بتاتا ، وكأن فمى قد تصلب وانطبق .. وشعرت بلمس لسانى أن بعض اسنانى لم تعد موجودة .. بيد ان الممرضـة ما لبثت أن وثبت قائمة وألقت كتابها على الارض قائلة : آه !.. هل عدت الى وعيك ؟..

حاولت أن أرد ، بيد أن الكلمات لم تزد مخارج احرف .. فأسرعت خارجة وتركتني وحدى ، ورايت الان اننى فى غرفة خاصة بى ، لا فى عنبر من تلك العنابر الطويلة التى رايت مثلها وانا طفل صغير مصاب بالدفتريا ..

وبدا كأننى لا أقوى على تمالك الوعى طويلا ، اذ يبدو اننى نمت على الاثر .. ولكننى بعد دقيقتين كنت متأكدا ان الممرضـة عادت وصحبت معها أشخاصا فى معاطف بيضاء وأنهم راحوا ينظـــرون مقطبين ومهمهمين الى محدثكم المتواضع .. وكان معهم وانا أؤكد هذا واعظ السجن العتيد الذى ذهب يقول ورائحة الويسكى تفوح منه : أواه ياولدى !.. أواه ياولدى ! لكننى لم اقبل ان اســتمر معهم !.. لم استطع ان أساهم معهم أولئك الملاعين فى فعل ما هم فاعلوه لغيرك من المسجونين التعساء !.. وهكذا انسحبت من بينهم وانتقلت للوعظ فى مكان آخر افضـح فيه نواياهم ، أواه ياولدى المحبوب !..

فيما بعد اســـتيقظت مرة اخرى .. فمن تحسبونى اننى شاهدت سوى أولئك الثلاثة الذين قفزت من شقتهم الى الشارع ؟.. أعنى و . ب داسيلفا ، وروبنشتين ، و ز . دولين .. وكان واحد منهم يقول : أيها الصديق الصغير .. الناس على نار من الغضب .. انك قد قضيت على فرص أولئك الاوغاد المتفـــاخرين فى اعادة انتخابهم !.. انهم ذاهبون راحلون الى الابد والى الابد !.. لقـد خدمت (الحرية) خدمة جليلة !..

فحاولت أن اقول : لو اننى كنت مت لكان ذلك افضل لتحقيق أغراضكم السياسية اللعينة ، أيها المنافقون الغادرون !..

لكن كل ماخرج من فمى كان مجرد حروف مبتورة .. ثم لمحت أحد أولئك الثلاثة ممسكا بقصاصات جرائد ، وكل ما استطعت رؤيته هو صورة شنيعة لى وأنا مخضب بالدماء فوق محفة منقولة ، وعن كثب منها ما يشبه ومضات كاميرات المصورين .. واستطعت بعين واحدة ان اقرأ عناوين بدت مهتزة فى يد الممسك بالقصاصات ، مثل : (صبى ضحية خطة للاصلاح الجنائى) و (الحكومة هى القاتل) — ثم لمحت صورة لشخص آخر كتب تحتها بالخط الغليظ (اخرج !.. اخرج !.. اخرج !..) ، وكانت صورة وزير الداخلية !..

ولم تلبث الممرضة أن قالت : يجب الا تسـببوا له الانفعال على هذه الصورة !.. يجب الا تفعلوا له شـيئا بسبب تعكيره !.. والان لابد ان تخرجوا !..

حاولت انأقول بدورى : اخرجوا !.. اخرجوا !.. اخرجوا !.. لكن لم تصدر منى سوى مخارج حروف مرة أخرى .. ومهما يكن فقد خرج أولئك السياسيون الثلاثة .. أما أنا فقد عدت الى عالم الظلمات من جديد ، تتخلله أشياء كالاحلام .. منها ياأخوانى مابدا لى من ان جسدى قد افرغ مما هو اقرب الى مياه قذرة ثم ملىء مرة اخرى بمياه نظيفة .. ثم تراءى لى كأننى ركبت سيارة اقتنصتها عنوة من صاحبها واخــذت اقودها بنفسى عبر الدنيا ذهابا وايابا والناس فى طريقى يتراكضون مذعورين صارخين وليس بى ألم ولا غثيان .. ورؤى أخرى لفتيات حسان كانت لى معهن مطارحات غرامية والناس من حولى يصفقون مهللين .. ثم اســـتيقظت مرة اخرى ، فكان القادمون هما ابى وأمى جاءا لرؤية ابنهما الطريح وأمى تبكى بكاء مرا .. لقد أصبحت الان أقدر على الكلام ، ورحت أقول : حسن !.. حسن !.. حسن !.. ما الذى يجعلكم تظنون انكم محل ترحاب ؟..

فقال أبى خجلان مخزيا : رأينا فى الجـرائد يا ابنى .. قالت الجرائد انهم اساءوا اليك كثيرا !.. وقالت ان الحـكومة دفعتك لمحاولة التخلص من حياتك !.. وقالت ان الذنب ذنبنا أيضـا على نحو ما ياابنى !..

ذلك وما فتئت أمى مستغرقة فى البكاء والنحيب .. فقلت : وكيف حال ابنكم الجديد جو ؟.. لعله بخير وعافية وسعادة ؟!

فلم تعد أمى أن قالت منتحبة : أواه ياأليكس !.. ياأليكس !..

وقال ابى : حدث شيء غريب يابنى .. انه وقع فى ورطة مع الشرطة ، وقد قبضوا عليه ..

فقلت : أحقا ؟!.. أحقا ؟!.. يحدث هذا لمثل ذلك الشخص الطيب المحبوب ؟!.. انا مندهش بصراحة !..

فقال ابى : ان الشرطة ضبطوه مع فتاة لدى الناصية ، وعندما نهروه قال لهم ان له حقوقه كأى فرد من الناس ، فما كان منهم الا ان انقضوا عليه واعتقلوه !..

فقلت : فظيع !.. فظيع !.. وأين الفتى المسكين الان ؟..

فقالت امى بين العبرات والزفرات : ذهب من حيث اتى !.. اواه !.. اواه !..

وقال أبى : نعم ... عاد الى بلدته لكى يتداوى بعد الذى اصابه ، خصوصا بعد ان اعطوا عمله هنا لشخص آخر ..

فقلت : وهكذا الان أنتم راغبون فى عودتى اليكم من جديد لكى تعود الامور الى مجراها الطبيعى كما كانت من قبل !..

فقال ابى : نعم يابنى .. هذا رجاء منا !..

فقلت : سأفكر فى الامر .. سأفكر فى الامر بعناية ..

فكان مزيد من البكاء والنحيب من جانب امى .. فقلت لها : آه .. كفى ، والا فعلت شيئا يجعلك تصرخين بحق !.. سأقفل فمك بالقوة !..

والواقع ياخوانى اننى شعرت بتحسن ، وكأننى لكى اتحسن كان لابد أن يحدث ماسوء !..

وقال ابى : ماهكذا يجب ان تخاطب أمك يابنى !.. مهمـــا يكن فهى التى جاءت بك الى هذه الدنيا !..

فقلت : نعم .. ويالها من دنيا سعيدة !..

ثم اغمضت عينى بشدة فى شيء من الالم ، وقلت اخيرا : اذهبا الان !.. سوف افكر فى العودة اليكما .. لكن لابد من أن يختلف الموقف تماما !..

فقال ابى : نعم يابنى .. اى شيء تريده ..

فقلت : لابد أن تحزما امركما فيمن يكون رب البيت !..

فراحت امى تبكى قائلة : اواه !..

وقال ابى : حسن جدا يا ابنى .. سوف تكون الامور كما تحب .. فقط استرد صحتك !..

وبعد انصرافهما تمددت فى الفراش واخلدت الى التفكير فى امور

شتى .. وتعاقبت فى ذهنى صور واشياء كثيرة .. وعندما عادت الممرضة الحسناء واخذت ترتب الملاءات فى فراشى قلت لها : كم لبثت هنا ؟..

فقالت : حوالى أسبوع ..

ـ وما الذى كانوا يفعلونه بى ؟..

فردت قائلة : لا بأس .. انك كنت مهشما ومجروحا ونزفت منك دماء كثيرة .. فاضطروا ان يعالجوا لك كل هذا ، أليس كذلك ؟

فقلت لها : لكن ، هل فعل أحد اى شيء براسى ؟.. ما اقصده هو : هل عبثوا بمخى على اية صورة من الصور ؟..

فقالت : مهما يكن مما فعلوه ، فانه كان لمصلحتك ..

ولكن بعد عدة أيام زارنى اثنان من الاطباء الشـــــبان تعلو الابتسامة وجهيهما ، وكان معهما ماعرفت انه كتاب مصور .. وقال لى أحدهما : نريد منك ان تلقى نظرة على هذه الصور وان تقول لنا ما رايك فيها .. واضح ؟..

فقلت : ماذا وراءكما ؟.. واى مكر تخفونه فى جعبتكما ؟..

فابتسما فى شيء من الحيرة لهذا الكلام ، ثم جلسا على جانبى الفراش وفتحا الكتاب .. فى الصفحة الاولى كانت صورة عش طيور مليئا بالبيض .. فقال أحد الطبيبين : نعم ؟..

فقلت : عش طيور ، مليء بالبيض .. هو لطيف جدا ..

فقال الطبيب الاخر : وماذا تحب أن تفعل بشأنه ؟..

فقلت : آه .. احطمه .. آخذ العش كله واطوحه على حائط او صخرة أو اى شيء ، ثم اتفرج على الحطام ..

فقال الاثنان معا : جميل .. جميل ..

ثم قلبا الصفحة ، فبدت صورة طاووس نشر ذيله الكبير بكل الالوان متباهيا تياها .. فقال أحد الطبيبين : نعم ؟..

فقلت : اود أن انزع كل هذا الريش فى الذيل واسمع صراخه الجنونى ، نظير هذا التفاخر والتباهى ..

فقال الطبيبان معا : جميل .. جميل .. جميل !..

واستمرا يقلبان بقية الصحائف .. فرايت صور فتيات جميلات ، وقلت اننى اود أن أطارحهن الهوى مع مايلزم من اعمال العنف .. وكان ثمة صور أخرى لاشخاص يركلون فى وجوههم بالاحذية ودماؤهم تسيل مدرارا ، وقلت اننى اود ان اكون فى مثل هذه الصور (على الطبيعة) .. فقالا هذا جميل ، جميل ، جميل !..

فقلت : مامعنى هذا كله ؟..

فقال أحد الطبيبين : حالة (هيبنو بيديا عميقة) ، او شيء من هذا الكلام الغامض !..

ثم اضافا : يبدو انك شفيت ..

فقلت : شفيت ؟.. انا مقيد فى السرير هكذا ، وتقولون اننى شفيت ؟! .. كلام مزوق لا اكثر ، هذا ردى عليكم !..

فقال الاخر : انتظر .. لن يطول الوقت بعد الان ..

وهكذا جعلت انتظر ياأخوانى .. وقد تحسنت حالتى كثيرا وانا آكل البيض واقضم (التوست) واشرب اقداحا كبيرة من الشاى واللبن .. الى ان جاء يوم ابلغونى فيه انه سيحضر عندى زائر كبير المقام ..

— من هو ؟..

قلت هذا بينما كانوا يسوون الفراش ويمشطون شعرى الغزير نيابة عنى بعد أن رفعت الضمادات عن رأسى ونما الشعر من جديد ..

فقالوا : سوف ترى .. سوف ترى ..

وقد رأيت فعلا .. ففى الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر أقبل المصورون ومندوبو الصحف مشرعين مفكراتهم وأقلامهم الى آخر هذه الظواهر .. ولو استطاعوا ياأخوانى أن ينفخوا فى الابواق لفعلوا اجلالا لصاحب المقام الرفيع القادم لرؤية محدثكم المتواضع !..

ثم جاء فعلا .. وطبعا لم يكن سوى وزير الداخلية الافخم ، شرف فى أوج اناقته متشدقا بلهجته السامية المنمقة ، تبرق من حوله كاميرا التصوير خصوصا حين مد يده الكريمة الى يصافحنى !..

فقلت : حسن !.. حسن !.. حسن !.. ماهى الحكاية أيها الرفيق الكريم ؟..

ولكن واحدا من القادمين انتهرنى بصوت خشن : الزم الادب والاحترام ياولد عندما تخاطب الوزير !..

فقلت مزمجرا مثل كلب : طظ فيكم كلكم !..

فسارع وزير الداخلية يقول : لا بأس .. لا بأس .. انه يكلمنى كصديق ، أليس هذا يابنى ؟..

فقلت : أنا صديق كل انسان ، الا اعدائى !..

فقال الوزير ومندوبو الصحف منهمكين فى الكتابة والتدوين : ومن هم اعداؤك ؟.. قل لنا هذا ياولدى ..

فقلت : ان كل الذين يسيئون الى هم اعدائى ..

فقال وزير الداخلية وهو يجلس قرب فراشى : لا بأس .. اننى والحكومة التى انا عضو فيها نريد منك ان تعدنا كأصدقاء .. نعم أصدقاء .. اننا قومناك ، صح ؟.. وانت تنال افضل علاج .. ولم نرد لك ابدا اى ضرر .. لكن هناك البعض ممن فعلوا هـذا ويفعلونه .. واظن انك تعرف من هم هؤلاء ..

فقلت : ان كل الذين يسيئون الى هم اعدائى ..

فقال الوزير : نعم ، نعم ، نعم .. هناك أفراد معينون ارادوا أن يستخدموك — نعم — يستخدموك لاغراض سياسية .. وكان يسرهم — نعم — يسرهم ان تلقى حتفك ، فانهم ظنوا انه يمكنهم بهذا أن يلقوا اللوم كله على الحكومة .. واظن انك تعرف من يكون هؤلاء الافراد ..

فقلت : اننى لم استرح اليهم ..

فقال الوزير : هناك رجل يدعى ف . الكسندر ، محرر مطبوعات هدامة ، ذهب يملأ الدنيا صراخا مطالبا بدمك .. انه قد جن جنونا رغبة منه فى غرس مدية فى شخصك .. لكنك الان فى امان منه .. لقد ابعدناه عنك ..

فقلت : كان المظنون انه يكن لى الصداقة .. كان يرعانى رعاية الام للابن ..

فعاجلنى الوزير قائلا : لقد اكتشف انك اسأت اليه .. او على الاقل ساوره الاعتقاد بأنك كنت المسيء .. لقد نبتت فى ذهنه فكرة انك كنت المسئول عن وفاة شخص قريب له وعزيز عليه ..

فقلت : ان ماتعنيه هو أن أحدا أبلغه بهذا ..

فقال الوزير : كانت عنده هذه الفكرة .. وقد اصبح خطرا عليك .. فأبعدناه لحمايته شخصيا ، ولحمايتك انت ايضا ..

فقلت : طيبة وانسانية .. منتهى الطيبة من جانبكم ..

فقال الوزير : عندما نغادر هذا المكان ، لن تبقى أمامك اية متاعب ولا أكدار .. اننا سندبر لك كل شيء .. عمل طيب ، ومرتب طيب .. لانك تساعدنا ..

فقلت : هل أفعل هذا حقا ؟..

— اننا دائما نساعد أصدقاءنا .. أليس كذلك ؟..

ثم امسك الوزير بيدى ، وعندها صاح أحدهم (ابتسم !) فابتسمت دون تفكير ، وسرعان ما لمعت كاميرات التصوير تأخذ

صورتى وصورة الوزير ونحن على اتم الود والصفاء .. وقال ذلك الرجل الخطير : جميل ، جميل ياولدى !.. والان ، انظر ، هـذه هدية لك !..

ان ماجاءوا به الان ياأخوانى كان صندوقا كبيرا لامعا ، فعرفت بوضوح ما هو .. كان جهاز (استيريو) .. وقد وضعوه بجانب السرير وفتحوه ، وتولى شخص وضع (الفيشة) فى (بريزة) الحائط وقال آخر يضع نظارة على انفه ، وكان يحمل فى يديه اغلفة جميلة لامعة مليئة بالاسطوانات : اى موسيقى تريد ؟.. موتسارت ؟.. بتهوفن ؟.. شوربنبرج ؟.. كارل اورف ؟..

فقلت : السيمفونية رقم ٩ .. السيمفونية المجيدة ..

وادرت السيمفونية الرائعة ياأخوانى .. واخذ كل واحـد ينسحب فى هدوء وتلطف فيما تمددت فى مكانى مغمض العينين استمع الى اعذب الالحان .. وقال الوزير وهو يربت على كتفى : بديع ، بديع ياولدى !..

ثم خرج على الاثر ، ولم يبق سوى شخص واحد قال لى : وقع هنا من فضلك ..

ففتحت عينى لكى اوقع دون ان ادرى ما الذى اوقع عليـه ، وما كان يهمنى ياأخوانى ان ادرى .. وفى النهاية بقيت وحدى مع سمفونية بتهوفن الخالدة ..

آه !.. كانت هى الروعة والجلال والجمال معا !.. وفى مسراها فى وجدانى بدا لى وكأننى أركض وأركض فوق سـاقين خفيفتين خفيتين ، أشق وجه الدنيا كلها الصارخة بمديتى الحادة البتارة .. ثم كان ختامها بالحركة الوانية ثم الحركة الفنائية البديعة العذبة .. فشعرت اننى قد شفيت حقا وصدقا ..

الفصـــل الســابـــع

ماذا سيكون اذن ، ياترى ؟..

هانذا ، محدثكم المتواضع ، مع رفاقى الثلاثة : لين ، وربك ، وبولى .. لقد سمى بولى بهذا الاسم (الثور) بسبب عنقه الضخم الغليظ وصوته الذى يشبه خوار الثور حقا ..

كنا جلوسا فى مشرب اللبن (كوروفا) نتشاور فيما نفعله هذه الامسية الشتوية القارسة البرد الحالكة الظلام وان كانت خلوا من المطر .. وكل ماحولنا كان اناسا يشربون اللبن المقوى بالاخلاط الملهبة التى تطير العقل وتطوح بالشاربين فى أجواز الفضاء .. اما تأثير هذا الشراب عندنا نحن الفتيان فكان يلهب حواسنا ويستفزنا للقيام بأعمال العنف ، ولكننى حدثتكم عن هذا ياأخوانى فيما سلف من قبل ..

وكنا الان نلبس قمة (الموضة) فى هذه الايام ، وهى البنطلون الواسع الفضفاض وسترة الجلد السوداء اللامعة فوق قميص مفتوح الرقبة مع منديل كبير مشدود الى الصدر .. وكان من مقتضيات (الموضة) ايضا فى هذه الفترة هو استعمال المطواة الحـادة على الرأس ، وهكذا كان أكثر الرأس شبه اصلع ، ولا يبقى الشـعر الا على الجانبين .. اما الاقدام فقد بقيت على حالها ، مدسوسـة فى الحذاء الثقيل لركل الوجوه ركلا ..!

وكنت انا اكبر هذه الزمرة سنا ، وكانوا جميعا ينظرون الى كزعيم لهم .. غير أن الفكرة كانت تراوحنى أحيانا بأن بولى ربمـا يفكر فى أن يتولى هو الزعامة ، وذلك بسبب ضخامته وهدير صوته عندما يكون مشتبكا فى المعمعة .. ولكن كافة الافكار والخطط كانت تنبع من محدثم المتواضع ياأخوانى ، وكذلك لما اتسقت لى من شهرة بعد تلك المقالات والصور الفوتوغرافية التى نشرت عنى فى الجرائد.. يضاف الى هذا اننى كنت اتقلد احسن عمل دون كل الفريق ، فى (شركة الاسطوانات الموسيقية الوطنية) بمرتب كان يجعل جيبى مملوءا بالنقود فى نهاية الاسبوع ، الى جانب مجموعة من الاسطوانات المجانية افوز بها من الشركة ..

فى هـــذا المساء كان فى مشرب كوروفا جمع طيب من افراد الجنسين كبارا وصغارا جلسوا يتسامرون ويحتسون الشراب بين عزف (الاستيريو) لاغاني (البوب) الشائعة .. وكانت تجلس الى المقصف مجموعة نسائية فى زى (النادسات) العصرى ، وهو الشعر الطويل المشعث المصبوغ باللون الابيض ، مع النهود الصناعية البارزة بقدر متر (!) ، و (الجونلة) المحبوكة شديدة الضيق والقصـــيرة ومن تحتها أطراف (الدانتللا) بادية .. وكان بوللى لا يفتأ يكرر لهن هذه الكلمات : (بالامكان ان ننتقل الى جانبكن نحن الثلاثة ، اما لين فهو غير مهتم !.. اتركن لين وحده مع أطيافه الحوريات !..) .. فكان لين يرد عليه بقوله : (تخريف ، تخريف !.. اين مبدا الكل مع الواحد والواحد مع الكل ، ياولد !؟ ..) .. وفجأة الفيتنى أشعر بالتعب الشديد والنشاط المتجدد فى آن واحد .. فقلت لهم :

ـ الى الخارج !.. الى الخارج !.. الى الخارج !..

فقال ريك الذى له وجه كالضفدعة : الى اين ؟..

فقلت : لكى نرى ماذا يجرى فى الدنيا الواسعة فى الخارج ..

بيد اننى كنت أشعر على نحو ما ياإخوانى بالضجر الشـــديد وقلة الحيلة ، وكان هذا الاحساس يلازمنى اكثر الوقت فى هـــذه الايام .. وهكذا انثنيت الى الشخص القريب من مجلسى على الاريكة الوثيرة الممتدة باستدارة المشرب مستغرقا فى هذيانه ، فصوبت اليه عدة لكمات فوق بطنه ، غير انه لم يشعر بها ياإخوانى ، ومضى يهذى بأبيات من الشعر الغنائى لا معنى لها !..

سرنا فى طريق (مارجانيتا بوليفار) دون أن نصادف فى مسيرنا شرطة من قوة الدورية .. وهكذا ما ان التقينا برجل آت الى ناحيتنا خارجا لتوه من كشك بيع الجرائد حتى قلت لبوللى :

ـ لا بأس يابوللى ياولدى .. تقدم اذا كانت لديك الرغبة ..

فقد كنت هذه الايام أميل الى اصدار الاوامر واقف بمعزل لرؤية هذه الاوامر تنفذ .. وهكذا تقدم بوللى الى الرجل واصطدم به ، بينما اوقعه الاثنان الاخران (بمقص) وانهالا عليه رفسا وهو ممدد على الارض ، ثم تركاه يزحف مبتعدا الى حيث يقيم وهـــو ينتحب .. وقال بوللى :

ـ ما رايك ياأليكس فى كأس من اى نوع لدفع البرد عنا ؟..

ذلك لاننا كنا وقتها غير بعيدين عن (بار دوق نيويورك) ..

فأوما الاخران بنعم نعم ، ولكن ثلاثتهم تطلعوا الى ليروا ان كنت اوافق ، فأومأت أيضا ايجابا ، ومضينا الى المشرب ..

وفى الداخل وجدنا أولئك النسوة العجائز اللاتى تتذكرونهن منذ بداية هذه القصة ، وما ان وقعت انظارهن علينا حتى بدانـــا بالاسطوانة المعروفة : (مساء الخير يافتيان !.. بارك الله فيكم !.. انتم احسن الفتيان فى الدنيا !..) .. وقد انتظرن ان نرد عليهن بعبارة (ماذا تطلبن يابنات ؟) .. فاستدعى بوللى (الجرسون) الذى جاء يمسح يديه فى (المريلة) الزنخة ، وقال بوللى وهو يخرج النقود من جيبه ويفرغها على المائدة فى رنين :

ـ نقودكم على المائدة يارفاق .. ويسكى لنا ، ولســـيداتنا ايضا !..

وعندئذ قلت :

ـ آه !.. الى الجحيم !.. دعهن يشترين المشروب لانفسهن!..

ولست أدرى ما الذى دهانى ، غير أننى شـــعرت فى الفترة الاخيرة باننى اقرب الى البخل والتقتير .. ودارت بخاطرى رغبة فى الاحتفاظ بكل نقودى لنفسى وادخارها كلهـــا لسبب ما .. وقال بوللى :

ـ ماذا جرى يابطل ؟.. ماذا دها اليكس العتيد ؟..

فقلت : آه !.. الى جهنم !.. لست أعرف .. لست أعرف .. ان ما أعرفه هو اننى لا أحب ان ابعثر نقودى التى كسبتها بشق النفس .. هذا هو ما بى ..

فقال ريك : تقول كسبتها ؟.. كسبتها ؟.. لا لزوم لكى تتعب فى الكسب ، كما تعرف أيها الزميل العزيز .. النقود نأخذها اخذا !..

وشفع هذا بابتسامة كشفت عن اختفاء سن او اثنتين مـــن فمـــه ..

فقلت : آه !.. لابد لى من التفكير ..

ولكن بعد ان لمحت أولئك العجائز أقرب الى التلهف لطلب شراب مجانى ، هززت كتفى وأخرجت نقودى من جيب بنطلونى وكانت معدنا وورقا ، فنثرتها على المائدة .. فقال (الجرسون) :

ـ ويسكى للجميع !..

لكن لسبب ما قلت : لا ياولد .. اطلب لى انا كأس بيرة ..

فقال لين : انا لا استحب هذا !..

وهم أن يضع يده على راسي مداعبا ، كأنني اصبت بحمى ،
غير انني زمجرت في وجهه لكي يكف ... فقال :
ـ لا بأس !.. لا بأس ياصاحبي !.. كما تحب ..
لكن بوللي كان ينظر فاغر الفم الى شيء خرج من جيبي مع
النقود التي وضعتها على المائدة ، وقال :
ـ شيء جميل !.. وكنا لا نعرف ابدا !..
فقلت مزمجرا وانا اختطف ما رآه : اعطني هذه !..
كانت ياأخواني صورة فوغرافية قصصتها من جريدة ، وكانت
لطفل رضيع ضاحك واللبن يتساقط من فمه ، شاخصا بوجهه
الضحوك لكل انسان ، وكان عاريا تماما وطيات لحمه بادية لفرط
سمنته .. وقد نشبت بيننا شبه مشادة لمحاولتهم انتزاع الصورة
مني ، وهكذا زمجرت في وجوههم مرة اخرى واختطفت الصورة
ومزقتها كل ممزق وتركتها تتناثر على الارض تناثر حبيبات الثلج..
ثم جيء بالويسكي على الاثر ، وقالت العجائز : « في صحتكم
يافتيان !.. بارك الله فيكم ، ياأحسن فتيان في الوجود !.. هذا
هو أنتم !.. » ـ الى امثال هذا الكلام .. ثم قالت احداهن وهي
اكثرهن تجاعيد وقد ذهبت الاسنان من فمها الفائر : « لا تمزق
النقود يابني !.. ان كنت لاتريدها فامنحها لمن يحتاج اليها !.. » ..
وكانت في هذا القول جريئة وصريحة .. ولكن ريك رد عليها
قائلا :

ـ لم تكن هذه نقودا ياجدتي .. كانت صورة لطفل صغير ..
فرحت اقول لهم :
ـ انني بدأت أتضايق منكم .. الاطفال هم أنتم .. تهزلون
وتتفامزون وكل ما تقدرون عليه هو الاعتداء بالضرب على الناس بجبن
حين لا يقدرون على رد العدوان بمثله !..
فقال بوللي : لا بأس .. كنا نظن حتى الان انك الملك والمعلم !..
انك لست على مايرام .. هذه هي المشكلة يازميلي العزيز !..
وحانت مني التفاتة الى كأس البيرة التي جيء بها الى على
المائدة ، فشعرت بأنني على وشك القيء ، وهكذا قمت وسكبتها
على الارض ، حتى قالت احدى النساء : « لا تبدد ما لا تريده ! » ..
ولكنني وجهت كلامي الى الرفاق الثلاثة قائلا :
ـ اسمعوا يارفاق .. انصتوا .. ان مزاجي معكر هذه الليلة
.. ولست اعرف لماذا ولا كيف ، ولكن هذا هو الحال .. اذهبوا

انتم الثلاثة في طريقكم هذه الليلة ، بدوني .. وغدا سنلتقي في نفس
الزمان ونفس المكان ، على أمل ان اتحسن وقتذاك ..
فقال بوللي : آه !.. انا آسف لهذا !..
لكن كان بوسعك ان ترى ذلك البريق في عينيه ، اذ انه سيتزعم
المجموعة هذه الليلة .. هي القوة والسلطان ، يريدهما كل انسان !..
فقال بوللي : يمكننا ان نؤجل الى الغد مشروعنا لهذه الليلة ـ
اعني الغارة على ذلك المحل في شارع جاجارين .. الغنيمة هناك مغرية
وجزيلة أيها الرفاق ، لن يقدم عليها !..
فقلت : لا .. لا تأجيل لشيء .. فقط افعلوا ماتريدون بأنفسكم
وبطريقتكم .. والان انا خارج !..
وقمت من مقعدي .. فقال ريك : الى اين اذن ؟..
فقلت : هذا ما لا اعرفه .. اريد ان اكون وحدي وافكر في
احوالي !..
بدت الدهشة على وجوه النسوة العجائز وقد رأينني اخرج
على هذه الصورة وانا متبرم ساخط ولست الفتى المتوثب الضحوك
الذي تذكرونه ياأخواني !.. ولكنني قلت :
ـ آه !.. الى جهنم !.. الى جهنم !..
وانطلقت وحدي الى الشارع ....
كان الظلام سائدا والريح قارسة البرد ، ولم يكن ثمة سوى
قلة من الناس في الطريق .. ولكن دوريات الشرطة بالسيارات كانت
لا تكف عن الطواف وبداخلها أفراد قساة اشداء ، وحول النواصي
كنت ترى اثنين من رجال الشرطة الشبان يضربون الارض بأقدامهم
لمقاومة البرد اللاذع وانفاسهم تنعقد أبخرة في هواء الشتاء .. وفي
ظني ياأخواني ان كثيرا من أعمال العنف واقتحام المحال للسلب
والنهب قد تلاشى الان ، بعد أن بدأ رجال الشرطة يتعاملون بالشدة
والقسوة مع من يعتقلونهم ، على الرغم من أن الاشتباكات بين
أشقياء (النادسات) والشرطة كانت تتحول الى معارك طاحنة
اسلحتها المدى والمطاوي والعصي ، وحتى الاسلحة النارية ..
لكن ما اعتراني هذه الايام هو انني لم اكد أبالي بشيء .. فكأنما
سرت الى نفسي طراوة لم أفهم لها سببا ولا علة .. ولم استطع ان
اعرف ماذا اريد وأبتغي .. وحتى الموسيقى التي كنت مشغوفا
بسماعها في (وكري) بالبيت لم اعد أستطيبها ياأخواني .. كنت
أستمع الان الى الاغاني الرومانسية الهادئة الشجية ، مجرد كلمات

وبيانو ، مختلفة تماما عن موسيقى الاوركسترا التى كنت استمع اليها وانا ممدد فى فراشى منتشيا سابحا فى الفضاء !.. هناك شىء بدأ يحدث لى فى داخلى ، حتى رحت اتساءل ان كان مرضا او هو شىء فعلوه بى فى تلك الفترة الماضية ، فقلبوا الموازين فى دماغى ، ولعلهم يوشكون أن يفضوا بي الى الهوس والاختلال !..

على هذه الصورة من التفكير ياإخوانى رحت امشى فى المدينة مطرق الراس ويداى فى جيوبى حتى ادركنى التعب الشديد وشعرت فى نفس الوقت بحاجة ملحة الى قدح كبير من الشاى واللبن .. وقد أفضى بى التفكير فى الشاى الى تخيل صورة فجائية لنفسى جالسا إمام مدفأة فى مقعد وثير أحتسى هذا الشاى ، وانما كان المضحك والمستغرب اننى تخيلت نفسى وقد استحلت الى شخصية محترمة فى نحو السبعين من العمر وقد خط المشيب شعر صاحبها !.. هكذا تخيلت نفسى رجلا كهلا جالسا بجانب المدفأة ، لكن هذه الصورة لم تلبث أن تلاشت ، وان تلبث فى نفسى التفكير فى غرابتها !..

ووصلت الى واحد من تلك المقاهى التى تقدم القهوة والشاى ، واستطعت أن اتبين من خلال نافذتها الطويلة اناسا متبلدين عاديين لهم وجوه صابرة لا تعبر عن شىء ولا يبادر اصحابها أحدا بأذى ، وكلهم جلوس يتسامرون فى هدوء ويحتسون الشاى والقهوة بما لا يضر شيئا .. فدخلت واتجهت الى (الكاونتر) واشتريت قدحا من الشاى الحار وبه قدر كبير من اللبن ، ثم جلست الى احدى الموائد لكى أشربه .. وكان يجلس الى هذه المائدة الكبيرة شاب وفتاة يشربان ويدخنان سجائر ذات (فلتر) وهما يتجاذبان اطراف الحـــديث ويتبادلان الابتسام هادئين وادعين ، بيد أننى لم ألق اليهما بالا ورحت أحتسى وانا فيما يشبه الحلم والعجب مما اعترانى وغيرنى ومما قد يحدث لى .. لكننى رايت أن تلك الفتاة الجالسة مع الشاب الى المائدة كانت حسناء بمعنى الكلمة ولكنها ابعد ما يكون عن صـــورة الفتاة المبتذلة الرخيصة التى تثير الغرائز الجامحة .. كانت متناسقة القوام مليحة الوجه باسمة الثغر رخيمة الصوت .. وما لبث جليسها الشاب الذى كان وجهه مائلا عنى فى الناحية المقابلة ان انثنى لينظر الى الساعة الكبيرة المعلقة على الحائط ، وسرعان ما عرفته ، وسرعان ماعرفنى .. كان بيتر ، أحد الرفاق الثلاثة من عهد الايام السالفة عندما كنا اربعة : جورجى ، وديم ، وبيتر ، وانا .. وقد بدا بيتر الان اكبر سنا وان لم يجاوز التاسعة عشرة ، وكان له شـــارب

خفيف ، وكان مرتديا بدلة عادية وقبعة فوق رأسه ..

قلت له : حسن ، حسن ، حسن ياصاحبى !.. منذ وقت طويل لم نرك !..

فقال : اليكس الصغير ؟.. اليس كذلك ؟..

فقلت : لا سواه !.. مضت مدة طويلة طويلة منذ تلك الايام الحلوة الماضية !.. والان فان جورجى تحت التراب كمـــا اخبرونى ، وديم شرطى وحشى ، وهأنذا وانت !.. ماهى اخبارك أيها الزميل القديم ؟..

فقالت له فتاته متضاحكة : ان كلامه عجيب ، اليس كذلك ؟..

فقال لها : هو صديق قديم .. اسمه اليكس ..

والتفت الى قائلا : اسمح لى ان اقدم لك زوجتى ..

انفرج فمى عن آخره ، وقلت : زوجة ؟.. زوجة .. زوجة ؟.. آه ، كلا !.. هذا لايمكن !.. انت أصغر كثيرا من أن تتزوج ، ياصاحبى !.. مستحيل !.. مستحيل !..

فضحكت الفتاة التى قال انها زوجته وقالت له : هل تعودتما أن تتكلما هكذا أيضا ؟..

فقال بيتر باسما : حسن .. ان سنى تقارب العشرين ، وهى سن تكفى للقيد .. وقد تم ذلك منذ شهرين .. اما انت فكنت صغيرا جدا ، ومقداما !..

فقلت ومازلت فى دهشتى : لا بأس .. هذا شىء لا يمكن ابتلاعه بسهولة !.. بيتر متزوج !؟.. حسن !.. حسن !.. حسن ..

فقال بيتر : لنا الان شقة صغيرة ... وانا انال مرتبا صغيرا فى شركة للتامين البحرى ، لكن الاحوال سوف تتحسن ، هذا مؤكد .. وجورجينا هنا ..

فقلت له وما زلت فاغر الفم : ماهذا الاسم ؟..

فأجاب بين ضحك زوجته : جورجينا زوجتى تعمل أيضا .. على الالة الكاتبة .. ونحن نتعاون لتدبير أمورنا ..

لم أستطع ياإخوانى أن أرفع بصرى عنه حقيقة !.. هكـــذا كبر بسرعة ، وتمشى صوته مع تقدمه فى السن !.. بينما مضى يقول :

ـ يجب أن تحضر لرؤيتنا فى وقت ما .. اما انت فانك مازلت تبدو أقرب الى صغر السن ، على الرغم من التجارب الرهيبة التى مررت بها .. نعم ، نعم ، نعم .. اننا قرأنا كل ماكتب عنها .. لكنك مازلت مع ذلك صغير السن ..

فقلت : ثمانية عشر عاما .. او أزيد قليلا ..

فقال بيتر : ثمانية عشر عاما ؟.. هل كبرت الى هذا الحد ؟.. لا بأس .. الان لابد لنا من الانصراف ..

ورمق جورجينا هذه بنظرة محبة وضغط باحدى يديه على يدها وبادلته نظرته بمثلها ياأخوانى !..

وقال بيتر وهو ينثنى نحوى : نعم .. نحن ذاهبان الى حفلة صغيرة عند جريجز ..

فقلت : جريجز ؟!..

فقال بيتر : آه .. طبعا انت لايمكن أن تعرف جريجز .. انه ظهر بعدك – فى فترة غيابك .. هو يقيم حفلات صغيرة ، معظمها تقوم على العاب الكلمات وبعض الشراب الخفيف .. لكنهـا لطيفة جدا ، ومبهجة جدا .. ثم انها غير ضارة ، اذا فهمت قصدى ..

فقلت : مفهوم .. غير ضارة .. مفهوم .. مفهوم تماما ..

وانصرف الاثنان الى حفلهما الصغير عند جريجز هذا ، وبقيت وحدى مع الشاى الذى بدأ يبرد الان ، متفكرا متعجبا ..

ربما كان هذا هو الواقع : اعنى اننى كبرت بالنسبة الى تلك الحياة التى كنت أعيشها والاسلوب الذى كنت انتهجه ياأخوانى .. لقد كنت الان فى الثامنة عشرة ، او جاوزتها بقليل .. ان الثامنة عشرة لم تكن سنا صغيرة .. ففى الثامنة عشرة كتب (فولف – جانج اماديوس) سيمفونيات وكونشرتات واوبرات وموشحات وغيرها كثير من تلك الموسيقى السماوية .. ثم هنـــاك (فيلكس م .) برائعته (افتتاحية حلم منتصف ليلة صيف) .. وهناك غيرهما كثيرون .. ثم هناك ذلك الشاعر الفرنسى الذى دبج أروع شعره وهو بعد فى الخامسة عشرة .. واسمه ارثر على ما أذكر .. آه ياأخوانى !.. ان سن الثامنة عشرة لم تعد تلك السن الصغيرة .. لكن ما الذى يتعين على أن أفعله ؟..

لقد راحت تتراءى لى بعد خروجى من مقهى الشاى والقهوة الى الظـلام الشتوى القارس رؤى كالتى تتعاقب فى رســـوم (الكارتون) المصورة فى الصحف .. فها هوذا محدثكم المتواضع اليكس عائدا الى بيته بعد العمل ليجد عشاء ساخنا طيبا ، وها هى ذى فتاته ترحب بعودته وتمنحه مودة الزوجة الحانية !.. لكننى لم استطع أن اتبينها ياأخوانى .. لم أستطع أن افكر من ستكون ياترى .. غير اننى تملكتنى تلك الفكرة القوية المفاجئة بأننى اذا دلفت الى

الغرفة المجاورة لهذه الغرفة التى يتقد فيها لهب المدفأة والعشـــاء الساخن معد فيها على المائدة ، فاننى واجد فيها من اريد حقا !.. ثم تلك الصورة الفوتوغرافية للطفل الرضيع المقصوصة من الجريدة .. هناك ولاشك سيكون فى غرفة أخرى ذلك المهد الصغير الذى يرقد فيه الطفل الضحوك هانئا وادعا .. طفلى ، وابنى !..

لم اتمالك ان صحوت من تأملاتى شاعرا بفراغ سحيق فى داخلى، مندهشا مما اعترانى .. لقد لمست ما هو حادث لى ياأخوانى .. اننى كبرت حقا !..

أجل !.. هذه هى الحقيقة .. لابد أن يذهب الشباب ويولى.. انما الشباب لا يعدو ان يكون مثل حيوان .. لا .. انه مثل تلك اللعب التى تراها تباع فى الشوارع ، تمثل اشخاصا صـــنعوا من الصفيح وزودوا بزنبرك ومفتاح خارجى تملؤه بيدك ، فينطلق فى خط مستقيم ويصطدم بالاشياء وهو لايملك لنفســه وقفا ولا حيلة له فيما يفعل !.. ان صغر السن هو أقرب شبها بتلك الالات الصغيرة!..

ابنى !.. ابنى !.. عندما يكون لى ابن فاننى سأشرح له كل هذا حينما يكبر الى الحد الذى يجعله يفهم .. غير اننى اعرف انه لن يفهم ، أو لن يريد أن يفهم بتاتا ، ويقبل على فعل كل الاشياء التى فعلتها .. نعم .. وربما حتى على قتل عجوز مسكينة ترعى القطط ، وقد لا أستطيع وقفه عند حده .. وربما لا يستطيع أيضا أن يوقف ابنه هو عند حده ياأخوانى !.. وهكذا تمضى الامور على هذه الوتيرة الى نهاية الدنيا ، دورانا ودورانا لاينقطع ، وكأنما هو القدر القلاب يدير برتقالة دورانا مستمرا دائبا ، دون أن يكون لها حول ولا قوة فى يديه الهائلتين !

لكن قبل هذا كله ياأخوانى ، لابد من البحث عن تلك الفتـــاة التى تكون اما لهذا الابن .. لابد أن أبدأ هذه المهمة من غدى .. لكى تكون بمثابة فصل جديد استهل به ما اريد ..

وهذا هو ماسيكون ياأخوانى وانا اقترب من نهاية هــــذه القصة .. لقد كنتم فى كل مكان مع صديقكم الصغير اليكس ، تعانون معه ، وقد شهدتم بعض نماذج الشخوص الملتوية التى كانت حربا على صديقكم اليكس العتيد .. وكل ذلك لاننى كنت حدثا غريرا .. اما الان وانا اختتم هذه القصة ياأخوانى ، فاننى لم اعد صغيرا بعد ، ولن اكونه قط ، فان اليكس قد انتقل الى مرحلة الكبر ..

انني مقبل الان ياأخواني على عهد جديد مستقلا بكياني ، الى حيث لا يمكنكم صحبتي بعد .. وغدا سيكون مثل الزهور المتفتحة ، والثمار اليانعة فى التربة الخصبة ، والانجم اللامعة ، والقمر العتيد السارى فى عليائه ، وفيه يضطلع صديقكم اليكس بالتماس شريكة لحياته ، فى دنيا غير دنيا المعاناة الرهيبة التى استهدف لها وامتحن بها .. وهكذا اودعكم ياأخوانى وداعا قوامه الشكر والامتنان ، راجيا منكم حسن الذكر والدعاء بالتوفيق لصاحبكم اليكس صـــديقكم القــــديم .

تمت ..